اهداء خاص لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
من صفحة شخصية من ريمة
اول مرة توفر كتاب الثقافة الجمهورية في اليمن
بصيغة pdf
م.محمد غالب السعيدي

الثقافة الجمهورية في اليمن

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

د. علي محمد زيد

الثقافة الجمهورية في اليمن

دراسات

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

الإهداء

إلى ذكرى الرائد التربوي المستنير أحمد جابر عفيف، العصامي الذي خرج يتيما من بيت الفقيه، وثابر في الحصول على المعارف والخبرات حتى نشر التعليم الجمهوري الحديث، وأسس جامعة صنعاء و"مؤسسة العفيف الثقافية".

شكر وعرفان بالجميل

أرى لزاما عليَّ أن أشكر كل من أسدى لي المشورة والنصح، ووضَّح لي بعض الأفكار أو صححها، وأرشدني إلى المصادر والمراجع التي أشارت إلى ما أبحث عنه، أو مدَّ لي يد المساعدة ويَسَّر لي العمل في هذا الموضوع الذي استهواني وزادني معرفة وأزاح عني بعض الجهل وقلة المعرفة.

وأخص بالذكر الزملاء الأعزاء قادري أحمد حيدر، ومُحَّمد عبدالوهاب الشيباني، وعبدالباري طاهر، وإبراهيم المقحفي. ولن أنسى المساعدة القيمة التي قدمها لي الزميل عبدالله الشرفي، أمين مكتبة مركز الدراسات والبحوث اليمني، ومساعده مُحَّمد علي زيد.

كما أود أن أشكر أسرة الدكتور حسن مكي التي وضعت تحت تصرفي مكتبته الخاصة للحصول على ما أبحث من مراجع ومطبوعات.

ولا بد لي أن أشكر رفيقة عمري شهد مكي التي كانت لي خير مشجِّع ومعين وذلَّلت لي كل العقبات التي تحول بيني وبين الاهتمام بهذا الموضوع في بيئة لم يعد فيها ما يشجع على الاهتمام بالبحث الثقافي بعد أن انهار البناء الجمهوري كله أمام أعيننا بعبثية منقطعة النظير.

ومن الطبيعي أن أقول إنني في حين أشكر كل من نصحني أو صوَّب لي فكرة أو صحَّح لي ما قد أكون ارتكبت من أخطاء، فإنني وحدي المسئول عن أي خطأ في التعبير أو التفسير، أو الاستنتاج.

وإنني لأرجو من كل قارئ لهذا الكتاب أن يحمِلَني على السلامة ويساهمَ في تقويم أي اعوجاج وسد أي نقص، وأن يتجاوز عن أي تقصير.

المقدمة

حين يصل التيه إلى حد التساؤل والتشكيك بعقولنا وبأحاسيسنا وتجاربنا التي عشناها، وتذوّقنا حلاوتها أو تجرّعنا مراراتها، يصبح الأمر خطيرا ويستدعي أن نتوقف ونتأمل محطات حياتنا لنوطد اليقين الذي امتلكناه ونقلل من لحظات الشك والحيرة التي تصيبنا بالإحباط واليأس.

هذا ما أحسست به وأنا أخوض في نقاش مع مجموعة من شباب لم يخوضوا بعد تجارب الحياة كما ينبغي ولا يتعاملون مع عقولهم تعاملا مسئولا مع أنهم يستطيعون إذا امتلكوا الإرادة والتصميم بلوغ حد كبير من المعرفة اليقينية، لأنهم يمتلكون من وسائل الوصول إليها أضعاف ما أتيح لنا في الستينيات والسبعينيات وحتى الثمانينيات. ولا تنقصهم التحديات التي ينبغي أن يواجهوا وأن يتفاعلوا معها ويستجيبوا لها بعقل منفتح وبطموح كبير نحو تجاوز لحظات الخواء وتجنب إغراء الاستسلام للفراغ.

جعلني أحدهم في مواجهة نفسي حين سألني ببساطة: ما هي الثقافة الجمهورية التي تتحدث عنها؟ وأحسست بشيء من الصدمة، وخشيت أنني لا أمتلك الإجابة عن سؤال كان ينبغي أن أسأله لنفسي قبل أن أواجهَ هذا السؤال البسيط المحرج. فهل أمتلك إجابة شافية؟

ما ذا يمكن أن تكون الثقافة الجمهورية في اليمن؟ إن لم تكن:

- تحوُّل أحلام المستنيرين الرواد، من تُهمٍ تقود في أحسن الأحوال إلى السجون وفي أسوئها إلى المشانق، إلى جمهورية تحطم قيود العزلة والانغلاق وتفتح الأبواب والنوافذ لرياح الحرية كي تهب وتقي شعب اليمن مخاطر الاحتضار والانقراض.

– وتجديد مُحَّد محمود الزبيري للشعر العمودي بتحويله من مدح وهجاء ورثاء ونفاق ومجاملات ونَظمٍ سطحي مفتعل إلى كتابة بالأعصاب والمشاعر وبدم القلب، وبلغة لا أصدق منها، مكرَّسة للدعوة لتحرير الشعب من الظلم والاضطهاد والاستبداد والحرمان من كل ما يساعد الإنسان اليمني في تحمل أعباء الوجود على هذه الأرض، والاندماج الحميم الصادق بين الشاعر الإنسان وإبداعه الشعري وقضية شعبه.

– وتحوُّل دعوة حركة الأحرار، بقيادة الرائدين العظيمين مُحَّد محمود الزبيري وأحمد مُحَّد نعمان، لنشر "العلوم النافعة"، وبخاصة دعوة أحمد نعمان إلى إعطاء الأولوية للتعليم وتأسيس كلية بلقيس لاستيعاب أبناء الهاربين من الظلم والفقر نحو مستعمرة عدن، إلى نظام تعليمي جمهوري حديث ينقل اليمن من الحرمان من حق التعليم، ومن شيوع الأمية، إلى تعميم التعليم ليكون حقا لكل طفل في اليمن.

– وتجديد عبدالله البردوني للشعر التقليدي بابتكار صور شعرية جديدة مدهشة وإدخال تقنية الحوار وتعدد الأصوات في القصيدة.

– واختيار عبدالعزيز المقالح الانتقال من تجديد الشعر التقليدي إلى تجاوزه للالتحاق بدعوة الرواد اليمنيين الأُوَل الذين حاولوا مبكِّرا المشاركة في تيار الشعر العربي الجديد في حركة الثقافة العربية لكي تنتقل حركة الثقافة في اليمن إلى مستوى يجاري أبدع ما تنتجه الثقافة العربية، وأن تتوقف الثقافة في اليمن عن البقاء على هامش الثقافة المعاصرة.

– واختيار مُحَّد الشرفي لقضية إنصاف المرأة وتأسيس المسرح وكتابة النصوص المسرحية الشعرية والنثرية بحيث تصبح الدعوة إلى تحرير المرأة من كل وسائل التمييز والاستبعاد والإقصاء ونهضة المسرح في اليمن رسالة حياته.

– وتأثير مستعمرة عدن التي كانت نافذة على الليبرالية الغربية وعلى الحضارة الحديثة.

– والقيم الجديدة الداعية للحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان ولتوفير أوسع فرص الحياة الكريمة والتنمية ومكافحة الفقر.

- وتأسيس عبدالله عبدالوهاب نعمان وأيوب طارش لثنائي أبدع أعذب الألحان الجديدة.

وتجديد مطهر الإرياني وعلي صبرة وأحمد الجابري ولطفي جعفر أمان وحسين أبو بكر المحضار للغة الأغنية اليمنية، وتحديث أبو بكر سالم بالفقيه ومُحَمَّد مرشد ناجي وأحمد بن أحمد قاسم ومُحَمَّد سعد عبدالله وغيرهم للأغنية اليمنية وللغناء اليمني.

- وتأسيس هاشم علي وعبدالجبار نعمان للفن التشكيلي في اليمن.

وهذا، بالتحديد، ما تحاول هذه السطور أن تتلمَّسه وأن تعرضه للقراء. تريد للقراء ممن عرفوا شيئا عن هذا التجديد أن يتذكروا وألا ينسوا ما أحدثته الجمهورية من تغيير في حياة اليمنيين، وللأجيال الجديدة أن تعرف عن بلادها وتدرك ما عاناه الآباء، لكي تنطلق في عالمها الجديد وتبدع وتضيف وتلتحق بعصرها حتى لا يبقى اليمن دائما ذلك المجهول المعزول الغريب عن عالمه، وأن ترفض المراوحة في المكان نفسه، والدوران في الخواء، والجري وراء الأوهام، والغرق كما في الماضي في دوامة الفقر والجهل وعدم الإبداع، وأن ترفض بقاء اليمن عالة على غيرها، يتيمة في عصرها، سادِرَةً في تخلفها وبؤسها.

ولقد اخترت هذا الموضوع للكتابة عنه بعد مناقشة مع شباب من الجيل الجديد جعلوني أشعر، وأنا أعتبر نفسي من المدافعين عن التجديد والتغيير وارتبطَت حياتي كلها بمناصرة التقدم في جميع المجالات، بأنني متهم بالدفاع عن الماضي لأنني تحدثت عن الثقافة الجمهورية وعن التغيير النوعي الذي أحدثته الجمهورية في حياة اليمنيين. كان رد الشباب انفعاليا لا يقبل الجدل متسائلين: وماذا فعلت الجمهورية لليمن إذا كان الفقر ما يزال يسحق غالبية اليمنيين، والأمية حاضرة وتوشك أن تكون مستديمة، وعشرات الآلاف من المواطنين اليمنيين يسافرون إلى الخارج للبحث عن رعاية صحية لا يجدونها في بلادهم، وما تزال اليمن تعيش على هامش عصرها، وما يزال الوعي العام متدنيا وفي بعض الحالات ينحدر إلى الحضيض، وما تزال نوعية

التعليم متدنية، وما يزال المسرح والسينما مطرودين من الثقافة في اليمن، وما تزال الغلبة بالسلاح وسيلة لحكم الغالبية الشعبية، وما تزال الديمقراطية وحقوق الإنسان غائبة من حياتنا، وما يزال اليمني يعتمد على غيره في إنتاج كل شيء تقريبا، وما يزال الابتكار والاختراع غائبين من حياتنا والبحث العلمي والتكنولوجي مستبعدا حتى من خيالنا، ...إلخ؟ وهكذا واصل من ناقشتهم من الشباب الجديد المتطلع للتغيير سرد ما تعاني منه حياة اليمنيين من بؤس وحرمان ومعاناة وتخلف في القرن الواحد والعشرين.

ومن المؤكد أن من حق الأجيال الجديدة أن تتساءل وتحتج وترفض، وهي بلمسة على شاشة جهاز التلفون المحمول تستطيع الوصول إلى المعلومات والمعارف بسهولة ويسر، وتُقارنُ بين حال بلادها البائس المحروم المتخلف وما يعيش عالم اليوم من تقدم ومن قفزات معرفية ومن تجديد في قوى الإنتاج ووسائل الإنتاج وفي جميع المجالات، فتصاب بالإحباط وينتابها الغضب من واقعها، ويصل الارتباك والشطط أو الحماسة ببعضهم إلى حد إنكار أن الجمهورية كانت ضرورية، وإلى القفز للحكم بأنها لم تفعل شيئا لإخراج بلادنا من تخلفها وحرمانها وهامشيتها.

وللرد على هذا النكران يكفي، للتذكير بواقع اليمن قبل قيام الجمهورية، أن نورد هنا شهادة شاهد عيان هو الزعيم الوطني الشاعر مُحَمَّد محمود الزبيري الذي لخص ذلك الواقع البائس المرير بأبيات قليلة مبدعة فقال:

جهـلٌ وأمـراضٌ وظلـم فـادحٌ ومخافـــةٌ ومجاعـــةٌ وإمـــامُ

والنـاس بـين مكبـلٍ في رجلـه قيـدٌ وفي فمــه البليــغ لجـامُ

أو خـائف لم يـدرِ مـا ينتابُـه منهم، أسجنُ الدهرِ أم إعدامُ

والاجتمـــاع جريمـــةٌ أزليـــةٌ والعلـــمُ إثمٌ والكـــلامُ حـــرامُ

كما لخصها شاهد عيان آخر هو الشاعر الكبير المبدع عبدالله البردوني بالبيت التالي:

فِيمَ السكوت ونصفُ شعبِك هاهنا يشقى ونصفٌ في الشعوب مشردُ

وفي هذه الحالة يصبح من حق الجمهورية علينا، نحن "جيل الجمهورية"، أي الجيل الذي فتحت له باب الأمل والنجاة من الغرق في غياهب العزلة والانغلاق وأخرجته من ظلام القرون الغابرة ليتمسك ببصيص من نور القرن العشرين، أن ندافع عنها وأن نستعرض الأحوال التي جعلت منها عملية قيصرية ضرورية لإنقاذ شعب اليمن من الاضطهاد والانقراض.

وأنا بهذه السطور لا أطلب من الأجيال الجديدة أن تتخلى عن أحلامها بصنع مستقبل أفضل لها ولشعبها، يخرجها من حالة الضياع والعجز والتخلف الشامل إلى حياة القرن الواحد والعشرين وقفزاته المعرفية واكتشافاته العظيمة وأحلامه وطموحاته. فكل ما أطلب هو إدراك ما أحدثته الجمهورية من فتح الأبواب للانتقال من القرون الغابرة إلى العصر الحديث، وإنصاف الرواد المخلصين الذين بذلوا ما يستطيعون من جهد ومن عَرَقٍ ودماء من أجل تحقيق ما سمح لهم الزمن الصعب بتحقيقه في وجه مقاومة عاتية من قوى الظلام والجهل وأعداء الحرية والتقدم. ونعوِّل على الأجيال الجديدة لكسر حلقة استدامة التخلف التي تكبل انطلاق اليمن إلى الأمام، وتغيير الحال المعوج للجمهورية بواقع أفضل يناسبهم ويتفق مع أحلامهم المشروعة وطموحاتهم التي لا يملك أحد حق رفضها أو الاعتراض عليها.

وأرى أن علينا، نحن جيل الجمهورية، أن نعتذر لهم ولأنفسنا ولشعبنا، بما أنه كانت لنا أحلام مثل أحلامهم وأبعد، وطموحات لا تحدها حدود، ومطالب تشبه ما يطلبون وأكثر، ودعوات حالمة لا تقتصر على تحقيق سعادة اليمنيين وحدهم، ولا توحيد العرب ونهضتهم فقط، بل تشمل بنُبلِها وتساميها، الإنسانيةَ المعذَّبة كلها. ولكن الماضي البغيض والعبث المعربد اللئيم قد تضافرا لهدم السد فوق رؤوسنا فوجدنا أنفسنا وقد أحاط بنا الخراب والحرائق من جميع الجهات.

وبعيدا عن فوضى المصطلحات في الفكر العربي المعاصر، وهي فوضى تزيدها وسائل التواصل الاجتماعي شدة وارتباكا، فإنني سأستخدم الثقافة هنا بمعنى ما يبدع

الإنسان من قيم معنوية. ولن أتوسع لتطبيق التعريف الذي يقول إنها ما يبدع الإنسان من قيم معنوية وخيرات مادية. ولذلك سيقتصر هذا الكتاب على تتبع الإبداع الشعري والنثري من مقالة وقصة قصيرة ورواية وموسيقى وفنون وفكر وقيم جديدة.

وعلى الرغم من صعوبة تحديد تاريخ معين للفصل بين مرحلة وأخرى في حركة التغيير الثقافي، سأحاول في هذه السطور بصورة أساسية، لأسباب عملية بحتة تناول ما أسمِّيه "الثقافة الجمهورية"، خلال الجمهوريتين الأولى (عهد الرئيس عبدالله السلال) والثانية[1] (عهد الرئيس عبدالرحمن الإرياني)، من 1962 إلى 1974 (إلا إذا اقتضى السياق تجاوزهما بوقت قصير)، ومقدماتها سواء داخل مملكة الظلام أو بين الهاربين من جحيمها وبؤسها إلى مستعمرة عدن ومنها إلى غيرها من مناطق هجرة اليمنيين أو لجوئهم. لأن الزمن اللاحق لهذه الفترة، منذ عودة الضباط لتأسيس الجمهورية الثالثة، يحتاج إلى تناول مستقل ودراسة مستفيضة لا يتسع لها هذا الجهد المتواضع.

فقد فتحت السنوات الأولى من عمر الجمهورية الباب لورود كل ما حلم به مثقفو مرحلة تهريب الكتاب الجديد، وسمحت باقتناء الكتب وقراءاتها واستيعابها والنسج على منوالها وصنع الأحلام استنادا إليها. فلأن الكتاب الجديد كان قبل الجمهورية محرَّما شغُفَ به الأدباء المستنيرون وحفظوه في حبات قلوبهم واستوحوه في التعبير عن أحلامهم الخفية المتمردة. وكان الأدباء الهاربون من بطش مملكة الظلام يشحذون هممهم ويراكمون خبراتهم المعرفية استعدادا ليوم الخلاص العظيم.

وحين سقطت أسوار السجن الكبير انبهر الجميع بأضواء الحرية وتعذَّر القفز بسرعة إلى الأمام، لكن مسيرة الانطلاق قد بدأت ولم تقتلها عوائق المقاومة العاتية التي أبدتها قوى القديم المندحر. وبدأ الإبداع الأدبي والثقافي ببطء ولكن على نحو

---

[1] أعتمد هنا تسمية موفقة اقتبسها الشاعر عبدالله البردوني من الفكر السياسي الفرنسي وطبقها على تاريخ اليمن (اليمن الجمهوري، ص. 431).

متواصل. وكانت النتائج ما نقرأ في هذه السطور التي تستعرض ما أحدثته الجمهورية من حراك ثقافي عصري في حياتنا الجديدة.

الفصل الأول

العزلة والانغلاق

لن تتضح الصورة التي أريد أن استعرضها للتجديد الذي أحدثه التغيير الجمهوري في حياة اليمن واليمنيين دون أن أنقل بأمانة ما كانت البلاد تعيشه قبل هذا التغيير الذي بدونه كان خطر الموت والانقراض يهدد حياة اليمنيين ويمنع عنهم كل فرص للحياة الكريمة. لقد كانت اليمن تعيش وكأنها جزيرة في بحر الظلمات، معزولة عن بعضها البعض، وعن جيرانها وعالمها الأوسع، وكان العيش فيها ورطة لا سبيل للتخفيف من وطأتها إلا بالهرب من الظلم والفقر والجهل والمرض عبر بوابة وحيدة يمسك بها الاستعمار البريطاني في عدن، ويعمل الطغاة الحاكمون على استدامتها بإبقاء البلد متخلفة عاجزة عن بناء نفسها ورفع مكانتها، غير قادرة على كسر سور العزلة والهامشية الذي يلفها ويخنقها. ولن تتضح صورة ما أريد عرضه إلا بإعطاء نبذة موثَّقة قدر الإمكان عن واقع اليمن في تلك الفترة المظلمة، من خلال شهادات عيان لمن زاروا البلاد ووصفوا أحوالها وبؤسها وتخلفها ومعاناتها.

فقد بدأت مملكة اليمن استقلالها بعد هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الثانية وورثت بعض المنجزات الحضارية الأولية التي كان بالإمكان أن تستند إليها وتبني تجربة جديدة تبدأ بها مسيرة العمران والتنمية في كل المجالات، لكنها فعلت العكس تماما. فعلى سبيل المثال، ما دمنا نتحدث عن الثقافة، ورثت اليمن من الأتراك العثمانيين، عند خروجهم من اليمن سنة 1918، فيما ورثت من مظاهر حديثة كخطوط البرق ومصحات لعلاج المرضى، مطبعة جلبوها إلى اليمن سنة 1872 ليطبعوا بها أوراقهم الرسمية في صنعاء، وصحيفة رسمية تصدر بالعربية والتركية. فانتقلت هذه المطبعة إلى سلطة الإمام يحيى وكان يمكن أن تكون أساسا تستفيد منه دولة الاستقلال اليمني

وتبني عليه وتطوره ومن ثم تبدأ في تطوير الصحافة والطباعة وصناعة الكتاب. لكن على مدى تسعين سنة لم تعرف اليمن غير هذه المطبعة البدائية التي وصلت إليها في القرن التاسع عشر، وظلت تدار وترص حروفها باليد دون أي تطوير حتى قيام الجمهورية سنة 1962[2]. وقد ظلت تُصدِر صحيفة صفراء يتيمة هي صحيفة "الإيمان" بشكلها المتخلف ومضمونها المكرَّس لمدح الطغاة والدفاع عن نظام حكمهم باعتبارها الصحيفة الرسمية حتى قيام الجمهورية. كما كانت المطبعة والصحيفة عنوانا للعزلة المفروضة على البلاد، تعكسان الانغلاق الثقافي وتعبِّران عنه وتكرِّسانه. وحتى لو أضيفت في سنة 1959، أي قبل قيام الجمهورية بثلاث سنوات، مطبعة أخرى متواضعة في تعز طبعت صحيفتي سبأ والنصر، المخصصتين للدفاع عن النظام وتكريس تخلفه واستبداده، كان النظام من الجمود والغربة عن عالمه بحيث توطَّدَت العزلة الثقافية السائدة في البلاد. لأن الانغلاق كان سياسة رسمية لنظام لم يعد قابلا للإصلاح وأصبح من الضروري تغييره من جذوره وفتح الأبواب لرياح الحرية والتفاعل الحي مع العالم من حول اليمن.

فلممارسة الرقابة الشديدة على هذه المطبعة، أوكل الإمام المسئولية المباشرة عليها لابنه عبدالله بن الإمام يحي، الوزير الشكلي للمعارف الغائبة، لكنها ظلت في الواقع تحت السلطة المباشرة للإمام يحي نفسه الذي كان يدير بنفسه شخصيا جميع أمور مملكته بصورة فردية أصابت الإدارة بالشلل وجردتها من أية فعالية ومنعت ظهور مؤسسات إدارية وغير إدارية، ومنها منع القيام بأي نشاط ثقافي يتمتع بأي هامش للتفتُّح والإنتاج والإبداع.

فأي هامش ثقافي يمكن أن يتوافر تحت الرقابة الصارمة لإمام يعيش عقليا وثقافيا في العصور الماضية ويرتاب من كل تجديد أو تطوُّر؟

---

[2] سيد مصطفى سالم، مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن، ص. 19.

ولإعطاء أمثلة على أن العزلة والانغلاق كانتا سياسة رسمية نابعة من طبيعة النظام سنورد شهادات موثَّقة لشهود عيان ينقلون تفاصيل الحياة داخل مملكة الظلام وطبيعة علاقتها بالعالم من حولها وما ذا كان العالم يعرف عنها وكيف ينظر الناس إليها خارج سور العزلة المفروضة على البلاد؟

يروي الرحَّالة أمين الريحاني، اللبناني الأمريكي، الذي زار شبه الجزيرة العربية وكتب عنها كتابه "ملوك العرب"، ما سمعه عن اليمن وهو بعد في نيويورك عندما بدأ البحث عن معلومات عن البلد الذي ينوي زيارته، فيقول: إنه التقى في نيويورك بيمني (لعله أحد المغتربين اليمنيين الأول) وسأله عن بلاد اليمن فأجاب قائلا إن أهل اليمن دائما في حرب، حاربوا الأتراك وتحاربت القبائل فيما بينها، وخاضت حربا مع الإدريسي، "ويحارب بعضنا بعضا". وعن دخول الأجانب إلى اليمن يقول: "لا يؤذن لهم لا بالذهاب ولا بالإقامة هناك". وسأله الريحاني: وإذا جاءكم الأجنبي؟ أجاب: "والله نذبحه".

ومع ذلك سافر الريحاني وصمم على زيارة اليمن. وحين وصل إلى مصر رُوِّع بما سمع عن اليمن. فحين قال لأحد الأدباء الشاميين الذي كان يقيم في مصر، إنه مسافر إلى اليمن قال له: "غير ممكن... قلت ولما ذا؟ هل من خوف على حياتي؟ فأجابني ثانية مستحيل، غير ممكن. ثم صرخ بما فيه بعض الاطمئنان إذ قال: لا يأذن لك أولياء الأمر... الانجليز... هم في عدن يوصِدون الأبواب.... في اليمن حرب اليوم والأخطار كثيرة"[3].

وبصرف النظر عما إذا كان ما سمعه الريحاني عن اليمن في الولايات المتحدة الأمريكية وفي مصر صحيحا أم غير صحيح، فإنه في كل الأحوال ينقل نظرة الناس إلى اليمن، هذا إن سمعوا بهذا البلد، وإحساسهم بعزلته وغربته عن عالمه وغرابة ظروفه السياسية والاجتماعية وعيشه خارج العصر الحديث.

---

[3] أمين الريحاني، ملوك العرب، ص. 77 . 78.

وحين وصل الريحاني إلى مستعمرة عدن واجه نفس التحذيرات من الذهاب إلى مملكة الظلام. فما أن وصل إلى الميناء حتى قابله ضابط انجليزي احتفظ بجواز سفره وجواز سفر مرافقه[4]. ووعد أن يردهما خلال اليوم نفسه. لكنه لم يرجعهما إلا بعد متابعات طويلة وتدخل من القنصل الأمريكي باعتبار الريحاني يحمل جوازا أمريكيا. وحتى القنصل الأمريكي في عدن حين علم بأن الريحاني يريد الذهاب إلى اليمن حذَّره بالقول: "قد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك. أنصحك لا تسافر" إذا حصلت على إذن من الانجليز بالسفر. "في البلاد حرب اليوم، والطرق غير آمنة، وأنا لا أقدر أحميك"[5]. واستعان الريحاني بالقنصل الأمريكي للكتابة إلى الحاكم البريطاني لطلب مقابلته والحديث عن استعادة الجوازين، لكن الجواب تأخر. وبعد وساطة قَبِل الحاكم استقبال الريحاني ومعه قنصل أمريكا وتناقش معه وعرف أنه شاعر ومثقف، وتحدث معه عن شعر عمر الخيام وأبي العلاء المعري الذي كان الحاكم قد قرأ عنهما بين ما قرأ من التراث العربي الإسلامي. ومع ذلك لم يقتنع بإعادة الجواز، بل حذره من السفر إلى اليمن بالقول "في السفر إلى اليمن خطر أكيد... ونحن لا نستطيع أن نحميك" فيما تجاوز حدود المحميات البريطانية. ولم يسمحوا له بزيارة سلطان لحج إلا بإذن من البريطانيين بشرط عدم اجتياز أرض السلطنة إلى خارجها. وفي انتظار الحصول على إذن البريطانيين بالسفر إلى صنعاء طلب من ممثل الإمام في عدن أن يأذن له بالسفر فكتب إلى مولاه في صنعاء يطلب منه شخصيا الإذن بوصول الريحاني ورفيقه. ففي نظام فردي مطلق كذلك النظام السائد في مملكة الظلام لا يستطيع أي شخص غير المسئول الأول في المملكة أن يسمح بوصوله. وفي الوقت نفسه ذهب ممثل الإمام في

---

[4] رافقه في هذه الرحلة الشاقة إلى اليمن صديقه قسطنطين ينِّي، أحد القوميين العرب الذين التحقوا بالشريف حسين، ملك الحجاز على أمل توحيد العرب وإقامة دولتهم القومية.

[5] أمين الريحاني، نفسه، ص. 79 . 80.

عدن إلى ممثل الانجليز ليستشيره في أمر الإذن بسفر الريحاني، لأنه لا يُقدِم على عمل لا يقبله البريطانيون.

وأخيرا أصدر الحاكم البريطاني لعدن الإذن المنتظر في رسالة من مساعد الحاكم البريطاني يقول فيها إن "البلاد في اضطراب وإن السفر فيها خطر على المسيحيين، وإنه إذا كان قد سأل السلطان (سلطان لحج) أن يرفقك بالحرس إلى الحدود، فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة. وليكن معلوما لديكم أن الحاكم غير مسئول البتة عما يحدث لكم فيما دون حدود المقاطعة المحمية"[6].

لقد سردت هذه الملابسات التي حدثت لشخصية عربية أمريكية مزودة برسالة توصية إلى قنصل أمريكا في عدن، تطلب رسميا مساعدة مواطن أمريكي وتذليل الصعاب التي يواجِه، لتوضيح فكرة واحدة أساسية وهي إلى أي حد يتحكم البريطانيون في الدخول إلى اليمن والخروج منها وفي تجارتها تصديرا واستيرادا. وهو ما يدحض دعوى النظام الحاكم في مملكة الظلام من أنه يغلق اليمن حفاظا على استقلالها وسيادتها ومنع أن تتعرض للمساس من القوى الغربية. فما ذا يبقى من الاستقلال إذا كان البريطانيون يحتلون جزءًا من البلاد ويغلقون الباب من عدن في وجه كل شيء، ولا يدخل إلا من يوافقون على دخوله، ولا يخرج أحد حتى وفود النظام الرسمية إلا بعد الاتصال بهم وتأمين موافقتهم على خروجه. وإذا كانت هذه التعقيدات قد حدثت لمواطن دولة كبيرة مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي خرجت من الحرب العالمية الأولى منتصرة، فما ذا سيكون الحال مع غيره. بل إن دعاوى الاستقلال تسقط عند أول اختبار عملي. فحين أرسل الإمام أول بعثة دراسية عسكرية إلى العراق في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين تولت السلطات البريطانية

---

[6] نفسه، ص. 80 . 87.

في مستعمرة عدن إصدار جوازات مرور للطلبة اليمنيين "لأن المملكة المتوكلية لم يكن فيها وزارة للخارجية ولا تعرف الجوازات"[7]. فهل هذا استقلال؟

ويشكو محسن العيني في كتابه "الرائد" الصادر سنة 1957 بمرارة من تجاهل العرب لمعاناة اليمنيين وقبولهم ادعاء النظام بأنه يحافظ على الاستقلال اليمني الذي كان مجرد قناع لعزل اليمن وهيمنة القوى التقليدية المتخلفة واستدامة الاستبداد وعدم التنمية والحرمان من جميع أنواع الخدمات التعليمية والصحية وإبقاء اليمن في سجن موصد الأبواب عن عالمه وعما يدور في هذا العالم من تطورات ومن تحسين لظروف معيشة الناس. يقول: "ورغم أن حكام اليمن ظلوا طوال أربعين عاما قابعين في جنوب جزيرة العرب معتزلين بشعبهم عن الأمة العربية عزلة قاسية مريبة، فإن مهمة العرب لم تزد على مجرد الاغتباط باستقلال اليمن ولم تتطور بتطور الوعي العربي والاتجاهات الحديثة نحو تفسير الاستقلال وفهمه. لقد نشأت في البلاد العربية في مطلع القرن العشرين خرافة ... أن العرب أصبحوا يعللون كل النكبات في اليمن وكل الجهل والفقر... وكل عملية من عمليات الإبادة لعرب اليمن بأنها محافظة على استقلال اليمن وخوفا عليه من المستعمرين الطامعين... وكأن الأمة العربية كلها قد أجمعت على إباحة الشعب العربي في اليمن لفرد واحد أو لعائلة واحدة تنكل به وتطحنه طحنا وتلغيه من دنيا العروبة بحجة أن اليمن دولة مستقلة"[8].

وهكذا فرَّغ النظام الاستبدادي الاستقلال من مضمونه باعتباره وسيلة لإطلاق طاقات الشعب في البناء والتطوير وتحسين مستوى معيشة السكان، وحوَّله إلى سجن كبير مظلم، وقيد على تحرر الشعب من الفقر والجهل والمرض. فأية قيمة لاستقلال يغلق حياة الناس على البؤس ويفرض عليهم العزلة والهامشية ونقص القيمة، ويقودهم نحو الانقراض؟

---

[7] أحمد المروني، الخروج من النفق المظلم، ص. 43.

[8] محسن العيني، معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، ص. 49 . 50.

كما كان البريطانيون يستخدمون بؤس أوضاع اليمن وفقر سكانها وحرمانهم من التعليم والرعاية الصحية وفرض الجبايات الجائرة عليهم وسيلة لتنفير سكان مستعمرة عدن والمحميات من التفكير في الاستقلال وفي الاتحاد بأهلهم في مملكة الظلام[9].

وحين دخل الريحاني مملكة الظلام التقى عالَمان مختلفان تماما، اللبناني الأمريكي القادم من نيويورك وواشنطن من جهة، ومملكة معزولة غريبة عن عصرها من جهة أخرى. ولولا أن اللغة العربية كانت وسيلة التفاهم بينهما لاستحال عليهما التعارف والتبادل. فهو يصف الغرفة التي استقبله فيها أحد المقربين من الإمام وأحد قادة جنده الكبار فيقول: "فإذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة إلا واحدة منها، وهواؤها قد امتزج بدخان كثيف فاسد، وأرضها مفروشة بالقش والحشيش. وإلى جانب الحيطان الأربعة عمائم بيضاء كبيرة، أصحابها جالسون على الأرض صفوفا ملزوزة، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات، بل يخزِّنون، وفي الزاوية عند منضدة صغيرة، إلى جنبها مداعة، بين أكمة من الأوراق ورزمة من القات، رجل صغير المنكب والعمامة... علي الوزير، أمير جيش الإمام في لواء تعز".

وحين قدَّم إليه رسالة ممثل الإمام في عدن التي تقول إنه السيد أمين الريحاني سأله: أأنت "حسني أم حسيني" (مع أنه مسيحي ماروني)؟ فالوزير ينطلق من خلفية ثقافية تقليدية لا ترى في الناس في أي مكان سيدا سوى إن كان "من البطنين". ولم يجد الريحاني مهربا من هذا السؤال الكمين أمام الجمع المتزمت سوى الإجابة بأنه عربي. فاستغرق الوزير في خطبة فيها مقال لا يناسب المقام عن الذين يفسدون الدين بالبدع ويتقربون من الافرنج ويدنسون النسب النبوي، ويوالون الكفار، مؤكدا أن "الإيمان بالله رأس الفلاح والصلاح، والجهاد في سبيل الله واجب كل مسلم سلم إيمانه"، مختتما حديثه بمهاجمة شريف مكة الذي كان القوميون العرب في المشرق

---

[9] نفسه، ص. 56.

العربي يعوِّلون عليه في توحيد العرب وإقامة دولتهم المستقلة عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وخروجها من التاريخ[10]. وينقل عن عبدالله الوزير (الذي سيصبح سنة 1948 إماما دستوريا)، ممثل الإمام في ذمار، مقالا مشابها لا يناسب المقام أيضا، فيه من التزمت المتشنج ما يكشف العقلية السائدة في تلك الفترة، إلا أنه أضاف إلى ما قال ابن عمه علي الوزير اتهام العرب، كل العرب، بأنهم "كذابون ساقطون يحبون المال"[11]، قال هذا للريحاني الذي يحمل الجنسية الأمريكية ولكنه يعلن حبه للعرب والتعاطف معهم وهو من كتب منذ وقت مبكر دراسة بعنوان "الحركة العربية الواحدة" أصبحت فيما بعد أساسا فكريا بنت عليه الحركات القومية العربية[12] الداعية لوحدة العرب ونهضتهم.

ولعل في الخرافة التي رواها عسكر الإمام للريحاني التي تقول إنهم يقرأون على الطائرات الإنجليزية المهاجِمة آيات من القرآن فتسقط كالطير المذبوح على الأرض ما يكفي لكشف حقيقة الفارق الحضاري بين العالمين اللذين التقيا في تلك اللحظة.

ومع ذلك فقد تجرأ شخص وشكى سرا من أن الإمام ظالم يرهق الرعية بالضرائب المتعددة، ولا ينصف مواطنيه ولا يحسن السياسة مع الانجليز، ولا يفتح المدارس في البلاد، ولا يعزل الظالمين من ممثليه في المناطق، وأنه بخيل يجبي ولا ينفق على الخدمات، كل هذا يدل على أن روح الرفض والاحتجاج كانت كامنة تحت الغلبة بالقوة والسلاح[13]. كما أن أحد الحراس المكلفين بحراسته في الطريق أوجز له حال اليمن وما يخفي من سخط على النظام بالقول "نحن في اليمن فقراء وحكم الإمام يزيدنا فقرا"[14].

---

[10] أمين الريحاني، نفسه، ص. 98 . 102.

[11] نفسه، ص. 111.

[12] عنوان الدراسة التي كتبها الريحاني سنة 1907 The Pan Arab Movement

[13] نفسه، ص. 104.

[14] نفيه، ص. 113.

وحتى المسئول المكلف بقيادة عساكر الحراسة من ذمار إلى صنعاء، واندهش لرؤية "الترموس" الذي يحفظ الماء باردا وكأنه اختراع خطير، علامة على العزلة وعدم الاطلاع على ما يحدث في العالم الحديث، لم يلبث أن عبَّر عن معاناته وهو أكثر حظا من العساكر الفقراء بالقول "نحن لا نستخدم عقولنا إلا في الحروب" وعبَّر عن نيته السفر والهجرة بحثا عن فرص للعيش، مضيفا أن أهل اليمن "يظنون أنه ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار"[15].

ويصف رئيس الحرس المرافق له حال اليمن قائلا: " لا يزال أهل اليمن... وحشيين، لا يثق الواحد منهم بأخيه، ولا يركن إليه. حياتهم خوف دائم واضطراب.... هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم. وفي اليمن وقد رأيت بعينك الناس كلهم مسلحين، وكلهم يقاتلون، ويقتلون لأمر طفيف". إذا اغتصبت حقي ولو كان تافها "أقاتلك عليه، أستل عليك الجنبية، أذبحك. هذه طريقتنا في اليمن. وإذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلا ينضم أهلها وقد انقسموا حزبين إلى المتقاتلين، فتشب في القرية نار الحرب. وعندما تنطفئ يتساءلون وما السبب في القتال بين فلان وفلان؟ يقاتلون أولا ثم يستعلمون. هذه طريقتنا في اليمن. نحارب حتى أهلنا. فإذا كانت هذه حال بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الأجانب؟" وسأل الريحاني هل في اليمن باطنيون (إسماعيليون)؟ وكان الجواب "كانت منهم طائفة فأفنيناهم بالسيف"[16].

ويصف مدينة إب وصفا يصدق على اليمن كلها في تلك الفترة فيقول "ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن، وليس فيها أحد من الأطباء، ولا نقطة ولا حبة من الدواء، ويكثر فيها الجدري والحمى.... وصحة النسل في نقص

---

[15] نفسه، ص. 114.

[16] نفسه، ص. 116 . 117.

ظاهر ولا سيما في الأولاد. فإن وفيات الأطفال في اليمن كثيرة.... وأظهر ما فيهم النُّحُول والشحوب وضعف الأعصاب"[17].

ويكفي للدلالة على غربة مملكة الإمام عن عصرها أن الرحلة من عدن إلى صنعاء استغرقت اثني عشر يوما من المشقات، وأنهم قطعوا الطريق داخل المملكة المغلقة على ظهور البغال. ويصف حال صنعاء البائس قائلا: "يشكون قلة المال ووقوف الأشغال وعسر الأحوال، ومنهم من ينسبونها كلها إلى حكم الإمام". ويصف الإمام بأنه "يكثر الضرائب، ويدَّخِر الأموال. فتقل ولا غرو في أيدي الناس فتسبب وقوف الأشغال وعسر الأحول فضلا عما يعتري اليمن دائما من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئة كلها عن حروبهم الأهلية فضلا عن العشائر وجميعها مسلحة"[18] وما ينتج عن ذلك من فقر وعدم تنمية "والسبب الأكبر هو الجهل المسلح".

ويصف تخلف الإمام بطريقة غير مباشرة بالقول: إن مجلسه الرسمي ينعقد في ديوان بيته وإنه يستقبل الشاكين تحت شجرة، مثل أي شيخ. وإنه شغوف بالفخفخة الظاهرة، يسير في موكب تحت المظلة يوم الجمعة إلى الجامع الكبير مثل الأئمة قبل قرنين أو ثلاثة قرون مضت. وإن من شعاراته "الجنة تحت ظل السيوف". ويقول إن الإمام يحيى يتصرف ويعيش كأنه في القرن الثالث الهجري، أي أنه بعيد عن العالم من حوله سادر في عزلته راضٍ بها.

ويعترف بهذه العزلة المفروضة على اليمن زيد الوزير (ابن علي الوزير المذكور آنفا، قائد جيوش الإمام في لواء تعز وأحد أفراد الدائرة الضيقة التي يعتمد الطاغية عليها) حيث يقول: "لقد كانت اليمن في ظل الأتراك، على الأقل، تتصل بالعالم عبر عاصمة الخلافة، وتأتيها الوفود والجنود والقادة العسكريون من كل أصقاع العالم

---

[17] نفسه، ص. 108

[18] نفسه، ص. 125 . 126.

الإسلامي فتتأثر وتؤثر، فجاء الإمام يحيى وتمكَّن بالفعل من عزل اليمن تماما. وعندما نما جيل ما بعد الأتراك وخاصة في الأوساط القبلية لم يكن يعرف عن العالم شيئا. كانت فترة مظلمة حقا انمحت حدود العالم خارج اليمن. وما عدا الأتراك الذين هم في مكان ما من هذا العالم، فقد ظلت ذاكرتهم تختزن صورا لذكريات غائمة تناقلها الخلف عن السلف، وتحوَّرت بفعل الأيام أسماؤها الحقيقية تحورا عجيبا، فكانت (طرابيز الغروب) كما كانوا يسمونها ذكرى للحرب التركية الإيطالية في طرابلس الغرب. وما عدا المدينة ومكة شمالا وعدن جنوبا فإن الشمس تشرق من سهول مأرب لتختفي في بحر الحديدة، ومن أعطي فهما أكثر فإنها تغيب ولا شك في طرابيز الغروب"[19].

وتقدم الطبيبة الفرنسية كلودي فايان، التي أقامت في اليمن في مطلع الخمسينيات، شهادة حيَّة عن واقع الحال في مملكة الظلام مع أنها حاولت في كتابها "كنت طبيبة في اليمن"، الذي سلكت في تأليفه منهج بعض السواح الغربيين في الكتابة عن البلدان الغريبة، أن تكون محايدة وأن تتعامل مع الناس بتعاطف وتفهُّم، فتقول: كان "الناس (خارج اليمن) لا يذكرون اليمن إلا قليلا، وهذا يرجع إلى أنهم لا يعرفون عنها شيئا"[20]. و"من النادر الدخول إلى اليمن (أو الخروج منها) إلا عبر مستعمرة عدن البريطانية. فلا يوجد خط جوي منتظم يمر بالأراضي اليمنية[21]. وإذا مرض الإمام تعطلت المعاملات. وتحكي قصة رجال أعمال أجانب وصلوا باتفاق مع السلطات في مملكة الظلام لعقد اتفاقات تجارية ولكنهم حين وصلوا كان الإمام مريضا فتعطلت أعمالهم. ولم يستطيعوا حتى الخروج من البلاد عبر عدن لأنه لا يوجد

---

[19] زيد الوزير، محاولة لفهم المشكلة اليمنية، ص. 69 . 70.

[20] كلودي فايان، كنت طبيبة في اليمن، ص. 26.

[21] نفسه، ص. 32.

من يأذن لهم بالخروج. واعتبرت الانتقال من مملكة الظلام إلى مستعمرة عدن عودة إلى الحضارة.

ويقول مُحَّد سعيد العطار في كتابه "التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن" إنه كانت وراء عزلة اليمن نظرة سياسية للإمام يحيى، الذي كان يفضِّل بقاء بلاده فقيرة بحجة الخوف من قيام الأجانب بالتنقيب عن الثروات الطبيعية[22] والمساعدة في تنمية البلاد، وكان يعتبر التنمية نقيضا للاستقلال الشكلي الذي كان يتحكم فيه البريطانيون من عدن. ولذلك لم يتطور الاقتصاد الوطني وكان الجمود طابعه، وكان التبادل مع العالم الخارجي محدودا عبر عدن مما يسمح للبريطانيين بالتحكم في البلاد وفي تجارتها وفي الدخول إليها والخروج منها. وظلت في عزلة وانغلاق حتى كانت كثيرا ما تشبَّه بالتِّبِت في عزلتها القديمة[23].

فقد كانت جميع البنيات في اليمن قبل قيام الجمهورية بدائية، والمواصلات قديمة، وجميع طرق البلاد تعود إلى عصور الظلام. وجميع الموانئ لا تتسع لاستقبال السفن[24]. وحتى بعد تشييد الروس لميناء الحديدة سنة 1961 (قبل الجمهورية بسنة واحدة) ظل هذا الميناء مرتبطا بميناء عدن، لأن ليس فيه أرصفة فوق المياه ذات الأعماق الكبيرة لترسو السفن، وإذا رست سفينة في المياه البعيدة تقوم القوارب بنقل البضائع منها ثم يقوم الحمَّالون بنقل البضائع على أكتافهم. وظل ميناء عدن حتى بعد تشييد ميناء الحديدة يحتكر نحو ثمانين في المائة من حركة البضائع.

وتؤكد هذا الحال في الميناء كلودي فايان فتقول إن البواخر لا تستطيع الوصول إلى ميناء الحديدة، "بسبب الصخور المنتشرة على طول الشاطئ، ولكنها تفرغ حمولتها

---

[22] محمد سعيد العطار، التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، ص. 36، وكلودي فايان، نفسه، ص. 27.

[23] العطار، نفسه، ص. 9 . 10.

[24] كلودي فايان، نفسه، ص. 35.

في قوارب صغيرة تقترب بها إلى بعد ثلاثين مترا من الشاطئ، وهنا يتقدم الحمّالون وينقلون البضائع على أكتافهم ويسيرون بها بأقدامهم بين الماء"[25].

ويؤكد هذا شاهد عيان هو محسن العيني الذي يقول إن المواني "كلها غير صالحة لرسو أية سفينة، بل حتى لقوارب الصيد الصغيرة، وتجارة اليمن كلها عن طريق عدن" كما يضيف: وليس في اليمن أي بنك مركزي أو محلي، ولا وكالة لأي بنك أجنبي (باستثناء البنك الأهلي السعودي الذي فتح مؤخرا وكالات صغيرة في الحديدة وصنعاء وتعز لنقل تحويلات المغتربين)، ولا لأية مؤسسة مصرفية"[26]. ولم تكن هناك صناعة في تلك الأيام.

وعلى الرغم من إنشاء السوفييت ميناء الحديدة، ظل هذا الميناء بالنسبة لشركات الملاحة غير قابل للاستعمال لأسباب فنية واقتصادية مثل عدم توفر إنارة القناة وفقا للمعايير الدولية، وعدم إمكان تفريغ البضائع في الليل أو شحنها، وعدم توافر خدمات التزود بالمواد الغذائية والماء العذب. وكذلك ضآلة حجم الواردات والصادرات وارتفاع تكاليف الرسو.

وتشير كلودي فايان، إلى أن الحياة في اليمن صعبة، فليس هناك أية وسائل للراحة ولا وجود للحرية، والوسائل المهنية الحديثة غير متوافرة[27].

وحين أخبرت أكبر التجار الأجانب في عدن بأنها مسافرة إلى اليمن حذرها من السفر إليها قائلا: "لو كنتِ ابنتي لمنعتك من السفر، ولو كنتِ صديقتي لتوسلت إليك أن تعدلي عنه... ولهذا أكتفي بهذه النصيحة البسيطة، لا تسافري، ستندمين إذا فعلت"[28]. ولم تكن في اليمن عملة محلية ولا أي بنك. والعملة المستخدمة قطعة

---

[25] نفسه، ص. 87.

[26] محسن العيني، معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، ص. 28.

[27] كلودي فايان، نفسه، ص. 27.

[28] نفسه، ص. 36.

فضية نمساوية ثقيلة يصعب حملها ونقلها[29]. وتصف الصعوبات الكثيرة التي مرت بها في سفرها بسيارة نقل من عدن إلى تعز ووعورة الطريق، وتعطل السيارة أكثر من مرة وارتعاشاتها على طريق وعر تحتاج فيه السيارة في كل مرة إلى أن يقفز مساعد السائق ليضع بعض الأحجار لمنعها من الانزلاق إلى الهاوية. لقد كانت رحلة مخيفة حقا استغرقت وقتا طويلا بالنظر إلى قصر المسافة بين المدينتين[30]. وعند الوصول إلى تعز كان عليها أن تطلب الإذن بمباشرة العمل أو بالتحرك في المدينة من الإمام شخصيا وتصفه بأنه ملك يعيش في القرون الوسطى. وتصف الحياة في "دار الضيافة" التي نزلت فيها باعتبارها فندق المدينة الوحيد بالبطالة والسلبية والجمود وعدم الحركة. "ولا يقوم أحد هنا بأي عمل طوال النهار".[31]

وتستنتج من معايشتها للناس والاحتكاك بهم وتطبيبهم أن "الانسان في اليمن لا يكاد يشعر بوجود العالم الخارجي". ولا وجود للفنون، "والآلات الموسيقية محرَّمة"[32]. وشاهدت في واجهة مقر الإمام فونوغراف محطَّم معروض للعبرة والتعزير منذ ثلاث سنوات لعقاب من تسول له نفسه الاستماع للموسيقى[33].

ولا يذهب الإمام إلى مقر الحكومة التي يرأسها إلا للاستقبال الرسمي. وتتم مقابلاته العادية في بيته مثل أي شيخ أو وجيه. "ويظل جالسا حتى يستطيع القادم أن يقبِّل باطن قدميه". وينظر الإمام في جميع الموضوعات على الإطلاق. "من أهم المسائل وأخطرها إلى أقلها شأنا وأتفهها". وتضيف أن "الإمام شخصيا هو من يقرر إذا كان معلم في أحد الأقاليم النائية البعيدة بحاجة إلى عشر محابر" مثلا. ويصاب الإنسان بالذهول "حين يعلم أن رئيس دولة يتدخل في هذه التوافه.... إنه أمر

---

[29] نفسه، ص. 38.

[30] نفسه، ص. 50 . 51.

[31] نفسه، ص. 57 . 58.

[32] نفسه، ص. 61.

[33] نفسه، ص. 81

مُفزِع". ومع أنه قد عيَّن وزراء شكليين أغلبهم من أسرته فإنهم لا يتمتعون بأية سلطة[34].

وقد استغرق سفر الطبيبة الفرنسية بين تعز والحديدة يومين كاملين على طريق وعر وصعب ومرهق مع أن المسافة نحو مئتين وستين كيلومترا. وتصف الغرفة التي نزلت بها في زبيد بأنها مثل تلك التي نزل بها كارستن نيبور قبل نحو مئتي سنة، لم تتغير.

وتتحدث عن السكان، وبخاصة في المناطق الوخيمة فتقول إنهم لا يتمتعون بأية رعاية صحية من أي نوع: "أدركت حالة السكان المحزنة المبكية. فقاماتهم قصيرة. وبطونهم منتفخة. وأجسادهم ليست إلا هيكلا عظميا"[35].

أما بالنسبة لأكبر جزء من شبكة الطرق فقد كانت مسالك لقوافل الإبل، وحركة المرور عليها غير كثيفة.

ومع أنه كانت هناك طائرتان اشتراهما الإمام، ظلتا تحت إمرته المباشرة لا يصعد أحد إلى متنهما إلا بأمر منه. ثم باعهما للقطاع الخاص في آخر سنة قبل الجمهورية لتقتصرا على مجرد ربط اعتيادي بعدن، وربط أسبوعي بأديس أبابا وجيبوتي من تعز وعدن.

وورثت البلاد المنشآت التركية الخاصة بالبرق ولم تضف إليها شيئا. ونشأت إذاعة محدودة في 1957 لكن مدى إرسالها كان محدودا ووجود أجهزة الراديو كان أيضا محدودا. أما خطوط التلفون التي بدأت في 1957 في تعز وصنعاء والحديدة، فقد كانت محدودة جدا واقتصرت في الغالب على بعض المسئولين. أما بقية الشعب في المدن والأرياف فلم يكن يخطر بباله استعمال التلفون. ومما له دلالة أن الضباط الأحرار لم يفكروا في قطع خطوط التلفون يوم القيام بالثورة، لأنهم لم يتعاملوا معها قبل

---

[34] نفسه، ص. 62 . 64.

[35] نفسه، ص. 94.

ذلك، مما سمح للإمام البدر بمواصلة الاتصال في حين كانت الإذاعة تعلن أنه مات تحت أنقاض قصره.

وكانت وفيات المواليد مرتفعة بسبب انعدام الرعاية الطبية وبخاصة بالنسبة للأمومة والطفولة، وبسبب فقر التغذية والفقر العام. وحين وصلت الطبيبة الفرنسية صنعاء وجدتها كما وصفها نيبور[36] قبل مئتي سنة كأنها تجمدت دون أن يطرأ عليها أي تغيير، غارقة في العصور القديمة لا تتحرك. وتصف انعدام الخدمات الطبية في المدينة. وإذا كانت قد وجدت جهازا وحيدا لفحص الدم لم يكن هناك أي فني مخبري لاستخدامه، ومن أجل أن تستخدمه كان عليها الحصول على أمر من الإمام وكأنه قنبلة نووية. وكانت حياة المدينة كلها غارقة في ظلام القرون ولا علاقة لها بعصرها. والبطالة شاملة، وحتى الموظفين الحكوميين لا يجدون ما يفعلون. والقات غطاء لهذه البطالة ولانعدام العمل والإنتاج.

وتشرح كيف تموت الحياة في مدينة صنعاء بعد غروب الشمس وحلول الظلام، لا مرور لأية سيارة، ولا لعربات تجرها الأحصنة. ولا يُسمع سوى أصوات الكلاب وأصوات أقدام المارين القليلين على الأرض، وتصاب الحياة بشلل تام حتى الصباح. ويعيش الناس في عزلة لا يعرفون شيئا عن عالمهم وما يدور فيه من أحداث ومن تطورات، كأنهم يعيشون في كوكب معزول خارج الكرة الأرضية. وتنتشر الأمراض ولا رعاية صحية، والأدوية نادرة، ويعاني الأطفال من الأمراض دون توافر علاجات لها ولا لقاحات لتحصينهم. وبيع العبيد والإماء شائع. وتصف حالات الفساد الأخلاقي للأمراء رغم التشدد الديني الظاهر وحياة التزمت الشائعة[37].

---

[36] نفسه، ص. 116.

[37] نفسه، ص. 181 . 185.

وتضيف: "لقد شعرت أني في أرض ما زالت تعيش في الحروب. إن كل شيء فيها يعيد للأذهان القرون الوسطى المظلمة"[38].

وتصف العساكر بالقول "حياتهم شاقة عسيرة، ومرتباتهم لا تكاد تسد نفقات طعامهم وثيابهم. وهم يتوجعون من الحصار المضروب عليهم، ومن أنهم لا يعرفون ما يجري في العالم". وتتنبَّأ بأنه "إذا قُدِّر لليمن أن تتغير فسيكونون هم الذين سيغيرونها"[39].

وقد كثر المهاجرون من اليمن للبحث عن فرص عمل لكسب العيش، وبسبب بؤس الأوضاع المحلية، وغلبة الاستبداد وروح الاستغلال الفاحش، ولأسباب سياسية أيضا.

ويصف من خرجوا من سجن مملكة الظلام من طلبة البعثات النادرة المسافرة إلى الخارج كيف كان خروجهم من اليمن عملية تمدين كاملة في كل شيء، من الملبس إلى المأكل والمشرب والثقافة والصلة بوسائل العصر من صحافة وكتاب وسينما وراديو وغيرها. وكيف اندهشوا وانبهروا باكتشاف العالم خارج مملكة الظلام[40]، وهو ما أطلق عليه أحمد المروني "الخروج من النفق المظلم".

[38] نفسه، ص. 204.

[39] نفسه، ص. 149.

[40] انظر مثلا أحمد المروني، الخروج من النفق المظلم، ص. 40 . 41

تقليدية الأدب

ينقل العطار عن طه حسين في كتابه "الحياة الأدبية في شبه جزيرة العرب" قوله: لم يحدث أي تجديد من شأنه أن يغير مجرى الحياة الأدبية التقليدية التي لا زالت محافظة على ما كان لها من شكل ومضمون منذ قرون، ولا نعثر اليوم (في اليمن) على كُتَّاب وشعراء لهم قيمة كبيرة ولا يتعدى الأدب نظم أشعار لتمجيد الإمام وتملُّقه. والأبواب موصدَة أمام التغيير. ولا يوجد سوى مخطوطات، أما المطبوعات فنادرة.

ويضيف البردوني "إن بعض رجال تلك الفترة لم يفهموا أسلوب طه حسين والعقاد لمغايرتهما بعض الشيء لأساليب أحمد بن يحي المرتضى والمسعودي والجاحظ، بل إن بعض نابهي تلك الفترة استغربوا (أحمد) شوقي، حتى أن علي عقبات كان يسخر من أشعار شوقي ويفضل عليه أي شعر قديم أو أي نثر قديم كمقامات الحريري، وأشعار البهاء زهير، مع أن شعر شوقي كان قليل الاختلاف عن شعر القرن الرابع الهجري"[41].

وحتى الكتب التي تسربت في تلك الفترة من الكتابات الحديثة لم تكن تحرك الفكر إلا باعتبارها تكتب بأسلوب نثري وتحليلي غير تقليدي مثل "حياة محمَّد" لمحمد حسين هيكل، وكتاب "وحي القلم" لمصطفى صادق الرافعي، الذي لا يحمل، كما يقول البردوني، أي نفحة معاصرة، وإن تسربت بعض الكتب المهمة ذات التأثير السياسي مثل "الانقلاب العثماني" لجرجي زيدان. ويرى أن ليس في الكتب التي تسربت ما يتسم بالمعاصرة أو يركز على موضوع العصر. ومثلها المجلات التي منها

---

[41] عبدالله البردوني، اليمن الجمهوري، ص. 348.

"الرسالة" و"المقتطف" فإنها "خالصة الأدبية، وأغلب أدبياتها رومنتيكي غير ثوري وكتابات بلاغية، لأن الفترة إلى آخر الأربعينات (في الثقافة العربية خارج اليمن) كان يغلب على ثقافتها إحياء ثقافة الماضي ومحاكاتها"[42]. ومع ذلك، فإن تسربها إلى أيدي الشباب المتطلع من الأدباء والشعراء اليمنيين في تلك الفترة المظلمة المغرقة في تقليديتها وانغلاقها قد كان أحد بوادر التغيير في النثر الأدبي وفي الشعر وإن كان بعض من قرأوها لم يستوعبوا ما وراءها من ثقافة.

وكان العِلم السائد عند التقليديين قراءة "شرح الأزهار" في الفقه لأحمد بن يحيى المرتضى، والإحاطة بكل ألغاز النحو في كتبه الصفراء، وفهم الينابيع في الأصول، وما أشبه ذلك[43].

ويذكر أحمد المروني من الكتب التي تسربت إلى مملكة "النفق المظلم"، الذي شكلته مملكة الظلام "تحت راية القرآن" لمصطفى صادق الرافعي، ومجلدين من مجلة "الرسالة" الأدبية، و"من وحي القلم" للرافعي أيضا و"حديث القمر" و"أوراق الورد" له أيضا. كما طالع "فجر الإسلام" لأحمد أمين، و"على هامش السيرة" لطه حسين، و"دمعة وابتسامة" لجبران خليل جبران، وسلسلة الروايات التاريخية لجرجي زيدان و"العرب قبل الإسلام" له أيضا، و"العروة الوثقى" لجمال الدين الأفغاني ومُحَّد عبده. وفي الشعر قرأ "ديوان إسماعيل باشا صبري" وديوان أحمد شوقي، وتأثر بكتابات أحمد حسن الزيات وشعر حافظ إبراهيم.

أما أحمد المعلمي فيشير إلى أن دراسة الخاصة كانت تقتصر على درس الفقه والحديث والنحو، وأن الشعر في تلك الفترة المظلمة كان لا يخرج عن المدح أو الرثاء أو الذم[44].

---

[42] نفسه، ص. 348 . 349.

[43] محمد الفسيّل في من سجن حجة، ص. 52.

[44] أحمد المعلمي، نفسه، ص. 118.

ويضيف الدكتور المقالح بعدا آخر غالبا ما يكون منسيا في الحديث عن العزلة وعن التخلف الثقافي يتعلق بالمرأة بعد قيام الجمهورية فيقول إن كل شيء في اليمن كان يبدو "كأنه عمليا وواقعيا يبدأ من الصفر، لا سيما ما يتعلق منه بالظهور الإبداعي أو النقدي المتأخرَين للمرأة، هذا الكائن المظلوم الذي كان غائبا أو بالأصح مغيبا عن الحياة العامة... فالمرأة المبدِعة تبدأ من الصفر، والمرأة الناقدة تبدأ كذلك من الصفر، والمرأة الباحثة والمدرِّسة والإدارية والطبيبة كلهن يبدأن من الصفر، وأحيانا مما هو أقل من الصفر..."[45].

ويتذكر البردوني من الكتب السياسية الثورية التي كانت تتسرب سرا عبر مستعمرة عدن إلى تعز وتُهرَّب منها إلى صنعاء وتوزع في منتهى السرية ويتم تناقلها من يد إلى أخرى ويقرأ النسخة الواحدة أكثر من شخص، "الميثاق الوطني" المصري، وترجمات "عاصفة على السكر" حول ثورة كوبا و"عارنا في الجزائر" الذي يدين ممارسات الاستعمار الفرنسي في الجزائر لجان بول سارتر، و"باسم الحرية" للزعيم الغاني الإفريقي كوامي نيكروما[46]، لكن البردوني يشير إلى أن بعض الكتب كانت معقدة وترجمتها غير مفهومة إلى حد بعيد.

وقد يكون من المفيد إيراد نماذج من النثر التقليدي الذي كان سائدا رسميا في مملكة الظلام. فعلى سبيل المثال يقول ممثل الإمام في عدن في رسالة إلى مولاه: "أمد الله مولانا أمير المؤمنين، والحجة على الخلق أجمعين، المتوكل على الله رب العالمين، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يردد في كل وقت وحين. وبعد فصدورها للسلام، مقبِّلة بواطن الأكف والأقدام، ..."[47]. فإذا كانت هذه كتابة شخص يقول الريحاني إنه يستطيع في عدن الحصول على الصحف والمجلات العربية الصادرة في القاهرة

---

[45] انظر مقدمة المقالح لكتاب وهبية صبرة "البنية الروائية في يموتون غرباء لمحمد عبدالولي"، ص. 3.

[46] عبدالله البردوني، اليمن الجمهوري، ص. 439.

[47] أمين الريحاني، نفسه، ص. 89.

وبيروت وغيرها، وبأنه رأى بعضها عنده[48]، فكيف بمن يعيشون معزولين داخل مملكة الظلام لا يصل إلى أيديهم سوى النصوص الصفراء القديمة.

ومن المؤرخ عبدالواسع بن يحيي الواسعي نقتبس نصين من النثر التقليدي الرسمي والمؤيد للنظام مع أنه خرج من اليمن وزار عددا من البلاد العربية منها سوريا ومصر، لكنه كما يبدو حافظ على ثقافته التقليدية، وبخاصة السياسية، حيث يقول "الحمد لله الذي خص قطر اليمن الميمون بالإيمان دون سائر الأقطار. فالايمان يمان والحكمة يمانية يقول المصطفى المختار، وجلل هذا القطر بالشرف المنيف والكرم المدرار، وفضل أهله بالإيمان وملوكهم بالعدل على سائر الأمصار. سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار. أحمده أن جعلني من أهله، وأسأله المزيد من فضله في جميع الأمصار"[49]. فإلى جانب حرص المؤلف على السجع وسياق اللغة التقليدية الموروثة، لا يجد ما يمتاز به اليمن عن سائر أمم الأرض سوى الإيمان ولا يرى أنها حرمت من الصناعة والزراعة المتطورة والتعليم والصحة، ولا يلاحظ أن الفقر عاما والأمية شائعة، والأمراض تفتك بالسكان دون أو يجدوا طبيبا واحدا أو حتى ممرضة تساعدهم على تحمل معاناتهم، ولا يرى العزلة والانغلاق والضرائب الجائرة التي تُنتزَع من فقراء يحتاجون إلى لقمة العيش ويضطر كثير منهم إلى الهجرة والتشرد في آفاق الأرض بحثا عن عيش لا يتوفر في بلاد تطردهم بجورها وتخلفها وإهمالها لمصالحهم.

ومن الأمثلة على كتابة التاريخ بما يناسب الحاكم الطاغية قوله عن الإمام: "ومن كمال همته وسمو سياسته اهتمامه بالاطلاع على أخبار العالم... وفي كل صباح يجلس الإمام بنفسه في ساحة قصره دار السعادة (لا يقول إن هذا المبنى كان مستشفى في أيام الأتراك حوله الإمام إلى قصر لسكنه) ليسمع بنفسه شكايا الناس، ويصل إليه العاجز والضعيف (كيف يصل العاجز والضعيف من أنحاء البلاد ولا

---

[48] نفسه، ص. 84.

[49] عبدالواسع الواسعي، تاريخ اليمن، ص. 7.

توجد مواصلات تيسر الانتقال، والطرقات وعرة ومتباعدة، والناس فقراء لا يملكون ما يساعدهم على التنقل إلا إذا كان الإمام عاقل حارة وليس ملكا على بلاد واسعة؟) والمرأة والصبي، واعيا صابرا طلق المحيا، عطوفا شغوفا متواضعا. وهذا هو عين رغبته في تعميم العدل والإنصاف. وإذا جاء وقت الظهر خرج ومعه بعض الجنود وطائفة من الناس، ويمشي ولا يزال يسمع الشكاوى ويكلمه هذا، وتارة يكلم هذا إلى أن يصل المصلى، وفي حالة وضوئه وبعد وقبل الصلاة، لا تزال تلك حالته في سماع الشكاوى. وبعد الصلاة يرجع إلى قصره راكبا والموكب أمامه، وتدق الطبول والطيلسان أمامه والعساكر ينشدون الزامل المعروف في اليمن... وبعد الغداء يخرج إلى الديوان (مقيل القات) ويجتمع إليه كتابه، ثم يأخذ كتابا للمطالعة، ثم ينظر في الشكايا والجوابات التي ترد إليه من جميع الجهات، ثم ينظر الأوراق واحدة واحدة، صغيره وجليله، ويظل هكذا إلى أن يصلي العشائين ثم يرجع وكُتَّابه معه إلى طائفة من الليل"[50].

وحتى دخول الصحافة لم يغير شيئا كثيرا من هذا الحال الثقافي البائس. فإذا كانت مجلة "الحكمة اليمانية" قد حاولت بقدر ما تستطيع أن تطرق الجدار السميك المحيط بالواقع اليمني في حدود ما سمح لها النظام وما استطاعت التلميح إليه، فإن صحيفة الإيمان، التي كانت تمثل بحق الصحافة الرسمية، ظلت "تسير على وتيرة واحدة، وتحافظ على أسلوب تقليدي جامد يشبه الإكليشات المحفوظة، وتدور في فلك الدولة – أو بالأحرى الإمام يحيى – ولا تحيد عنه. فقد كانت تبدأ بمقالة طويلة... سواء كان موقفا أو قرارا للدولة، أو حديثا عن مناسبة أو عيد ديني، ويتلو هذا فيض من الأخبار الداخلية التي تدور حول مقابلات الإمام وأبنائه... وتنقلاتهم، وتمنيات كبار وصغار الموظفين على السواء، أو حتى استئذان هؤلاء للحصول على إجازات قصيرة. وكان الجانب الأدبي... يتمثل في القصائد الطوال التي تلقى في مدح

[50] نفسه، ص. 129 . 130.

الإمام وأبنائه، أو تكون بمناسبة دينية أو وطنية معينة، أو رثاء لإحدى الشخصيات الكبيرة، مع الاهتمام بجانب المدح"[51].

ولذلك ظلت الحركة الثقافية راكدة ركود الحياة العامة كلها في مملكة "النفق المظلم". وكانت الكتب الجديدة تهرب كما تهرب المخدرات، ويتم تداولها سرا. وأدى هذا الوضع المتخلف البائس إلى أن أصبح الهرب من مملكتها فوزا عظيما من حيث التملص من وطأة الظلم والضرائب الجائرة وانعدام التعليم والرعاية الصحية والحصول على فرص عمل توفر ولو الحد الأدنى من العيش الكريم. وكان هذا عامل تفتيت للكيان الوطني يجعل سكان مستعمرة عدن ومحمياتها يهربون من الانتماء إلى مملكة الطاعون التي تعمل كل شيء لتنفير سكانها، فما الذي يجعل من يقع خارج كابوسها يطمح لإلقاء نفسه في الهاوية؟

فقد كان من "أبشع نتائج الإمامة هو قتلها الإحساس بوطأة الوجود الاستعماري في جنوب الوطن في نفوس أبناء الشمال، الذين قاسوا منه ألوانا من العذاب ترجع إلى عهود خلت من تاريخ البشرية. إن أي نظام بالمقارنة بالإمامة يبدو في عيونهم رحمة من السماء"[52]. وقد صاغ أحد الظرفاء الهاربين إلى مستعمرة عدن هذه الحقيقة المرة بطريقته الساخرة قائلا: "إذا كان الاستعمار مصيبة فالإمامة مصيبتان".

---

[51] سيد مصطفى سالم، الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن، ص. 29.

[52] أبو بكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية، ص. 52.

النموذج التقليدي للكتابة

ويمكن اعتبار مؤلفات مُحَمَّد بن مُحَمَّد زبارة النموذج الرسمي للكتابة التقليدية في مملكة الظلام، فقد تولى إعادة كتابة تاريخ الأئمة من الهادي يحيى بن الحسين الرسي حتى الإمام أحمد حميدالدين، وكان أحد الموثوقين عند تشكيل لجنة كتابة التاريخ اليمني في الثلاثينات والمكلف رسميا بالسهر على ألا يخرج أعضاء اللجنة عن السياسة والفهم الرسميين للتاريخ بما يوطد سلطة الطاغية ويدافع عن النظام. وكان بعض المستنيرين الذين تسربوا إلى اللجنة تحت رقابة الأعضاء الأكثر تقليدية حتى لا يخرجوا عن السياسة الرسمية.

وينسج زبارة فيما يكتب على منوال من سبقوه في كتابة التاريخ بأسلوب الحوليات التي تنتقي بعض حوادث سنة معينة تتصل بالإمام وممثليه وأفعاله دون أي تحليل معمَّق للبنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وما يحيط بالحوادث المذكورة وخلفياتها التاريخية ونتائجها وتفاعلاتها مع غيرها من الحوادث والبنيات والآليات التي انتجتها. كما يتبع أسلوب التراجم التي تركز على جوانب معينة من سيرة من تحرر ترجمته، ولا تهتم بالبيئات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية التي نشأ فيها الشخص وأثرت فيه وأثر فيها وجعلته ما يبدو عليه وبنت شخصيته وحددت مواقفه وقناعاته، وهو أسلوب يتشابه في القديم والحديث، ولا يقدم سوى القليل من المعلومات التاريخية. لأنها تكتب بطريقة التركيز العمودي على الشخص، مولده وشيء من تعليميه والقليل من أفعاله ونشاطه، وتقدمه مفصولا عما يحيط به من تطورات تاريخية عامة وصراعات وتناقضات واتفاقات على المستوى المحلي والخارجي، وعلاقاته بالناس وبالمجتمع من حوله، والمؤثرات التي ساعدته على النجاح أو جعلت فشله أمرا

لا مهرب منه، والقرارات التي اتخذها في حياته، والأخطاء التي ارتكبها وحركة المجتمع الذي فعل فيه أو تأثر به، والثقافة التي تأثر بها وأثرت فيه.

وهكذا كانت تراجم زبارة نصوصا عمودية قائمة بذاتها منفصلة عن بعضها البعض. يورد الاسم والنسب حتى آخر جد معروف، ويذكر من دَرَس عليهم، أحيانا بشيء من المدح وما يصاحبه من مبالغة، وبعض الصفات العامة التي تصلح لكل ترجمة كقوله: "كان عالما فاضلا ورعا تقيا عابدا بعيدا عن أرباب الدنيا قانعا بما قسمه الله له من الرزق الحلال"[53]، ويضيف إلى ذلك معلومات مقتضبة عن تحركاته، أو عن الأعمال التي تولاها إن وجدت، وما إذا كان قد ذكر بطريقة موجزة في تراجم شعرية أو نثرية سابقة، حتى أن سيرة إمام مثل الهادي شرف الدين بن مُحَمَّد الحسني، وهو الإمام السابق [54]على تولي مُحَمَّد حميدالدين، والد الإمام يحيى، قد أوجزت في أقل من أربع صفحات[55]. وقد يستغرق الجزء الأكبر من الترجمة ما قيل من شعر في مدح صاحب الترجمة وما رد به على من مدحه، إلخ. على سبيل المثال: ترجمة مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمراني التي أغلبها شعرٌ قيل فيه أو رد به على من مدحه.[56] ويمضي الكتاب في سرد تراجم منفصلة لمن عاشوا في تلك الفترة دون أن تنتظم كلها في نص تاريخي مندمج متكامل.

---

[53] محمد بن محمد زبارة، أئمة اليمن، ج1، ص. 4.

[54] من المعيب أن أربع صفحات قد نُزِعت بعد الطبع من كتاب "نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر" لمحمد زبارة الذي طبعه مركز الدراسات والبحوث اليمني سنة 1979، وهي الصفحات التي احتوت على ترجمة متحمسة للطاغية أحمد حميدالدين (الصفحات من 165 إلى 170 منزوعة). وقد كان بالإمكان إما وضع ملاحظة في الهامش تشير إلى وجه الاعتراض على الترجمة، أو كتابة مقدمة نقدية توضح أن المؤرخ التقليدي لم يكن موضوعيا في كتابة هذه الترجمة، أو نشر موضوع مستقل يوضح حقيقة صاحب الترجمة والمآخذ على هذا المدح لحاكم ظالم.

[55] نفسه، ص. 4 . 7.

[56] نفسه، ص. 40 . 45.

وحتى ترجمة الإمام يحيى حميد الدين الذي يسميه زبارة "الفاتح الشهيد" كتبت بأسلوب الحوليات الذي يذكر حوادث كل سنة بمفردها، وأُثقِلَت بالنظم التقليدي بحيث احتوت الصفحات من 3 إلى 22 نحو 241 بيتا من الشعر استغرقت أغلب مساحة الصفحات المذكورة وملأت النص بالنظم والمدح والمجاملات، وصرفته عن التعمق في موضوعه والتوسع في تتبع الحوادث والأحداث والصراعات والتحديات والخلفيات المختلفة حتى ولو بالأسلوب التقليدي للكتابة التاريخية. هذا فقط كمثال، لأن ليس الغرض هنا القيام بدراسة نقدية معمَّقة لهذه المؤلفات ولا لطريقة كتابة التاريخ بأسلوب الحوليات والتراجم.

ويمكن اعتبار كتاب "أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر"و كتاب "نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر" خاتمة سلسلة الكتب التي أعاد زبارة فيها صياغة تاريخ اليمن من المنظور التقليدي، وتُمَثِّل آخر ما بلغه أسلوب النثر التقليدي من هيمنة على الثقافة السائدة فيما قبل قيام الجمهورية[57].

والواقع أن مُحَّد زبارة كان أغزر أعضاء لجنة التاريخ التي شكلها الإمام يحيى حميدالدين لكتابة تاريخ اليمن من وجهة نظر مملكته، إذ لم يترك الأعضاء الآخرون في اللجنة ما يمكن مقارنته بالمؤلفات العديدة التي تركها، والتي وإن كانت قد كتبت بأسلوب تقليدي، فإنها قد قدمت للقارئ المهتم وللباحث في تاريخ اليمن الكثير من المعلومات القيمة التي يمكنه الاستفادة منها والبناء عليها في أي بحث، وتقدِّم مدخلا أوليا للعودة إلى الأصول لكتابة نصوص تاريخية موضوعية عن تاريخ اليمن، أو لكتابة

---

[57] الكتب التي ألفها محمد زبارة وأعادت قراءة تاريخ اليمن من وجهة نظر الأئمة:

1. خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، 4ج،
2. نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف،
3. نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر،
4. أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر، 3ج،
5. نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، 2ج.

تاريخ اليمن الإسلامي، ولفهم العقلية المنغلقة التي سادت الثقافة التقليدية حتى قيام الجمهورية.

وقد تسربت الأفكار الجديدة والقيم المتحررة إلى اليمن المحاصرة وراء أسوار العزلة والانغلاق عن ثلاثة مصادر:

– سيل المهاجرين اليمنيين الذين أرغمتهم ظروف الفقر والظلم على مغادرة بلادهم إلى كل مكان أمكنهم الوصول إليه في العالم، فاحتكوا بثقافات وأنظمة حكم وقيم وأفكار لم يكن ممكنا أن يظلوا مغلقين في وجهها، وألا يتأثر بها على الأقل بعضهم أو النابهون منهم. ويمكن أن نضيف إلى المغتربين الطلبة اليمنيين الذين إما تم ابتعاثهم للدراسة أو هربوا، من بلد لا يقدم أي فرص للدراسة والحصول على المعارف الحديثة، إلى بلدان عربية وغير عربية وعاد بعضهم وقد تشربوا بمعارف وأفكار واكتسبوا تجارب لا تقبل الجمود الذي تعيشه بلادهم وأثبتوا ألا سبيل لتدجينهم ومسح ذاكرتهم مما علق بها من معارف وأفكار وتجارب وما راودهم من طموحات وآمال الإصلاح والتغيير.

– أما المصدر الثاني فقد كان تسريب الصحف والمجلات والكتب عن طريق مستعمرة عدن في الدرجة الأولى، إما بجهود فردية وإما من خلال عمل حثيث منظم كانت حركة الأحرار اليمنيين المعارِضة للاستبداد تقوم به، وتعتبره جزءً من نضالها السياسي وكفاحها المستمر لتحرير شعبها ومساعدته لبناء حياته الجديدة.

– أما المصدر الثالث فهو ما كانت تقوم به نوادي واتحادات المناطق، أو ما أطلق عليها خطأ "الجمعيات القروية"، وهي في الواقع تعاونيات أهلية أسهم بها المجتمع الأهلي في مساعدة بعضه البعض وجعل التعليم والتوعية الثقافية من ضمن نشاطاته، فنقل شيئا من مؤثرات الليبرالية الغربية والحضارة الحديثة على المجتمع العدني إلى أعماق الريف وبخاصة في المناطق القريبة.

ضمور حركة التأليف

وقد أدى جمود الحركة الثقافية وغلبة الثقافة الرسمية التقليدية إلى ضمور ملكة التأليف وندرة انتشار الكتاب وعدم وجود سوق للكتاب الجديد، وكان من الطبيعي أن يندر التأليف بين اليمنيين في ظل غلبة الأمية، وغياب وجود حركة ثقافية متفاعلة ومشجعة، ودون جمهور يستقبل الإنتاج الجديد، ودون تشجيع رسمي لنمو الثقافة. ولذلك لم يُنشَر من الكتب اليمنية في الداخل خلال نحو أربع وأربعين سنة من عمر مملكة الظلام من 1918 إلى حتى قيام الجمهورية عام 1962، إلا القليل النادر، ولم يطبع في الخارج ويسمح له بالتوزيع في الداخل إلا القليل من مؤلفات أنصار النظام والمدافعين عنه. ومع أن بعض المستنيرين كانوا قد كونوا ثقافة تمكنهم من الكتابة، فإنهم لم يجدوا جدوى في الكتابة، واكتفى الشعراء بقرض شعر المدح والهجاء، ولم يتح لهم حرية النشر إلا بعد قيام الجمهورية، ومال الشعراء الذين ينتقدون الاستبداد إلى التخفي وعدم الإفصاح عن إبداعهم خوفا من الانتقام. وحتى الكتابة في مجال التاريخ القديم الذي لا يصطدم مباشرة بالنظام، لم تجد فرصة للنشر والانتشار إلا بعد قيام الجمهورية، مثل كتاب "اليمن، الإنسان والحضارة" لعبدالله الشماحي الذي كان من وجهاء ما قبل الجمهورية والتحق بالجمهورية فور قيامها، وكتاب "اليمن عبر التاريخ" لأحمد حسين شرف الدين الذي طبع سنة 1964 مع مقدمة بقلم عبدالرحمن الإرياني، الذي كان في وقت كتابة هذه المقدمة وزيرا للعدل في الجمهورية وأحد أقطاب المعارضة في الجمهورية الأولى حتى تولى رئاسة الجمهورية الثانية. وحتى سيرة الطاغية يحيى حميدالدين التي كتبها عبدالكريم مطهَّر، رئيس تحرير صحيفة الإيمان الرسمية المسخرة لخدمة الطاغية والدفاع عن نظام حكمه، لم تنشر إلا بعد قيام

الجمهورية وبمقدمة لأحد الأمراء الذين كانوا من أعتى من قاوم الجمهورية حتى انتصرت تماما وعُرِف بتورطه بإعداد وتمويل عملية اغتيال أبي الأحرار مُحَمَّد محمود الزبيري في برط في 30 مارس 1965. وقد كُتِبَت هذه المقدمة بأسلوب نثري جمهوري يختلف عن ثقافة النظام الذي أسقطته الجمهورية، وهذا أحد الدلالات على أن الجمهورية قد كانت تحريرا للجميع حتى لأولئك الذين حاربوها.

وقد كان الشباب المستنير داخل مملكة الظلام يبذلون جهودا مضنية للحصول على الكتب والمطبوعات وتدارسها فيما بينهم في جلسات ومقايل قات واجتماعات شبه سرية يقوم القات فيها بدور الحجاب الذي يستر اجتماعاتهم ويمنع الشك في المجتمعين. فقد كان معتادا أن تجتمع كل مجموعة أصدقاء عند أحدهم لتناول القات فيما بعد الظهيرة حتى أول الليل. ويقرأ المتعلمون منهم كتابا ويتناقشون حول موضوعاته. وكان الشباب المستنير وأعضاء الأحزاب القومية واليسارية القليلون والمهددون بخطر القمع الشديد يستغلون هذه العادة ليمارسوا نشاطهم الحزبي، وهي الطريقة التي كان الضباط الأحرار يجتمعون بها دون أن يثيروا ريبة الطاغية وأعوانه، وظلت الأحزاب اليسارية الممنوعة حتى بعد قيام الجمهورية تجتمع بهذه الطريقة وتستخدم جلسات القات للتغطية.

ويصف عبدالعزيز المقالح اجتماعات منتظمة جرت سنة 1957 كأنها اجتماعات حزبية لتدارس بعض الكتب المسرَّبة إلى مملكة الظلام فيقول إنهم كانوا يجتمعون في كوخ يسكنه علي عبدالمغني، حين كان ما يزال طالبا في المدرسة قبل أن يلتحق بالكلية الحربية ويتخرج منها ضابطا في الجيش ويشارك في قيادة تنظيم الضباط الأحرار الذي قام بالثورة وأعلن الجمهورية. يقول: "فقد كنا نجتمع بعد ظهر كل يوم... بالقرب من كوخ أرضي كان يسكنه الصديق الشهيد الملازم علي عبدالمغني وعدد من زملائه قبل أن ينتقلوا إلى الكلية الحربية. وكان الأستاذ العزيز أحمد حسين المروني (الذي يقوم بدور مسئول الخلية الحزبية في النشاط الحزبي) يقوم بتدريسنا بعض

الكتب في الفلسفة والتاريخ والأدب، وأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مبادئ الفلسفة للأستاذين أحمد أمين وزكي نجيب محمود، وقصة الأدب في العالم للأستاذين نفسيهما، ثم بعض كتب الدكتور طه حسين وبخاصة كتاباته عن أبي العلا.... وكنت وزملائي نعاني من صعوبة فهم النظريات الفلسفية حتى تلك التي تتعلق بالأدب ابتداءً من نظرية المثُل والمحاكاة عند أفلاطون إلى نظريتي التطهير والمنطق الصوري عند أرسطو، مرورا بفكر الكوجيتو[58] عند ديكارت وقوفا عند عشرات الأفكار والنظريات أو النظرات الفلسفية والأدبية المعاصِرة عند سبينوزا وهيجل وهيوم... جاء (علي عبدالمغني) ذات يوم قائلا نريد أن نأخذ اليوم إجازة من الفلسفة ونقرأ في هذا الكتاب، وأخرج من جيبه هذه المجموعة القصصية (أنت شيوعي) للأخ صالح الدحان، بدأنا نتخاطفها ونلقي نظرة على العنوان وأخرى على اسم المؤلف"[59]. وهي قصة مهمة تدل على ما كان يوجد لدى الشباب المستنير من شغف بالمعرفة وما كانوا يبذلون من جهود للتزود بها، والحرص على المناقشة في حلقات تَدَارُس يقودها مثقف لديه تجربة معرفية يمكن الاستفادة منها. كما تدل على مقدار المغامرة التي كان طالبو المعرفة يُقدِمون عليها في الحصول على أحدث معارف يمكن أن تتسرب إلى مملكة الظلام. إذ يمكن تصور المخاطرة بتهريب كتاب بعنوان استفزازي مثل "أنت شيوعي" وقراءته وتداوله في تلك الفترة المظلمة حتى لو كان ما يحتويه قصصا قصيرة وليس ترويجا لأفكار سياسية.

---

[58] هذه عبارة لاتينية Cogito ergo sum وتعبر عن مبدأ انطلق منه ديكارت ويلخص بما يلي (أنا أفكر، إذا أنا موجود) أو (أنا أشك، إذا أنا موجود).

[59] مجلة الكلمة، العدد 55 (يناير . فبراير . مارس 1980)، ص 44.

الفصل الثاني

محمد محمود الزبيري وتجديد لغة الشعر ووظيفته

كانت اليمن في بداية تبلور شخصية مُحَّمد محمود الزبيري في موعد مع قَدَر جديد، ووعود جديدة تختلف عما شهدته طوال تاريخها الماضي. لم يكن هناك في بيئة الزبيري وتعليمه وتاريخ أسرته ما يؤشر ولو مجرد إشارة إلى أنه سيخرج عن سرب الشباب العاديين من أهل صنعاء، فيتردد على حلقات الدراسة في الجوامع ويلتحق إن أمكن بالتعليم المتدني المتاح، حتى يحصل على وظيفة صغيرة أو متوسطة، مثله مثل أبيه وأفراد أسرته، للعمل سواء في أية محكمة أو إدارة بدائية في صنعاء أم في الريف للفوز بالمرتب الزهيد وتكملته بما يمد إليه يده في شبكة الاختلاس المعترف بها رسميا. فما الذي جعل الزبيري يأنف هذه الحياة منذ البداية حتى وقد التحق بصديق له، هو عبدالله بن علي الوزير، ابن نائب الإمام في تعز وإب، بيضة الذهب والبقرة الحلوب التي كان كل موظف يتمنى أن ينعم بما أمكن من حليبها[60]؟

كانت صنعاء قد أصبحت عاصمة الدولة الإمامية وبدأت تمد أذرعها إلى أغلب بلاد اليمن. وكان شباب صنعاء من أمثال الزبيري يتطلعون للاستفادة من هذا الانتشار الصنعاني في شكل وظائف وفوائد مالية ونفوذ وصعود اجتماعي. وكان لدى الزبيري أكثر من غيره من الشباب في عمره من المؤهلات ما يجعله يحظى بهذه الامتيازات، أب موظف من أسرة صنعانية معروفة لها علاقاتها بالحاكمين، وتعليم تقليدي سائد يسمح له بممارسة وظيفة يتولاها من هم أقل منه معرفة وقدرات

---

[60] كانت منطقة إب الخصبة تتبع تعز في تلك الفترة.

ومواهب، وتعرُّف على بعض الأسر المقربة من الحكم، وفوق هذا كان لديه موهبة كبيرة مميزة جعلته يمتلك مزامير الشعر وسحره وبيانه.

ومع أنه كان قد بدأ الحصول على بعض المهمات الوظيفية وهو ما يزال شابا حدثا جعلته يخرج إلى بيوت مواطنين فقراء كان أمثاله من موظفي الطغيان قد دخلوها واحتلبوا فقرها لينعموا بما يساعدهم على العيش بشكل معقول، اشمأز من هذه المهمة وسارع بالتحرر منها ليعود إلى مدينة تعز حائرا نافرا من الوظيفة ومن العمل مع السلطات الإمامية. ولكن ما السبيل إلى شق طريقه الصعب في هذا الوسط المتهالك على ما في أيدي المواطنين الفقراء دون رحمة؟

لا يوجد ما يميز الزبيري عن أمثاله من الباحثين عن وظيفة حكومية سوى حساسية خاصة امتلكها في التعامل مع الشعر وموهبة كبيرة تحرك مشاعره وأحاسيسه، وأفق سماه صوفيا حلق به خارج اهتمامات البشر العاديين. نعم، كان الآخرون ينظمون الشعر ويمدحون به الحاكمين والمقربين منهم، ويحاولون التعاطي مع الهجاء والرثاء. فما الذي جعل الزبيري منذ وقت مبكر في حياته يربأ بنفسه عن هذا الفهم التقليدي للشعر ويرى أن هذا ليس الشعر الذي يريد أن يبدعه وأن يكتبه ويربط حياته به؟ وهكذا لازم الشعر حياته منذ البداية وأصبح طريق نجاته من السقوط فيما سقط فيه آخرون، الارتزاق بالشعر واتخاذه وسيلة للتكسُّب. كان يرى نفسه بشعره أكبر ممن قد يمدحهم أو يهجوهم. وكاد أن ينغلق على نفسه لولا أن الشعر استدرجه وملأ وجدانه وسبح به في دنيا الأحلام حتى اقتحم به دنيا العصر الحديث، وأخرجه من العزلة والتقوقع، ودفع به في غمار الحياة المتلاطمة والمليئة بالصراعات والمتناقضات.

يقول "تفاعلت نفسي مع الشعر، وتفاعل معها، ونما خلال نموها، فكانت طفولتي طفولته، وشبابي شبابه، ونضجي نضجه، وكان يسير جنبا إلى جنب حيث أسير، فهو ساذج في سن المراهقة، وطائش عندما أطيش، وحزين عندما أحزن، وحالم

بالسعادة وقت ما أحلم، إذا لعبتُ لعب مثلي، وإذا جديتُ قلَّد جِدي، وعندما كانت يدي تلعب بقطع الشطرنج للتدريب على فنون الكر والفر والهجوم والدفاع كان هو يعبث برؤوس الملوك يقذفها جوا، ويطرحها أرضا، ويزغرد بها فرحا، ويئن منها جزعا"[61].

ويرى أن الشعر عمل عادي تلقائي من أعمال القلب واللسان، ونتاج طبيعي من نتاج الحياة وصدى من أصدائها ومظهر من مظاهرها.

وقد قادته الصدفة المحضة لأن يذهب حين كان في تعز مع علي الوزير، نائب الإمام في تعز والقاسم بن الإمام يحيى، الذي كان وصوله تمهيدا لتولي الأمير أحمد بن الإمام يحيى إمارة اللواء محل علي الوزير، فما كان أبناء الإمام قادرين على أن يسمحوا للوزير بأن يغتني وتكثر ممتلكاته ويتقوى بوجوده على رأس لواء تعز ومعها إب. وحين وصل الزبيري إلى مدرسة ذُبحان، وكان سنه نحو خمسة وعشرين سنة، لفت انتباهه أستاذٌ فتى شاب متحدث لبق، كان قد نسخ بعض الكتب لوالده الموظف في زبيد، هو أحمد مُحَّد نعمان. ولم تكن ظروف وجود ابن الإمام وأمير اللواء تسمح باللقاء بين الزبيري ونعمان وتبادل الآراء. لكن الزبيري حين عُزِل علي الوزير وسافر معه للحج، تاقت نفسه للدراسة في مصر. وحين وصل إلى القاهرة ذهب مباشرة إلى نعمان وبذلك حدث لقاء تاريخي تواصل في حب اليمن والسعي لخلاصها وتحريرها مما تعانيه حتى وفاة الزبيري بعد نحو سبع وعشرين سنة.

لقد جمعت بين الزبيري ونعمان كيماء وجودية ورسالة نضالية وارتباطٌ لا تنفصم عراه بقضية الشعب، فأصبحا رمزين لوحدة الشعب، بل رمزا واحدا، وبدءا مسيرة كفاحية طويلة ومتواصلة من أجل التخفيف من معاناة اليمنيين في الداخل والمهجر وحشدهم في سبيل تحرير أنفسهم وتحرير شعبهم. كان الظرف صعبا وكان الناس يجدون أنفسهم عاجزين عن فعل أي شيء في سبيل الإصلاح، وكان المستنيرون

---

[61] محمد محمود الزبيري، ثورة الشعر، ص. 7.

القليلون متفرقين، نادرا ما يجمعهم جامع، وحتى لو فكروا بانتقاد الأوضاع لا يذهبون أكثر من الاعتراض في حدوده الدنيا خوفا من بطش النظام وانتقامه. وإذا بالزبيري ونعمان يندبا نفسيهما للعمل باسم الشعب دون تراث منظَّم سابق يمهد للعمل من أجل التحديث. وبدءا معا التفكير في وسائل تطوير أشكال الكفاح لتجاوز العزلة والتخلف.

وكان الشعر القوة المحركة للزبيري، يبعث فيه الشعور بأنه أقوى من الظالمين. كان سلاحه الأمضى في هذه المسيرة الظافرة. وكانت نفس الزبيري ميالة لحمل رسالة عظيمة في مستوى العمل من أجل التغيير دون تراجع. يقول "كنت مفتونا بشعري إلى أبعد حدود الفتنة، فلقد كنت أتناوله في جو روحاني يمنحني الغبطة مضاعفة، ويعطيني ثقة خيالية بالنفس، وأمنا غامضا لا مبرر له من الواقع المحسوس، كما كان يشعرني بقوة الاستغناء عن كل ما في الحياة، وبنزوع إلى الاستعلاء على الاهتمامات العادية، والإيمان بقدرة لا أمتلك في يدي شيئا منها. كنت أحس إحساسا أسطوريا بأني قادر بالأدب وحده على أن أقوض ألف عام من الفساد والظلم والطغيان. لست أدري أذلك من تخريف الخيال الشاعري الجامح أم ومضة من ومضات الذخر الصوفي السجين في أعماقي"[62]. ولا يستطيع أن يعصف بحياة الشاعر الموهوب ويقذف به في أتون معركة كتلك التي نذر الزبيري نفسه لخوضها حتى آخر لحظة في حياته إلا إحساس بشعرٍ هذه طبيعته، وهذه نبضاته في قلب الشاعر وفي دماغه، وهذا فهم الشاعر لماهيته، وإلا توحدٌ واندماجٌ بين الشاعر وشعره وقضية شعبه على نحو لا يمكن الفصل بينها. ولذلك كان هذا الفهم لوحده تجديدا للشعر وتحريرا له من القوالب الجامدة والصور المتيَبِّسة، والقاموس المستهلك الذي ينتمي إلى الموت وليس إلى الحياة بكل ما فيها من تناقضات وصراعات وصبوات وأحلام ونوازع. وهذه القناعة الراسخة

---

[62] ثورة الشعر، ص. 11.

في ذاتها تجديد لوظيفة الشعر والنثر، بل تطوير لرسالة الإنسان في الحياة، وتسامٍ بالإنسان من النوازع الغريزية الحيوانية الأنانية إلى التحليق في ذرى إنسانية رفيعة ونبيلة.

لحظتان بزغتا من قلب التاريخ الآثم فكانتا منطلقا للسير بثبات وصبر ومثابرة لا تقبل الكلل نحو تغيير سير التاريخ في الأرض اليمنية، وأثرتا عميقا على مصائر الشعب اليمني: هما امتلاك الزبيري لشعر غير الشعر السائد ولموهبة فذَّة، شعر صادق وجداني فاعل في التاريخ وفي محاولات تغيير معالمه، واللقاء المبدئي والصداقة المتينة والعلاقة الأسطورية بين الزبيري ونعمان، وهو لقاء حددت وجهته رؤيا مشتركة لمعاناة الشعب وضرورة تحريره من عزلته وانغلاقه ومعاناته، ومن الفقر والجهل والمرض، ومن تشرده في الآفاق بحثا عن لقمة العيش، وبناء مجتمع يرعى مصالح مواطنيه ويحفظ كرامتهم ويوفر لهم العيش الكريم في وطنهم. وقد كشفت وقائع تاريخهما أنهما كانا نوعا من الناس تحركهما المبادئ وتربط بينهما الرؤى والكفاح المتواصل في كل الظروف دون تراجع ودون تنكُّر للصداقة الحميمة المبدئية والإخلاص لقضية شعبهما المضطهد. بل إن الزبيري يتواضع ويلغي دوره العظيم في إبداع الشعر ويعيد كل شيء إلى شعبه المضطهد الصابر فيقول:

الشـــاعرية في روائـــع ســـحرها ... أنــت الــذي ســويتها وصــنعتها

مـا لي بهـا جهـد فأنـت سـكبتها ... بـدمي وأنـت بمهجـتي أودعتهـا

أنت الـذي بشـذاك قد عطرتها ... ونشــرتها بــين الــورى وأذعتهــا

وقفـت لسـاني في هـواك غناءهـا ... فـإذا تغنـت في سـواك قطعتهـا

مــا قــال قــومي آه إلا جئتــني ... فكويت أحشائي بها ولسعتها[63]

عاد الزبيري من مصر سنة 1941 بعد أن وجد نفسه شاعرا مُجِيدا، لكن لا يرضي طموحه ورغبته في العمل لخدمة الشعب المظلوم أن يتفرَّغ للشعر وحده وأن يكرس حياته لتطوير شعره الذي يرتفع به في كل مرة يطير على جناحيه. بدأ فورا

---

[63] محمد محمود الزبيري، ديوان الزبيري، ص. 238.

بصياغة برنامج للتطوير والإصلاح سماه "برنامج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" متوسلا الدين وسيلة لتجنب غضب الحاكم الطاغية وانتقامه، باعتبار الدين الأساس الذي يقول الطاغية إنه يبني عليه سلطته. لكن ظنه خاب ووجد نفسه وهو ابن المدينة منفيا في سجن الأهنوم الضائع في جبال العدم. وهنا أدرك أنه يقتحم أهوال الجحيم. ولم يجد في عزلته وتوحده سوى الشعر رفيقا وأنيسا وسفينة نجاة، فنظم شعرا يمتدح به الإمام الطاغية على أمل الخروج من السجن الرهيب والبحث عن وسيلة أخرى غير الطريق الديني الذي ظنه يوما أقرب إلى قلب الطاغية ودعاواه. وهو شعر سلك فيه أسلوب المدح ليخفف عن نفسه عذاب السجن، ليس لينعم بالمغريات التي بدأ الطاغية يُمَنِّيه بها من أموال ومناصب إذا هو تنازل عن نزوعه نحو المطالبة بالإصلاح والتغيير، بل لكي يدرس التجربة ويجدد المحاولة بصورة أنجح وأمضى وأكثر تأثيرا في شعب لم يصل بعد إلى الوعي بحقوقه وبأن الطاغية يسومه سوء العذاب والحرمان.

"لقد كان شعر المدح في هذه الفترة البدائية هو الرائد والمستكشف الأول، وهو المجس العميق الدقيق الذي تغلغل إلى أغوار نفس الإمام، وأعطانا المقاييس والمعايير لتقدير الحد البعيد الذي ذهب إليه الطاغية من التأله والقسوة والاستعلاء والإصرار"[64].

وحين خرج من السجن وعاد من المنفى الداخلي ضاقت عليه صنعاء وخنقت مشاعره، فلحق بمجموعة الشباب الأدباء إلى بلاط ولي العهد أحمد بن يحيى حميدالدين في تعز، الذي كان يحاول كتابة الشعر ويكتب قصائد محنَّطَة متجمدة مثل النظام الذي كان أقوى أمرائه. وحاول الأدباء المستنيرون أن ينفخوا في ذلك الأمير العنيف غريب الأطوار روحا جديدة حلموا أنها ستحركه وتشجعه بما لديه طموح جامح للحكم على أن يقوم ببعض الإصلاحات الضرورية. ومدحه الزبيري كما مدح

---

[64] نفسه، ص. 21.

أباه من قبله، لكن الشاعر الرقيق وجد أمامه أميرا مشبعا بروح العزلة والانغلاق تشربها وتربى عليها في المراكز القبلية المعزولة، مغرما بالقوة وبما توفره من سطوة ومن عجرفة، فاكتشف الزبيري الوجه الحقيقي لذلك الأمير، وتبين له بمرور الأيام أنه وزملاءه من المستنيرين ينفخون في قربة مثقوبة دون جدوى، فأيقن أنه ورفيقة الأقرب إلى نفسه، لا نجاة لهما من بطش هذا الأمير العنيف ومن براثن نظام الاستبداد إلا بالهرب خارج حدود مملكة الظلام والبدء برسم معالم الطريق القادم نحو التحرر من الظلم والاستبداد. فكان هذا الهرب لحظة فارقة في المسيرة الصعبة والمحفوفة بالمخاطر نحو التغيير والتحديث.

ما يجعل هذه اللحظة تاريخية أن كثيرين قبل الزبيري ونعمان وبعدهما قد هربوا إلى عدن وأعلنوا معارضتهم، لكنهم إما عادوا وخضعوا للنظام أو انصرفوا لشئونهم واهتموا بأمورهم الخاصة أو يئسوا أو أُحبِطوا أمام هول المهمة التي وجدوا أنفسهم في مواجهتها في ظروف شديدة التعقيد وأمام خطر الانتقام العنيف الذي يواجه به الطغاة من يتجرأ على معارضتهم أو الاعتراض على أسلوبهم في الحكم.

لكن الزبيري ونعمان لم يتراجعا وبدءا مسيرة طويلة من حشد المستنيرين والأحرار على طريق التغيير.

وقد عبر الزبيري عن تجربته القاسية مع ولي العهد، بعد أن مدحه ونفخ فيه روح البطولة عله يستدرجه نحو الإصلاح والتغيير، فقال:

وكم جاس شعري غاب ليل تحيط	**بي مضرجة أدغاله ومساربه**
وصور زهرا، ربما كان زخرفا	**على حيةٍ، أو عين وحش تراقبه**
وكم كان ذعري عندما أشرق الضحى	**عليَّ وإذ فتشت ما أنا حاطبه**
وإذ أسفر الوجه الذي بِتُّ هائما	**به فرمتني بالدواهي عواقبه**
وما ذا على من صوَّر الشيء ظاهرا	**إذا اختبأت ملء الطوايا مثالبه**
ولكنه قد يقتل المرء نفسَه	**إذا اختار صِلاً في الظلام يداعبه**

ويتذكر هذه التجربة المريرة ويعبر عن موقفه منها في أكثر من مناسبة، ومنها في القصيدة التالية:

أضلني وهم شعر كنت أنسجُه — سحرا يحول قلب الصخر ألحانا
وهالني شؤم ما استكشفت من جثثٍ — قد كنت أحسبها من قبل تيجانا
فرحت أشعل بالقيثار مقبرة — الموتى وأنفض أغلالا وأكفانا
أصوغ للعمي منه أعينا نزعت — عنهم وأنسجه للصم آذانا
وما حَمَلتُ يراعي خالقا بيدي — إلا ليصنع أجيالا وأوطانا
يخاله الملك السفاح مقصلة — في عنقه ويراه الشعب ميزانا
فهاك يا أمتي روحا مدلهة — عصرتها لخطاك الطهر قربانا
كأسا من الشعر لو تسقى الشموس — بها ترنحت ومشى التاريخ سكرانا

ومن هنا كان هروب الزبيري ونعمان لحظة تاريخية فارقة وضعت اللبنة الأولى على طريق طويل من كفاح الإنسان اليمني في سبيل تحرير نفسه. يصف الزبيري في رسالة طويلة رحلة العذاب من تعز إلى عدن، ولكنه يصفها بروح من يكتب شهادته للتاريخ ليدل عشاق الحرية على الطريق الصحيح نحو خلاصهم وخلاص شعبهم. ومن الرسالة في شرح الصعوبات التي لاقاها ومعه رفيقه نعمان يقول عن لحظة من لحظات الهرب: "تحسَّستُ لي مضجعا في ذلك المنحدر فلم أعثر إلا على بقعة صخرية ذات رؤوس حادة كنت أضع يدي عليها لتكون حائلا بينها وبين أضلاعي، وغفوت بالرغم من ذلك، ولكنها غفوة متقطعة كنت أستيقظ أثناءها فأحمد الله على أن وضَعَ في قلوبنا هذا الإيمان الذي هوَّن علينا المصاعب وحبَّبَ إلينا المصائب. ولكن كلما تصوَّرتُ فاجعة الأسرة بهذه الليلة خُيِّل إليَّ أن خرابا هائلا يتدهور بين جوانحي"[65].

---

[65] انظر نص الرسالة التي كتبها الزبيري لصديق ساعدهما على الهرب في: علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، ج1، ص. 182.

والرسالة كلها من ملامح تجديد النثر في تلك الفترة المبكِّرة (سنة 1944) من واقع الحركة الثقافية في مملكة الظلام.

لقد كانت لحظة تاريخية بامتياز، رسمت خط سير الزبيري ونعمان اللاحق في حركة الأحرار المعارِضة، ولحظة فارقة قرر فيها الزعيمان المستنيران الانتقال من مرحلة إلى أخرى في كفاحهما السياسي، من الجهد الفردي إلى العمل المنظَّم الذي تتظافر فيه الجهود الإنسانية وتُحشَد الطاقات لتحقيق نتائج ملموسة سريعة نسبيا. ومن هذه اللحظة فصاعدا بدأت المعارضة تنتظم إما في حزب، مثل حزب الأحرار، وإما في جمعية يمانية كبرى أو في اتحاد يمني، وبذلك سارت المعارضة على طريق صحيح يؤدي في النهاية إلى النجاح.

ومنذ تلك اللحظة بدأت الثقافة السياسية في اليمن كله تتغير، وتتقبل فكرة الأحزاب السياسة. فقد كان حزب الأحرار حجرا كبيرا ألقي في الحياة السياسية الآسنة فحركها وبعث فيها الحياة. فهو حزب، ولكن ليس أي حزب، بل حزب الأحرار المطالبين بحرية شعبهم كله وانعتاقه من هيمنة قوى الظلام والاستبداد. إنها تسمية متقدمة في ذلك الوقت المبكر من كفاح اليمنيين من أجل التغيير بذرت بذرة الكفاح الصعب والمتواصل لكسر القيود التي تكبل اليمنيين وتمنع انتقالهم إلى العصر الحديث.

ويعلن شعر الزبيري هذا التمرد الأبي الفخور بالإقدام على تحدي الطغاة ومغادرة مملكة الظلام التي حولوها إلى سجن كبير خانق فيقول قصيدته الشهيرة:

خرجنا من السجن شم الأنوف	**كما تخرج الأسدُ من غابها**
نمر على شفرات السيوف	**ونأتي المنية من بابها**
ونأبى الحياة إذا دُنِّست	**بعسف الطغاة وإرهابها**
أنفنا الإقامة في أمة	**تداس بأقدام أربابها**
وسرنا لنفلت من خزيها	**كراما، ونخلص من عابها**

وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهت الحزب والضغوط التي مورست عليه ومنعته من مواصلة نشاطه مما دفع المترددين من المشاركين في قيادته للعودة إلى حظيرة النظام الذي هربوا لمقاومته، نجحت مثابرة الزبيري ونعمان المبدئية وتمسكهما بموقفهما الثابت في الالتفاف على قرار المنع، وتأسيس "الجمعية اليمانية الكبرى"، على غرار الجمعيات والاتحادات الجزئية (باسم مناطق بعينها) التي أسسها الهاربون من مملكة الظلام إلى مستعمرة عدن.

وقد كانت الفترة الفاصلة بين منع حزب الأحرار من النشاط في مستعمرة عدن وإنشاء "الجمعية اليمانية الكبرى" في حياة الزبيري مرحلة حزن وتأمل وشعور بالمرارة كتب فيها قصائد ذات منحى رومانسي لها ملامح فنية مميزة، منها قصيدة "الحنين إلى الوطن" التي يَرِدُ في نهايتها تاريخ غريب أو غير معتاد، يذكر الشهر الهجري والسنة الميلادية (26 جمادى الأولى 1965)، وهو خطأ وقع فيه من أعد ديوان شعر الزبيري للطبع، لأن هذا التاريخ يصادف السنة التي اغتيل فيها الزبيري، ومن حيث الشهر بعد وفاته بحوالي شهر. وهذا يرجِّح أن تاريخ القصيدة هو 26 جمادى الأولى سنة 1365هـ-/24 إبريل 1945م. وهي الفترة التي كان فيها الزبيري محبطا مغموما بسبب منع البريطانيين لحزب الأحرار من النشاط في مستعمرة عدن وما تلاه من خلاف بين الأحرار الهاربين إلى عدن وعودة بعضهم إلى حظيرة ولي العهد أحمد في تعز وتخليهم عن المشاركة في نشاط حركة الأحرار، واضطرار الزبيري إلى العمل مدرسا في إحدى المدارس الأهلية ليكسب قوت يومه. تكشف القصيدة معاناة الشاعر في هذه الأجواء المضطربة وإحباطه وبُعده عن أهله وأصحابه ومرابع صباه في قوله:

آه، ويـح الغريـب مـا ذا يقاسـي　　　مـن عـذاب النـوى ومـا ذا يعـاني

كشــفت لي في غــربتي ســوءة　　　الــدنيا ولاحــت هناتهــا لعيــاني

كلمــا نلـــت لـــذة أنـــذرتني　　　فتلفـــتُّ خيفـــة مـــن زمـــاني

وإذا رمـــت بســـمة راح مـــرأى　　　وطـــني فاســـتفزني ونهـــاني

لـيس في الأرض للغريـب سـوى **الدمع ولا في السماء غير الأماني**

حطميني يا ريح ثم انثري أشلاء **روحـــي في جـــو تلـــك الجنـــان**

اطفئـــي لـــوعتي بهـــا واغمســـي **روحـــيَ فيهـــا وبَـــرِّدي أحـــاني**

وصــلي جــيرتي وأهلــي وأحبــابي **وقصـــي علـــيهمُ مـــا دهـــاني**

ويتكرر هذا النفس الرومانسي في قصائد أخرى مثل قصيدة "حنين الطائر" التي يقول فيها:

أنا طـيرٌ حطـم المقـدور **عشـــــي وجنـــــاحي**

ورمـــــاني في نشـــــار **مـن دمـوعي ونـواحي**

وحطـــام مـــن بقـــايا **وطـن غـير صـحاحي**

لم أجـد سمعا فأفرغـت **أنيـــــني في جراحـــــي**

وتنبَّهـت علـى أنقـاض **عـــــشٍ مســـــــتباحِ**

لا أرى إلا ظلامـــــــا **في غـــدوي ورواحـــي**

وكذلك قصيدة "البلبل" التي منها:

بعثـــتَ الصـــبابة يا بلبـــلُ **كأنـــــك خالقهـــــا الأولُ**

غنـاؤك يمـلأ مجـرى دمـي **ويفعل في القلب ما يفعلُ**

سـكبتَ الحيـاة إلى مهجـتي **كأنـك فـوق الـربى منهـلُ**

ترتـل فـن الهـوى والصـبا **شـجيا وإن كنـت لا تعقـل**

وما الحب إلا جنون الحياة **وجانبهـا الغـامضُ المشـكِلُ**

نُكِبتَ بما نكب العاشقون **وحُمِّلتَ في الحب ما حُمِّلوا**

هـــدوؤك في طيـــه مرجـــلٌ **وريشـك مـن تحتـه مشـعل**

ومن الملاحظ أن الدكتور عبدالعزيز المقالح يقول في مقدمته لديوان الزبيري إن قصيدتي "حنين الطائر" و"البلبل" قد كتبتا في المرحلة التي تلت سقوط حركة 1948

الدستورية "وما تلاها من شعور بالإحباط وإحساس بالضياع"[66]. لكن هذا يخالف التاريخ المثبَت في آخر قصيدة "البلبل" وهو "15 ربيع الأول 16/1356 فبراير 1946"[67]. ويبدو أن القصيدتين قد كتبتا في فترة عدم اليقين الذي رافق حياة حركة الأحرار بقيادة الزبيري ونعمان في مستعمرة عدن، ومنع نشاطها واضطرار قادتها للعمل بالتدريس لكسب عيشهم وانشغالهم بالعمل الوظيفي الذي حصلوا عليه عن مواصلة الكفاح الذي تركوا أهلهم وزجوا بأنفسهم في مواجهة النظام في سبيله.

وقد كانت فترة صعبة ما لبثت أن انزاحت وعادت حركة الأحرار أقوى مما كانت عليه، وإذا بها في ظرف سنتين من تأسيس الجمعية اليمانية الكبرى تنجح في جذب الكثير من رجالات السلطة الاستبدادية إلى صف المعارضة بمن فيهم الأمير إبراهيم بن الإمام يحيى، والقيام بحركة دستورية أخرجت الطاغية، الذي هربوا من أجل معارضته، من الحياة، وأصبح الزبيري وزيرا للمعارف (للتربية والتعليم). لكن الحركة أخفقت خلال فترة قصيرة وخرج من صنعاء بأعجوبة قبيل سقوطها[68]، وبدأت من هنا رحلة عذاب جديدة، وكان مصير الكثير من المستنيرين أمثال أحمد المطاع وأحمد الحورش ومحيي الدين العنسي ومُحَّد المِسمَري وزيد الموشكي الإعدام بالسيف في مجزرة مروِّعة كانت كارثة على حركة الأحرار هدمت كل ما كانت قد بنته، وغيبت الكثير من رجالها في غياهب السجون وشتتت البقية، وصرفت عنهم الكثير من المتعاطفين، ونشرت القنوط واليأس من قدرتها على فعل أي شيء في أوساط الناس لدرجة جعلت الكثير من الناس يهرب ممن يقال عنه إنه دستوري كما يهرب من أي وباء خوفا من أن يلحق به الضرر.

---

[66] انظر مقدمة المقالح لديوان الزبيري، ص. 22.

[67] ديوان الزبيري، ص. 443.

[68] خرج، في آخر طائرة مصرية غادرت صنعاء، لمقابلة وفد الجامعة العربية الذي توقف في السعودية، وكانت مهمة الزبيري استعجال قدوم الوفد العربي للوساطة وتهدئة المعارك قبل أن تسقط صنعاء في أيدي القبائل المحاربة.

وقد عبر شعر الزبيري عن الفجيعة بهذه الكارثة فقال:

أنا راقبت دفن فرحتنا الكبرى وشــاهدت مصــرع الابتســامة

وإذا بالدســتور يصــرعه البغـي ويلقَــــى كصـــــانعيه حِمامـــــه

وإذا الشــعب بعــدما حطــم الأصفاد عنه لم نلق إلا حطامه

نحـــن شـــئنا قيامـــه لفخـــارٍ فـــأراه الطغـــاة هـــول القيامـــة

ويعبر عن حزنه وفجيعته بما حدث في مقطوعة شعرية يتوحد فيها بشعبه وبمأساته وتتفجر أحاسيسه ألما وعذوبة وأنينا وصدق مشاعر فيقول:

ما كنت أحسب أني سوف أبكيه وأن شــعري إلى الــدنيا ســينعيه

وأنــي ســوف أبقــى بعــد نكبتــه حيــا أمــزِّق روحــي في مراثيــهِ

فإن سلمت فإني قد وهبت لـه خلاصــة العمــر ماضــيه وآتيــهِ

ولـيس لي بعـده عمرٌ وإن بقيت أنفـــاس روحـــي تفديـــه وترثيـــهِ

فلســـت أســـكن إلا في مقـــابره ولســت أقتــات إلا مــن مآســيهِ

ومـــا أنا منـــهُ إلا زفـــرة بقيـــت تهـــيم بـــين رُفـــاةٍ مـــن بواقيـــه

إذا وقفـت جثـا دهـري بكلكلـهِ فـوقي وجـرَّت بيـافوخي دواهيـهِ

وإن مشـيت بـه ألقـت غياهبُـهُ علـى طريقـي شـباكا مـن أفاعيـهِ

تكتلـــت قـــوة الـــدنيا بأجمعهـــا في طعنـة مزَّقـت صـدري ومـا فيـهِ

هكذا يتحد بكوابيس وطنٍ يحيط به من كل الجوانب، يضغط على قلبه ودماغه بقوة، ويمد أذرعه لينتزع روحه ويلتف حوله كالأفاعي الماحقة، وطن تحول إلى مشانق ومقابر ومآسي، لا يترك له ثانية تملص من مأساته ومن رؤية رفاقه وهم يذبحون ويعذبون ويسحلون ويسجنون.

ولأول مرة منذ أن بدأ مسيرة الكفاح مترافقا مع زميله نعمان يجد نفسه وحيدا يفكر فيما عساه أن يفعل ومن أين يبدأ وما السبيل إلى لملمة الجراح وجمع الأشلاء

والشظايا للبدء بالخطوة الأولى الضرورية لإعادة المسيرة الكفاحية لحركة الأحرار المعارِضة من جديد. لم يداخله اليأس قط، ولم يفكر في أية لحظة بإلقاء السلاح والاستسلام للكارثة التي كانت أقسى مما تصور في أي وقت وأثقل مما تستطيع أعصابه الحساسة ومشاعره المرهفة أن تتحمل. لكنه لم يجبن ولم يهرب ولم يتخل عن شعبه حتى وهو مجرد من كل عون، مطاردا في كل أرض. ووسط التيه وإغراء اليأس والقنوط يتمالك الشاعر نفسه كقائد وطني مؤمن بقضية شعبه، وينسى كل شيء ما عدا شعبه المعذب، ورفاقه الذين أعطوا أغلى ما يمكن أن يقدم الإنسان في سبيل وطنه. يتلمس الطريق الذي ينبغي أن يسلك، ويبدأ الخطى كرضيع يحاول أن ينصب قامته ويخطو خطواته الأولى على طريق الحياة. يتخطى الزبيري ركام الظلام والدموع والأنَّات، فيقول:

مـــن وراء الأكذوبـــة المعبـــودة	**والتهـــاني الذليلـــة الرعديـــدة**
والمحـــاذير والمخـــاوف تغتـــال	**الضـحايا المفجوعـة المفـؤودة**
والقنوط الوحشي يفترس الأحرار	**في ظلمـــة الســـجون البعيـــدة**
ألمح الشـعب قابعا يـدرس الثورة	**كيمـــا يأتي بأخـــرى جديـــدة**

ويجد الزبيري نفسه وهو يعاني مرارة الكارثة لاجئا مطرودا من كل أرض عربية، مشرَّدا، يحاول أن يجد له ملاذا في باكستان التي لم يمض على استقلالها سوى سنة واحدة[69]. لكنه وجد نفسه هناك مطاردا بطلب السلطات اليمنية تسليمه كمجرم، كما وجد نفسه، وهو الشاعر الذي يقدمه شعره في كل مكان ينزل فيه، غريبا يفصله عن البيئة التي قَدِم إليها حاجز اللغة، ينطبق عليه قول أبي الطيب المتنبي:

---

[69] استقلت الهند وباكستان سنة 1947 بعد حرب دامية مروعة بين المسلمين والهندوس الذين لم يحاربوا الاستعمار البريطاني طوال احتلاله لبلادهم خلال أكثر من ثلاثمائة سنة، لكنهم اقتتلوا فيما بينهم في مذبحة مروِّعة تركت بصماتها في العلاقات الهندية الباكستانية
حتى الآن.

ولكــن الفــتى العــربي فيهــا غريب الوجه واليد واللسانِ

وكان أول نجاح له في باكستان التملص من طلب تسليمه باعتباره ممن شاركوا في ثورة الدستور. ويحاول بصعوبة شق طريقه والعثور على وسيلة للبقاء والنشاط والمعارضة المستحيلة وحيدا في هذه البيئة الغريبة عليه. وكان أصعب ما واجه أن قضيته، قضية اليمن، فيها مجهولة، بعيدة عن هموم الباكستانيين المشغولين بصراعهم مع جارتهم الهند وبالفرز الطائفي العنيف الذي نشأ عن الفصل المفتعل لباكستان إسلامية تريد أن تجتذب المسلمين من كل بقاع الهند إلى كيان موزع بين شرق الهند (بنجلاديش الحالية) وغربها (باكستان الحالية) وبينهما مسافات شاسعة من جهة، وهند ذات غالبية هندوسية في أغلب مساحة شبه القارة الهندية من جهة أخرى. وأحس الزبيري في باكستان، في بيئة على الرغم من كونها إسلامية، بغربة داخل الغربة، غربة اللغة وغربة الوجود في بلد لا يعرف عن اليمن ومأساتها شيئا ولا يهتم بها.

وكان رفاقه الأحرار في اليمن يساقون إلى الإعدام وتسحب جثثهم في الطرقات، وبعضهم معذّبون في ظلمات السجون أو مشردون يبحثون عن مأوى فيقول:

خـــذلتني حـــتى المقـــابر لمـــا وجَـدَتني في غمـرة الهـول وحـدي

أتـــوقَّى مـــن المصـــارع كـــيلا يتنــاهى إلــيكمُ الخطــبُ بعــدي

يطلــب الهــم للحريـق وللتعـذيب مــني أضــعاف لحمــي وجلــدي

ويلتقي بشخصية عربية ساعدته على تحمل مشاق الحياة، فيكتب إليه قصيدة لا يَنسَى فيها قضيته التي تستولي على شغاف قلبه وكل مشاعره في كل مكان وفي كل حين:

أنت الذي حطمت أغلالي وكنت بها رهين
أطلقت من روحي شهابا في سماء الثائرين

وسلَلتَني غَضَبا تذل له رقاب الظالمين
سددتني سهما إلى أقصى مجال الطامحين

أنا شمعة كدحت أشعتها وراء الكادحين
مدَّت بشعلتها إلى أحداقهم مد المعين

تكوي وتطفئها دموع البؤس من حين لحين
يشكو سناها جهل عميان وغدر المبصرين
روحي وإن حلقتُ عبر الكون في وطني سجين

وكان مؤمنا بشعره وبقدرة هذا الشعر، حتى وهو لاجئ في باكستان، على هدِّ مملكة الطغيان وبناء عالم سعيد يخرج اليمنيين من مأساتهم وبؤسهم. ولعل هذا الإيمان الأسطوري مصدر الاطمئنان الروحي لديه حتى في أحلك الظروف بأنه حتى لو لم يبن الدولة الحديثة التي يكافح من أجل قيامها، يستطيع أن يبني لوطنه مملكة الشعر والأدب. قال:

قوضتُ بالقلم الجبار مملكةً — كانت بأقطابها مشدودة الطُنُبِ
فإن فشلتُ ولم أنهض بدولتنا — الكبرى لشعبي، ولم أظفر بمطَّلبي
فسوف أبني له مجدا من الأدبِ — العالي، يبوِّئه في أرفع الرتب

ويصف لحظات شعرية يمتزج فيها صفو التفكير بالحلم الجميل بالأمل العظيم وهو في غياهب الغربة ومعاناة التيه، في مقطوعة شعرية بديعه تضج بالحركة والتوتر والخلق والإبداع، تهب فيها رياح الشعر وتتراقص في عينيَّ الشاعر وفي مخيِّلته، تقترب

من أصابعه وتبتعد في الوقت نفسه، تهجم وتتملص، تقبل وتدبر، تنصرف حانقة وتعود فرِحة مسرورة، فيمسك بها ويبني بها مصائر فردية وجماعية، ويهجم بها ويدافع، ويتقي الأعداء والخصوم، ويوزع البشرى للمنهكين المتعبين ويفتح لهم أبواب السماوات والأرض كي ينعموا بالسعادة والسلام والعدل والأمان فيقول:

أحــس بــريح كــريح الجنــان — تهــب بأعمــاق روحــي هبــوبا

وأشـــعر أن القـــوافي تـــدب — كالنمــل مــلء دمــاغي دبيبــا

فهـــذا يـــزوغ وهـــذا يـــروغ — وذلــك يــذعن لي مســـتجيبا

وذاك يفـــــــارقني يائســـــــا — وهـــذا يواعـــدني أن يـــؤوبا

ومنهــا أصــوغ حيــاة الشــعوب — وأذكِـي علـى قاتليهـا الحـروبا

ومنهـــــــا أوزع للعـــــــالمين — طهـرا وأنشـر في الأرض طيبـا

ومنهـــا أســـودُ ومنهـــا أجـــودُ — ومنهــا أقــارع عــني الخطــوبا

ومنهـــا أصـــوِّر هـــذا الوجـــود — وأكشـف منـه البـديع العجيبـا

وما أن تقوم ثورة 23 يوليو 1952 في مصر حتى يسارع إلى القاهرة التي كانت تستعد لإطلاق دعوة القومية العربية وانطلاق حركة التحرر العربية بقيادة الزعيم العربي جمال عبدالناصر. وفي مصر العروبة، التي يعرفها منذ أن كان طالبا فيها في نهاية الثلاثينات ومطلع الأربعينات وبدأ فيها تعليمه في دار العلوم وحيث بدأ شعره يحلق ويُعرَف عربيا، أعاد تكوين حركة الأحرار المعارِضة، وأنعش أمال الحالمين بالتغيير من جديد بتجاوز كارثة سحق الحركة الدستورية. وكانت هذه المرحلة أيضا فرصة لإعادة النظر في أوهام الماضي بالاستعانة ببعض الدول العربية وبالجامعة العربية في مساندة كفاح شعب اليمن من أجل التغيير. فقد اكتشف الأحرار أن ذلك وهم وسذاجة سياسية كانت من أسباب هزيمة مشروع التغيير. يقول الزبيري إن الأحرار كانون مؤمنين بأن الدول العربية ستساندهم ولم يكن ذلك تكتيكا سياسيا بل إيمانا وقناعات

حقيقية. فاكتشفوا بالتجربة أن ذلك كان أملا براقا ومن قبيل المستحيل[70]. ومع ذلك يرى أبو بكر السقاف أن "الإيمان الزبيري بالوحدة العربية وجهه المحلي. فقد كان في كل نصرٍ يحرزه الوطنيون العرب في أي قطر عربي بشرى بانتصار الثورة في اليمن. وكان الإمام يرى ذلك نذيرا باليوم الأسود. إن إدراك الطرفين (الأحرار – الإمام) لأهمية العامل العربي في سير الأحداث باليمن جعل كلا منهما يسابق الآخر إلى كسب ود الأقطار العربية، وكلاهما حاولا دائما ملء الفراغ السياسي الذي نجم عن إفلاس الإمامة كنظام عتيق في طريق الانقراض". فانضم الإمام "إلى اتحاد الدول العربية على إثر الوحدة المصرية السورية تارة، وإرسال نجله في زيارات ودية" ليغلق باب التقاء الأحرار بمصر عبدالناصر[71].

لكن إحساسا لازم الزبيري بتميز قضية اليمن وخصوصيتها، وهو ما جعله يتجنب الاقتراب الزائد من التيارات الفكرية القومية واليسارية، لأنه اعتبر الاقتراب منها هجرا لأرضه وتحليقا في سماء غريبة، وإن لم يكن هذا الشعور بخصوصية القضية اليمنية تخليا عن بعدها القومي. وانتهى إلى الرفض التام للاعتماد على الأشقاء العرب، وعبر صراحة عن معارضته لأن تصنع مصر ثورة تخلص اليمن من الطغيان أو تساعد الأحرار للقيام بثورة، لأن ذلك يعني أن يُدمَغَ الشعب بوصمة في جبينه إلى الأبد، مضيفا أن "الشعب هو الذي ينشد الحرية، وهو الذي يجب عليه أن يدفع ثمنها كاملا"[72].

كانت حياة الزبيري من أولها إلى آخرها قصيدة حب وكفاح مكرسة للعمل في سبيل تحرير شعب اليمن من الظلم والاستبداد. وكان شعره كله أيضا قصيدة واحدة مسخرة للغرض نفسه، وكانت الوحدة والاندماج بينه وبين شعره وقضية شعبه من

---

[70] محمد محمود الزبيري، ثورة الشعر، ص. 102 . 104.

[71] أبو بكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية، ص. 43 . 44.

[72] محمد محمود الزبيري، ثورة الشعر، ص. 106.

الوضوح بحيث لا تحتاج إلى عناء لاكتشافها. كان حبه لشعبه والكفاح من أجل تحريره من الظلم والاستبداد الغرض الأوحد لشعره. لم يكن لشعره من أغراض أخرى، فلم يقترب من وصف الطبيعة ولا من شعر الحب والمرأة. وحين اقترب في القليل النادر من الرثاء كان قريبا من السياسة أو لتذكُّر صديق، وحين تناول المدح في مرات قليلة كان بغرض تمهيد الطريق لكفاحه الوطني وللمطالبة بالإصلاح. فجعل هذه الأغراض الجزئية روافد لغرضه الأساس، الكفاح لتحرير شعبه والحث على التغيير وعلى خروج اليمن من مأساتها. ولذلك انتشر شعره بين اليمنيين وجسد الدعوة إلى الثورة وبشر بها ونشر أفكارها، وهذا ما جعل شعره في تلك الفترة أكثر انتشارا في أيدي القراء وبخاصة الشباب المستنير الذين تعلموا أبجديات الثورة والتغيير من قصائده.

ويُلاحظ أن الزبيري كتب شعرا كثيرا حين كان بلا مسئوليات تنظيمية سياسية أو كان قليل الانشغال بقيادة حركة الأحرار المعارِضة. فقد كتب الكثير من شعره في مرحلة تعز حين كان ما يزال يبحث لنفسه عن مكان للعمل في سبيل الإصلاح، ثم بعد الهرب إلى عدن وتأسيس حزب الأحرار، ثم بعد مصرع الابتسامة بسقوط الحركة الدستورية وإعدام الكثير من رفاقه الأحرار وسجن البقية أو تشريدهم، وكذلك عندما كان لاجئا مطاردا في باكستان. لكنه كتب القليل من الشعر خلال الفترة التي تحمَّل فيها مسئولية إعادة إحياء حركة المعارضة وقيادتها وحتى قيام الجمهورية. ولعل هذا أحد أسباب قوله "فروحانيتي جنى عليها الأدب، وأدبي عوقب بالسياسة، فزجت به في المعارك المريرة الطويلة وانتقمت منه شر انتقام"[73].

وقد فاجأ قيام الجمهورية على أيدي مجموعة من الضباط الشباب حتى أكثر المعارضين تفاؤلا. لم تتوقع المعارضة هذا التغيير ولم تستعد له، ولكنها التحقت به ولم يكن أمامها سوى تأييده. إذ لم يأتِ الضباط الذين أحدثوا التغيير من حركة الأحرار المعارِضة وإن كانوا من ثمار عملها وكفاحها الطويل ومتأثرين بأفكارها وبمطبوعاتها،

---

[73] محمد محمود الزبيري، ثورة الشعر، ص. 10.

وبخاصة بأشعار الزبيري. وقد عبروا عن اعترافهم بدوره واحترامهم لنضاله من خلال تعيينه وزيرا للتربية والتعليم في أول تشكيلة حكومية جمهورية. لكن قيادة حركة الأحرار وجدت نفسها بمرور الأيام في موقف المعارضة الجمهورية للضباط الذين قاموا بالثورة وتولوا قيادة معركة الدفاع عن النظام الجمهوري الجديد. وفرض اتساع المعارك وضخامة التحديات التي واجهتها الجمهورية في كل المجالات الاعتماد على مزيد من القوات المصرية في المعارك وعلى المساعدة المصرية لإحداث تغييرات سريعة لتحديث الإدارة والاقتصاد وخدمات التعليم والصحة وغيرها. وقَدِمت جماهير جديدة من عدن ومن الخارج والداخل وكان لها مطالبها وشعاراتها ومؤثراتها الثقافية. وبدأت تتبرعم ثقافة جديدة وأفكار جديدة وشعارات جديدة بفعل الانفتاح على الخارج وكسر الحواجز وانطلاق الأحلام والتطلعات الجمهورية الجديدة. وسرعان ما وجدت قيادة حركة الأحرار نفسها في موقف المصنَّف بأنها تقليدية، واتُّهِمت بأنها لم تكن من المناصرين للتغيير الجمهوري، وأن مطالبها تقتصر على القيام بإصلاح النظام وليس تغييره.

وهكذا وجد الزبيري نفسه لا يتفق مع القيادة الجمهورية الجديدة في نظرته لسير الأمور وقيادة الحرب والسعي لتحقيق السلام حتى وقد كانت القيادة الجمهورية توكِل إليه مهمة تمثيل الجانب الجمهوري في كل محاولة للتفاوض من أجل تحقيق السلام، كما حدث في لقاء إركويت في السودان للبحث عن سبل للاتفاق بين اليمنيين على إيقاف الحرب وتوقُّف الدعم الخارجي للملكيين وانسحاب القوات المصرية من اليمن. وفي الأخير قام في شهر مارس 1965 بمخاطرة كبيرة ناتجة عن قناعة راسخة لديه بأن الجمهورية والسلام لن يتحققا إلا بكسب القبائل المحاربة إلى صفهما، وأن البقاء في المدن والاكتفاء بالعمل في أوساط السكان المؤيدين للجمهورية لن يكفي لتحقيق الانتصار. ولذلك خرج إلى قبائل المنطقة الشمالية الشرقية من الجمهورية للعمل في سبيل السلام. كان واثقا من أن تاريخه يشفع له، وأن شعره

يسبقه، وأن القبائل المحاربة ستتفهم دعوته وتلتحق بها وبذلك يتحقق السلام وتتوقف الحرب وتخرج القوات المصرية من اليمن لأن الحاجة لوجودها ستنتفي باتفاق اليمنيين فيما بينهم على أسلوب يرتضونه لحكم بلادهم. وقد أثبتت التجربة أن محاولته النبيلة لإيقاف الحرب وتحقيق السلام قد كانت مغامرة غير محسوبة لم تأخذ في الاعتبار التغييرات التي طرأت على سوق الحرب والإقبال عليه في ظل بطء التغييرات الاقتصادية والاجتماعية بسبب الحرب الشرسة التي شُنَّت على الجمهورية.

وأخيرا تعرض للاغتيال في وسط القبائل التي كافح من أجل تحسين ظروف حياتها وتعليمها وإشراكها في الحياة العامة. وكانت النهاية قاسية على أيدي جلادين لا ضمائر لهم ولا يكترثون بحياة إنسان بذل حياته كلها من أجل تغيير أوضاع بلادهم وإنصاف المظلومين فيها ومنحهم كل الفرص لصنع حياة أفضل لهم ولأبنائهم من بعدهم، وإخراجهم من ليل الفقر والجهل والبؤس إلى حياة تليق بالبشر في العصر الحديث. قليلون هم الذين يملكون فضيلة انسجام القول والعمل، وقد كان الزبيري في مقدمتهم. وقد دفع حياته ثمنا لمحاولته اجتراح معجزة جعل القبائل المحاربة صانعة سلام واستقرار[74]. ومع أنه أخفق فيما أراد أن يحقق في لحظاته الأخيرة، فإننا لا نملك سوى الانحناء أمام نبل المحاولة وفداحة التضحية. فكان دمه المراق على أرض اليمن آخر قصيدة مأساوية عبرت عن توحُّد شعره ونثره وحياته كلها وأحلامه وحبه لبلاده وكفاحه من أجلها:

بحثتُ عن هبةٍ أحبوك يا وطني فلم أجد لك إلا قلبيَ الدامي

---

[74] يذكر الشيخ الأحمر في مذكراته أن الملكيين أعدوا للزبيري كمينا في برط وقتلوه، وأن القبائل قبضوا على القتلة ولم يسلموهم للحكومة في صنعاء بل إلى الشيخ الأحمر الذي سجنهم في خَمِر. واعترف القتلة في التحقيق أنهم مرسلون من محمد بن الحسين حميدالدين، الذي وصل إليهم رسول منه برسالة ومعها كمية من الذهب. "وتم القبض على الرسول ومعه الرسالة والذهب، غير أن القتلة فروا من قلعة مهلهل (في خمِر) ومعهم بعض حراس القلعة الذين أخرجوهم" (مذكرات الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر، ص 99 . 100)

وهكذا يمكن القول إن شعر الزبيري قد انتقل بالشعر في اليمن من عصر إلى عصر، ومن مرحلة إلى أخرى. كان الشعر قبله نظما محنطا تقليديا وسطحيا، لا روح فيه ولا حياة ولا نبض. وكانت القصائد التقليدية سردا تقريريا لحوادث ولأخبار وعبارات جوفاء، ومجاملات فارغة، فيها الكثير من الخواء ومن الافتعال. فجاء الزبير وأوجد معجزة تجديد اللغة والمشاعر والمضامين، ودمج الشعر والحياة وقضية الإنسان اليمني في رحيق يملأ الوجدان ويعصف بالأحاسيس ويجدد الحياة كلها. ومع أن موهبته الشعرية كانت عظيمة، فإن ما أعطاها الفرصة لتحلِّق في سماوات الشعر والتعبير الحالم هو هذا الدمج الذي نجح الزبيري في اجتراحه بين الشعر وحياة الشاعر والقضية التي نذر نفسه لها، فكانت المعجزة الشعرية الكفاحية الجميلة التي جعلت الزبيري ساحر الشعر وحولت الشعر إلى وسيلته للسباحة في سماوات الخيال والإبداع وجمال الروح والمعنى، والصعود إلى ذرى لم يبلغها أي شاعر يمني معاصر له.

مأساة واق الواق

لم يكن الزبيري شاعرا مناضلا فحسب، بل كان صحفيا وكاتبا ألَّف الكثير من النصوص. لكن الملحمة التي كتبها بعنوان "مأساة واق الواق" تجربة خاصة في الكتابة عن القضية نفسها التي نذر لها شعره وحياته كلها. وهي ملحمة مهمة لأكثر من سبب، فهي تتعامل مع واقع العزلة التي كانت مفروضة على اليمن بطريقة السرد الروائي والخيال، وتصوِّر واقعا أغرب من الخيال، بل لو أن روائيا غرائبيا أراد أن يتخيل عالما غريبا لما استطاع ابتكار ما هو أغرب مما تعيشه "مملكة واق الواق" التي لا ينتبه لوجودها أحد ولا يتصور أحد أنها موجوده في عالمه وعصره، ويتجاهلها الجميع، وهو ما يفرض على الراوية، العزي محمود (الذي ليس سوى مُحَّد الزبيري نفسه من حيث أن من المعتاد في صنعاء تسمية مُحَّد بالعزي) تحدي إثبات أن بلده موجود حقيقة وليس من بنات خياله الشعري الحالم. كما تعبر الملحمة عن الأوضاع التي كان الأحرار يعملون فيها لتغيير واقع صعب يهيمن على بلادهم، ويكافحون لجعل العالم من حولهم يتفهم قضيتهم ويتعاطف معها. وفي الوقت نفسه، تعكس الملحمة مرحلة من مراحل الكفاح في سبيل التغيير حين كان العمل جاريا لكسب القبائل المحاربة إلى صف التغيير واجتذابها من الصفوف المؤيدة للطغيان إلى مسيرة البناء الجديد لوطن يحتاج إلى جهود جميع أبنائه ليبني حياته الجديدة الكريمة.

يستوحي الزبيري في "مأساة واق الواق" المدينة الفاضلة وقصة الإسراء والمعراج في التراث الإسلامي ليرسم بالكلمات قصة رحلة يقوم بها في الحلم إلى الجنة يلتقي خلالها بثلة من الشهداء الذي ضحوا بحياتهم من أجل اليمن. تبدأ الرحلة في شهر مبارك، هو شهر رمضان، لأنه شهر تخيم عليه أجواء روحانية وتحل فيه ليلة القدر التي تُفتَحُ فيها أبواب السماء لأهل الأرض "ليلجأ إليها المضيعون والمروَّعون، وتنفتح فيها أرواح البشر للالتقاء بعالم الروح في الملأ الأعلى". ليلة يحلم بملاقاتها الجميع ويتمنى

الجميع أن تتذكرهم وتستجيب لرجائهم، لكنها تباغتهم وتأتي فجأة في وقت لا يعرفون متى حل ولا متى غادر حاملا معه هداياه ووعوده وأحلامه.

يحشد الزبيري للملحمة شخصيات أغلبها واقعية عاشت وكافحت في سبيل التغيير وضحت بحياتها من أجله. يعرف الكثير منهم شخصيا وعمل معهم في حركة الأحرار الدستوريين وسجنوا وعذبوا وأعدموا على مذبح الحرية. يستدعيهم في مشاهد الملحمة في عالم الروح بعد أن اعتقد الطغيان أنه أخفاهم إلى الأبد وتخلص من إزعاجهم لمملكته، لكنهم يعودون في صفحات الملحمة أكثر نشاطا مما كانوا وأصلب عودا، بإيمان لا يتزعزع بالتغيير وإنصاف المظلومين وتحرير المسجونين وتوفير مقومات الحياة الكريمة للمتعبين. يزيدهم الغياب الذي اعتقد الطغيان أنه قد فرضه عليهم حضورا وفعالية في العمل لتحرير شعبهم، يجتمعون بحرية دون أن يستطيع بطش الطغيان أن ينالهم، ويناقشون بجرأة وحماسة لتحقيق ما عجز الأحياء عن تحقيقه.

تبدأ الحكاية بذهاب الراوي، العزي محمود، حزينا إلى الأزهر، فيرى قرب المحراب مجموعة من علمائه يتناقشون في أمور الدنيا والدين. يتناولون أحزان الأرض في كل مكان دون أن يشيروا ولو مجرد إشارة إلى معاناة وطنه المعذَّب أكثر من أي بلد آخر في العالم. يتقدم منهم ويصافحهم ويعرفهم بنفسه وببلده. وحين ذكر لهم أنه من "مملكة واق الواق" استغربوا واندهشوا واحتاروا وظنوه يمزح، لكنه أكد لهم أنه يتحدث عن بلد حقيقي واقعي إلا أنه ضائع ويتيم. واصلوا إنكار وجود بلد على الأرض اسمه "واق الواق". ويتواصل الحوار على هذا النحو بين تأكيد العزي محمود على وجود بلده وإنكارهم أو شكهم في صدق ما يقول، خاصة وأنه يتحدث عن وطنه بأسلوب شاعري روحاني يوحي بأنه يحلق في الخيال والأوهام. وحين سألوه لما ذا لم يكتشف الجغرافيون المحدثون هذا البلد وقد اكتشفوا كل خبايا الأرض، ولما ذا لم يذكروا اسم هذا البلد في كل ما ينشرون من مطبوعات جغرافية، رد العزي محمود عليهم بأنه قد لا يكون للقوى العظمى مصلحة في اكتشاف وطنه. ولأنه في مصر ولم يجد غيرها ملاذا

يأويه ويسمح له بمواصلة كفاحه من أجل شعبه، ولأنه أيضا كان يؤيد قيادة جمال عبدالناصر لحركة التحرر العربية، التمس العذر لمصر قائلا إنها لا تستطيع أن تتحرك لمساعدة وطنه لأنها تحتاج إلى إجماع الدول العربية.

ولكي يؤكد لهم حقيقة أن وطنه موجود على وجه الأرض يقترح عليهم تنظيم جلسة لتحضير الأرواح في الليلة المباركة من شهر رمضان في الجامع الأزهر تستطيع كشف أسرار "واق الواق" بعد أن عجزت جميع الطرق المعقولة عن الإقناع بوجود هذا البلد المجهول. ويرفض علماء الأزهر في البداية اللجوء إلى تحضير الأرواح ويعتبرونه ضربا من الخرافات ولكنهم بعد نقاش بين قبول ورفض يقبلون اللجوء إلى التنويم المغناطيسي لوضع نهاية لهذا الجدل والوصول إلى معرفة حقيقة "واق الواق".

وينتقل الراوي إلى مسجد الحسين في القاهرة وينقل صورة مشهد مسرحي يجري فيه، يفيض بالتفاصيل النابضة بالحركة، بين من يصلُّون، ومن يرتلون القرآن، ومن ينشدون الأناشيد الدينية ويرقصون، وجماعات في المنعطفات والقهوات المجاورة يدخنون الشيشة ويتناولون الشاي ويتسامرون. يصور مشهدا متدفقا بتفاصيل الحياة. وقبل بدء جلسة التنويم المغناطيسي اقترحوا أن يكون العزي محمود الوسيط الذي يُستَخدَم، فقَبِل المهمة بفرح قائلا "لا أحَبُّ إلي من أن أذهب بروحي إلى أجواء بلدي الحبيبة وأنقل لكم بأمانة وإخلاص كل ما أشهده هناك وأراه"[75].

وأحس الراوية في بداية رحلة الحلم كأنه ميت، تحاول روحه أن تنطق وأن تتحرك دون جدوى، إلى أن استجابت روحه للجاذبية السحرية فبدأ لسانه المضطرب المتلجلج النطق ليكشف للعالم السادر عن اليمن، هذا البلد العجيب المجهول المغيَّب، عبثية وظلم الاتجاه نحو البحوث الكونية بينما يوجد على الأرض بلد لا يزال مجهولا ينصرف عنه الجميع، ولا يأبهون بمصيره، ويتعامون عن مأساته.

---

[75] محمد محمود الزبيري، مأساة واق الواق، ص. 35 . 36.

كان الراوية يتحرَّق شوقا للقاء بلده المبعَد عنه. وحين أُعطِي إشارة بدء الرحلة انطلق بحرية، طائرا كالنسيم في عالم الروح، في عوالم مجهولة ساحرة. أحس بحضور روحاني للملائكة يعبرون بين النجوم ويثيرون الحيرة والخوف والفزع. حاول أن يفر خوفا من أن تتحطم النجوم فوق رأسه فانقض نحوه ملاك عملاق جسده من ضوء الشمس يسأله عما يريد. وانطلق الملك نحو المجهول. وتعلق الراوية بريشة من ريشه ليحمله معه حتى سمع صوت حورية جميل يغني بيتين من شعره. فإذا به صوت لميس ابنة أسعد الكامل التي أخبرت الملاك أن الراوية من أحفادها. وحين سألها إن كانت تعرف "واق الواق" تحسَّرت قائلة "هو البلد المضطهد اليتيم الذي أجمع العالم على دفنه حيا، فأقسمت أرواح الشهداء ودماؤهم ألا يحرر الشعب إلا نفسه أو ينقرض"[76]. ويفرح أنها تعرف شعره لكنه يحزن لأنه كان ينبغي عليه إما أن ينجح أولا في تحرير بلاده أو أن يأتي إليها في قوافل أرواح الشهداء.

ويخبرها أن ضياع وطنه يعذبه ويؤرقه. وروى لها قصة رحلته الروحية إليها. وتسأله: "ماذا يجدي وطنك أن يقتنع بوجوده حفنة من علماء الأزهر أو ملايين من سواهم؟". وبعد نقاش معها وممانعة قبِلت أن تضعه تحت سلطتها الروحية وتسير به إلى رحاب أوسع. وفي المرحلة الثانية من الصفاء الروحي تشكَّل وفد لاستقباله مكون من رفاقه في الحركة الدستورية الذين فقدوا حياتهم عند فشلها، وهم عبدالوهاب نعمان، وزيد الموشكي ومُحَّد صالح المسمري وجمال جميل. أما في المرحلة الثالثة من الإبحار في سماء الروح فقد التقى بروح أربعة من رجال التنوير العربي الإسلامي هم جمال الدين الأفغاني ومُحَّد عبده وعبدالرحمن الكواكبي وفُضِيل الورتلاني، زميله في الهرب من صنعاء قبل سقوط الحركة الدستورية. وبعد نقاش مع وفد الاستقبال طلبوا من السلطات العليا في الجنة أن تأذن للراوية بزيارة الجنة، فقبلت بشرط عدم الخوض

---

[76] نفسه، ص. 48 . 49.

في السياسة. والغريب أنه حتى السلطات العليا في الجنة لم تسمع بشعب "واق الواق". لكن الراوية يرفض هذا الشرط لأنه يعني التخلي عن رسالته.

وقد بدأ سرد قصة وطنه ومعاناته. وظهور حركة الاستنارة والمعارضة حتى قامت الحركة الدستورية في 1948 التي سقطت، وحركة 1955، وانتفاضة 1959، وانتقل إلى الحديث عن نكبة المهاجرين المشردين في أصقاع الأرض، وانشطار أرض واق الواق إلى شطرين، شطر تسومه مملكة الظلام سوء العذاب ونصف مستعمر متخلف. وبينما الراوية مستغرق في سرد تقريره هبط ملك يطلبه من جهنم فأخافه وأرعبه، ولكنه اكتشف أنه جاء يستدعيه ليشاهد الزبانية يعذبون بأهوال من العذاب المرعب الطاغية الجلاد وأنصاره ومعاونيه ومخبريه، فتنتاب الراوية الخشية من أن يركن الشعب إلى تعذيب الطغاة في الآخرة فلا يكافح من أجل تحرير نفسه من الظلم والطغيان. ويشاهد أنصار الطغاة يتحسرون لأنهم لم يستجيبوا لدعوة الأحرار لتحريرهم من العبودية والخضوع للطغاة.

ورأى جماعة من علماء السوء تُعذَّب بسبب أكلهم الرشاوى، وشاهد الأئمة الظالمين يعذبون لا ينفعهم ملكهم ولا سعة ممتلكاتهم وسلطاتهم، تشهد عليهم أعضاؤهم وأشلاؤهم. ورأى أشد العذاب ينزل بالسياف الذي كان الطاغية يأمره بقطع الرؤوس فينفذ، وتحت وطأة عذاب جهنم يصرخ الجلاد قائلا إنه لم يفعل سوى تنفيذ الأوامر. ويشاهد الفأر الذي تسبب في هدم سد مارب يشكو من أن الذين تتالوا على حكم مارب واصلوا هدم السد، مع أنه كان بإمكانهم ترميمه وأحياء حضارة سبا وغيرها من الحضارات اليمنية القديمة، وبذلك يتبرأ الفأر من خراب السد ويحمِّل الحاكمين مسئولية الخراب. ويرى عماد الطغيان الذي ما إن رأى الراوية حتى صاح يطلب معاونيه في الدنيا ويأمرهم أن يقطعوا رأسه. فيُبيِّن له الراوية أن الأحرار أرادوا تحريره من الظلم وتجنيبه العذاب في الآخرة لكنه لم يستمع لصوت العقل والحكمة. ثم يمضي الراوية في حوار طويل معه يشرح أسباب الثورة عليه.

ويعود العزي محمود من جهنم والزبانية ينتظرونه ويقلقون لتأخره. وكان زملاؤه ينتظرونه أيضا. وفي مشارف الجنة وجد لجنة الاستقبال في انتظاره.

وتحرك الجميع لزيارة الجنة وحذروه من رفض الخروج من الجنة بعد التمتع بنعيمها. فأجابهم ببيت من شعر أحمد شوقي يقول:

وطني لو شُغِلتُ بالخلد عنهُ نازعتني إليه بالخلد نفسي

امتطى ظهر جواد من جياد الجنة وسار ومن معه كل على جواد إلى الشهيد جغمان، ويشكو حميد بن حسين الأحمر من تخلي همدان عنه. وتأتي عجوز أم لثلاثة شهداء من بيت أبي دنيا ومعها أبناؤها الثلاثة.

ويشاهد قصر غمدان وقد أعيد بناؤه في الجنة لينزل الشهداء فيه ويقارن بين حاله في الجنة وواقعه في واق الواق حيث تحول إلى سجن رهيب للأحرار. وتحشد الملحمة سيف بن ذي يزن والخليفة الثالث عثمان بن عفان وعبدالمطلب بن هاشم، وأمية بن أبي الصلت، وأسعد تُبَّع وتجمعهم في قصر غمدان. ويستغرب سيف بن ذي يزن ما حدث لليمن من بعده. ويحس بأنه ما يزال يشعر بشيء من الارتباط والمسئولية عن الشعب. لأن سيادة فلسفة الخراب والدمار من بعده جعلت الحال ينقلب من الحضارة القديمة إلى الأسوأ. وتعيد الملحمة انتظار اليمنيين العون من الجامعة العربية لتحريرهم من الطغيان إلى العقدة اليزنية التي استعان فيها سيف بن ذي يزن بالفرس لتحرير بلاده من الاحتلال الحبشي. ويعترض سيف على المساواة بين عصره وواقع العصر الحديث، مؤكدا أن الأمر مختلف. ويؤكد أنهم في عصره قد حرروا أرضهم ولم يحصلوا من الخارج سوى على مساعدة بسيطة.

وتنعقد محكمة حب برئاسة أسماء بنت أبي بكر. وبعد سماع المرافعات والحجج تقرر المحكمة أن للسيدة أم الشهداء الثلاثة من آل أبي دنيا الحق في أن تتزوج من تشاء. لكنها اشترطت ذهاب عهد الطغيان الذي قتل أبناءها قبل أن تقرر.

ويلتقي الراوية في الجنة الإمام الهادي في خولان التي آزرته، فيحتج حميد الأحمر ويقول إن خولان السبب فيما تعانيه اليمن. لكن الإمام الهادي يقول إنه المسئول وحده عما حدث ويتبرأ من الطغاة وينكر أنهم منه ويغضب من الحديث عن سلالته. ويشرح الراوية للهادي معنى حركة الأحرار. فقال الهادي إنه يعتز بهم. وحدث الصلح بين مراد وخولان بسبب الخلاف حول قتل القردعي في بلاد خولان. ووعدت خولان بتصحيح موقفها عن طريق العمل لوضع نهاية للظلم والفساد والطغيان. واشتكى حميد مما فعله أشراف الجوف به لأنه وضع حياته في أيديهم وتعهدوا له بالحماية لكنهم سلموه للطاغية. ودافع الهادي عن القبائل قائلا إنهم ينبوع العروبة. وتنازل حميد عن حقه مقابل أن يقف الأشراف مع القبائل الأخرى في التصدي للطغيان.

ويتحول اللقاء إلى مؤتمر لمحاكمة الطغيان ووضع الحلول للمشاكل التي تواجه بلادهم. لكنهم قبل المؤتمر يطوفون بالمقابر المزخرفة للشهداء وقبر صنعاء التي يحكمها الطغاة، ويخاطبون العلماء الخاضعين للطغيان دون أن ينكروا عليه ما يفعل، ويخاطبون الأسر المنكوبة ببطش الطاغية، ويطلبون تضامن الجميع.

وانعقد المؤتمر الذي حضره عدد كبير من الشهداء، وتحول إلى محكمة لمحاكمة الطاغية تولى رئاستها علي بن أبي طالب وكان المدعي فيها زيد بن علي.

عرَضَ المدعي جرائم الطاغية وما فعله بشعب "واق الواق". ولأن الزبيري كتب هذه الملحمة بعد قتل الإمام للشيخ حسين بن ناصر الأحمر وابنه حميد، حين كان دمهما المسفوك ما يزال حارا، أعطى لهما مكانة كبيرة في سرد الحكاية وفي مداولات المؤتمر والمحاكمة. وعلى لسانهما عرض أن يكون اليمنيون أخوة لا يفرق بينهم مفرِّق، في وطن مشترك يظلهم جميعا يكون الحكم فيه للشعب، وأن يتكوَّن مجلس خاص تتمثل فيه القبائل لتشارك في الحكم، وأن يتقدموا بمطالب موحدة، يتفق عليها "أهل الحل والعقد".

وأكدت المحاكمة على أنه لا توجد فئة في واق الواق قادرة لوحدها على حل مشاكلها. ونطق علي بن أبي طالب بالحكم وهو "بعث الشعب، وتجميع قواه، وتوحيد كلمته، والشعب وحده هو الذي يستطيع أن يجد الجزاء العادل"[77]. وهكذا حتى في الحلم وفي عالم الروح جعل الحل الوحيد بيد الشعب، فهو القادر إذا أراد على تغيير حاضره البائس وتحرير نفسه وبناء مستقبله.

إنها ملحمة استفاد الزبيري فيها من تقنية الرواية ومن قصة الإسراء والمعراج ومن رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومن أم القرى للكواكبي، وجعل الراوية يحكي قصة رحلة روحية ساحرة إلى عالم الغيب وما بعد الموت ليقابل شخصيات أغلبها حقيقية من المناضلين ضد الطغيان والمطالبين بالإصلاح الذين قدموا حياتهم في سبيل ما آمنوا به. استخدم تقنية الوصف والرواية والسرد، وفي بعض الحالات الحوار والتقارير عن وقائع تخيلها ونقلها ووصفها. وأضاف إلى الشخصيات الواقعية التي يعرفها شخصيات أخرى لم يقابلها في حياته، بعضها رموز تاريخية بارزة مثل سيف بن ذي يزن، وعلي بن أبي طالب والحسين بن علي، وتخيل شخصيات ابتدعها وتصور ملامحها وأفكارها وأبدع في تصويرها. وهكذا استحضر من أراد من الشخصيات التاريخية ووظفها في صياغة أسطورته، وجعلهم كلهم يضيفون إلى البناء الملحمي للقصة ويشاركون في الحكاية وتناميها حتى النهاية التي أرادها وإصدار حكم التاريخ في القضية التي عرضها في ملحمته باسم أعلى المرجعيات الدينية والتاريخية. ولم يكن هذا الحكم أن يُترك العقاب أو الجزاء إلى الآخرة، لأنه يرى أن انتظار العقاب في الآخرة خَوَر وضعف واستسلام وتركٌ للطغاة كي يتمادوا في غيهم ويتجاهلوا أحوال الشعب ما دام أحد لا يعترض عليهم ولا ينصحهم ولا يردهم. واختار بدلا من ذلك أن يكون العقاب في أيدي الشعب، فهو وحده القادر على وضع نهاية للطغيان وبناء حاضر اليمن ومستقبلها كما يريد وبما يخدم مصالحه ويحفظ له كرامته.

---

[77] نفسه، ص. 200.

الفصل الثالث

دور مستعمرة عدن في التغيير الثقافي في اليمن

إذا كان الاستعمار البريطاني قد حرص على أن يمسك باستقلال المملكة اليمنية من خلال التحكم في الدخول إلى البلاد والخروج منها وفي الحركة التجارية، فإن مستعمرة عدن قد كانت أيضا بوابة التغيير في اليمن كلها على المستوى السياسي وعلى المستوى الثقافي، لأنها كانت النافذة الوحيدة المتاحة لليمن واليمنيين على العالم الحديث، ومن ثم على تأثيرات الليبرالية الغربية والحضارة الحديثة، وحتى على البلدان العربية التي سبقت اليمن في الإطلال على التحديث ومغادرة سجن الماضي المظلم.

ففي عدن نشأ أول حزب سياسي يمني، لم يكن قد وجد مثله حتى في مستعمرة عدن والمحميات البريطانية الغربية والشرقية، هو حزب الأحرار سنة 1944 بقيادة الزعيمين الوطنيين مُحَّد محمود الزبيري وأحمد مُحَّد نعمان كما أشرت آنفا. ويمكن القول إن التسمية في ذاتها مستمدة من ثقافة الأحرار اليمنيين المتأثرين بحركة التحرر العربية الموجهة للمطالبة بالاستقلال الوطني وتأسيس أنظمة ديمقراطية ليبرالية في بلدان مثل مصر وسوريا والعراق، مثلا. وهو ما أدركه الاستعمار البريطاني فتعاون مع المستبدين في صنعاء لوضع نهاية مبكرة لهذا الحزب ومنع نشاطه بعد شهور قليلة من إعلانه.

لكن حركة الأحرار المستنيرين المعارِضة، التي كانت ما تزال في بداية محاولات العمل المنظَّم، نجحت في الالتفاف على هذا المنع بتأسيس "الجمعية اليمانية الكبرى" كبديل لحزب الأحرار الذي مُنِع، مع المحافظة على المبادئ نفسها التي قام عليها الحزب ونفس الناشطين تقريبا، ونفس القيادة، باستثناء من يئسوا بسرعة وتخلوا عن حركة المعارضة في عدن وعادوا أدراجهم من حيث أتوا.

وكان البريطانيون قد أدخلوا إلى مستعمرة عدن مطبعة سنة 1853 لتغطية احتياجات السلطات الاستعمارية في المستعمرة، كما شهدت عدن بداية ظهور المنظمات الاجتماعية وصدور الصحافة الحديثة وأهمها صحيفة "فتاة الجزيرة" كصحيفة مستنيرة تسير على هدى الصحافة العربية الحديثة في بيروت والقاهرة.

فقد أسس مُحَمَّد علي لقمان في سنة 1932 صحيفة أسماها "شمسان"، ولكن أهم إنجازاته تأسيس صحيفة "فتاة الجزيرة" الشهيرة التي قامت بدور مهم في إيقاظ الوعي المستنير وفي التأسيس للصحافة في مستعمرة عدن وفي مملكة اليمن من خلال مساعدتها لصدور صحيفة "صوت اليمن" الناطقة باسم حركة الأحرار اليمنيين المعارِضة سنة 1946، قبل أن تمتلك المعارضة اليمنية مطبعتها الخاصة وتصدر بها صحيفتها.

وتولى إصدار صحيفة "فتاة الجزيرة" صحفيون مستنيرون مطلعون على تطورات العالم. وقد كانت هذه الصحيفة خير عون لحركة الأحرار المعارِضة من خلال السماح لها أولا بنشر آرائها ومتابعة أخبارها وطبع صحيفتها الخاصة حتى جمع بعض المغتربين في إثيوبيا الأموال لشراء مطبعة خاصة أصدرت "صوت اليمن" ومطبوعات المعارضة. وتواصل فيما بعد إصدار الصحف الحزبية والمستقلة والمشاريع الصحفية الفردية في مستعمرة عدن حتى الاستقلال وخروج البريطانيين سنة 1967.

ومن ذلك مجلة "الأفكار" الشهرية لمحمود علي لقمان عام 1945، وصحيفة الفضول التي أصدرها عبدالله عبدالوهاب نعمان، ومجلة "المستقبل" في 1949 لعائض سالمين باسنيد وحررها عبدالله باذيب. ومن الصحف التي صدرت في الخمسينات صحيفة "البعث" في 1955، ورئيس تحريرها مُحَمَّد سالم علي، التي اهتمت بنشر الوعي النقابي المهني، وصحف "القات" و"الفكر" و"العامل" التي نشأت بانتعاش الحركة النقابية سنة 1956 وتعبيرها السياسي الجبهة الوطنية المتحدة، وصحيفة "الفجر" سنة 1957، وأول صحيفة يومية وهي "اليقظة" التي أصدرها عبدالرحمن جرجرة سنة

1956، وصحيفة "الأيام" لمحمد علي باشراحيل في 1958. وظهرت صحيفة "الصباح" في 1966. لكن جميع الصحف الخاصة قد توقفت بعد الاستقلال مباشرة. وبدأت مرحلة جديد مختلفة تماما عما شهدته مستعمرة عدن من ازدهار التعددية الصحفية والثقافية في الخمسينات.

النوادي والاتحادات والجمعيات

لم يهتم الاستعمار البريطاني بنشر التعليم في المستعمرة واكتفى بشيء من التعليم المتدني الذي يقتصر الالتحاق به على أبناء من ولدوا في عدن من اليمنيين وغير اليمنيين، لكنه حرم الغالبية الساحقة ممن حكم عليهم الحظ غير السعيد بالولادة في المحميات وفي شمال اليمن. وحتى التعليم الذي وفره الاستعمار لم يتجاوز المرحلة الثانوية فكانت "كلية عدن" أعلى مراحل التعليم في المستعمرة ولا يصل إليها إلا المحظوظون، وهي مدرسة ثانوية وحيدة لا تكفي للاستجابة لحاجات الطلبة في مدينة كبيرة. وحين يتخرجون منها لا توجد مراحل دراسية أعلى منها، ومن يستطيع إرسال أولاده للدراسات العليا في الخارج على نفقته نادر.

وهكذا حُكِم على غالبية الأطفال في عدن أن يبقوا أميين وألا يتمتعوا بحق التعليم. ولذلك اجتهد السكان، وحل الجهد الأهلي مكان التعليم العام. ونشأت في البداية "معلامات" ملحقة بالمساجد. وتطور الجهد الأهلي إلى إنشاء مدارس ونوادٍ وجمعيات واتحادات تعاونية لتسد العجز في مجال التعليم والتثقيف في مستعمرة عدن، وامتد تأثيرها إلى بعض الأرياف القريبة منها كما سنوضح لاحقا.

وهكذا ظهر في مستعمرة عدن عدد من النوادي الأدبية كان أولها "نادي الإصلاح العربي" في التواهي سنة 1930 برئاسة مُحَّد علي لقمان وإدارة مُحَّد سعيد

الأصنج[78]، والذي نصت المادة الثانية من نظامه الأساسي (فقرة أ) على "تشجيع نشر التعليم والثقافة عن طريق اقتناء الكتب والمجلات وإلقاء المحاضرات وتأسيس الحلقات الأدبية. وتكوَّن أيضا "مؤتمر الخريجين"، الذي تنص المادة الثالثة من "دستوره" على أهدافه، ومنها رفع المستوى الثقافي ونشر الوعي الاجتماعي عند المواطنين (وليس عند الأعضاء فقط) وتوعية الأعضاء والمواطنين بقضايا بلادهم عن طريق البحث والتحليل والمناقشة وتبادل وجهات النظر والنشر وغير ذلك من الوسائل.

ونشأت جمعية المرأة العربية في عدن سنة 1963 وشعارها "وطن واحد، مسئولية واحدة" وهدفها الرد على محاولات إقصاء النساء العربيات في عدن وفرض النساء غير العربيات في النشاطات العامة.

وتأسست مدرسة النهضة العربية في الشيخ عثمان (مستعمرة عدن)، سنة 1948. وينص نظامها الأساسي على أهدافها ممثلة ب- "القيام بإدارة مدرسة النهضة العربية في الشيخ عثمان والعمل على كل ما يحقق للمدرسة المذكورة النجاح والنظام والاستقرار وكذلك التعاون مع أي سلطة رسمية أو هيئة شعبية لتحقيق هذه الغاية سواء بواسطة تطوير المدرسة المذكورة وإنشاء مدارس أخرى وإنشاء المكتبات الثقافية والندوات العلمية إلى غير ذلك مما يمت بصلة إلى الأهداف المذكورة أعلاه"[79].

وتم تأسيس مشروع شعبي لمساندة الطلبة، لجمع التبرعات بهدف الاهتمام التربوي بالطفولة وشغل أوقات فراغهم في العطل الرسمية وتشجيع إنشاء رياض أطفال في مستعمرة عدن.

ونشأت كذلك جمعيات تعاونية لمساجد المعلا والتواهي والشيخ عثمان.

---

[78] علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، ج1، ص. 112.

[79] يحيى قاسم سهل، المجتمع المدني في عدن، ص. 468 . 508.

وفي 1949 نشأت "الجمعية العدنية" التي تمثل مؤسسة أهلية تجمع بين الجمعية والتعاونية والحزب السياسي، وينص قانونها الأساسي على أن تمثِّل مصالح العدنيين بالتعاون مع السلطات في مستعمرة عدن.

وفي سنة 1951 تأسست "رابطة أبناء الجنوب". ولا يحدد دستورها ما إذا كان الجنوب العربي أم الجنوب اليمني. ولعل هذا الغموض سبب بدء بعض الوطنيين والقوميين واليساريين حياتهم السياسية فيها مثل قحطان الشعبي الذي سيصبح فيما بعد زعيما للجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل، وعبدالله باذيب الذي سيصبح صحفيا يساريا لامعا وزعيما لاتحاد الشعب الديمقراطي، كمنظمة يسارية يمنية. وتنص الفقرة د. من دستور الرابطة على "رفع مستوى الجنوب من النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية". ولا ينص الدستور على أن تكون الرابطة حزبا سياسيا.

أما في 1957 فقد نشأ "حزب الشعب التقدمي" ولأول مرة ينص دستوره على تسمية "الجنوب العربي" كما تنص المادة الرابعة (فقرة ب) من دستوره على أن الحزب "يلتمس" الوسائل "الدستورية السليمة لتحقيق مستوى ثقافي أرقى لمختلف الطبقات".

وتم تأسيس الأحزاب السياسية العلنية مثل حزب الاستقلال، وحزب الأحرار العربي التقدمي، وحزب الأحرار الديمقراطي، وحزب الشعب، وكلها متعاونة مع الاستعمار البريطاني. وتأسست النقابات العمالية المهنية وتصارعت فيما بينها بسبب تسرب الأحزاب السياسية إليها ومحاولة كل حزب كسب النقابات إلى صفه ومشاركة النقابات والعمال في الكفاح من أجل نيل الاستقلال.

وتكونت المنظمة المتحدة للشباب اليمني، وهي المنظمة اليسارية التي عُرِفت بمنظمة عبدالله السلفي، ذات الهوية اليمنية الواضحة التي ينص دستورها في مادته الأولى على "نشر الثقافة الوطنية" كما تنص المادة الثالثة على "رفع مستوى الشباب

الثقافي وزيادة معرفتهم ببلادهم... وإلقاء المحاضرات وتنظيم الندوات الفكرية وتشجيع النشاطات الثقافية المختلفة"[80]. وفي السنة نفسها، أي 1961، نشأ "الاتحاد الشعبي الديمقراطي" بقيادة الزعيم اليساري عبدالله باذيب الذي كان سنة 1959 منفيا من مستعمرة عدن إلى تعز، وهو حزب يرفع شعار "نحو يمن حر ديمقراطي موحد" ويطبق ما دعا له مؤتمر الطلبة اليمنيين الدائم في مصر سنة 1956 من تلاحم اليمنيين في النضال لتحرير الشمال من الاستبداد وعدن والمحميات من السيطرة الاستعمارية لبناء يمن ديمقراطي موحد. ولا يعتبر الاتحاد الشعبي الديمقراطي نفسه حزبا بل تجمعا وطنيا.

وفي 1956 نشأ في عدن حزب البعث العربي الاشتراكي، قطر اليمن، ولكنه كان سريا وإن كان نشاطه ملموسا في النقابات وفي المجتمع.

ونشأ كذلك حزب علني يسمى "حزب الشعب الاشتراكي" الذي ينص دستوره على أن "إقليم اليمن الطبيعي جزء من الوطن العربي"[81].

وتأسست في عدن حركة القوميين العرب في سنة 1959 التي أعدت لإنشاء الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل وانطلاق ثوة التحرير حتى نيل الاستقلال.

الجمعيات ونوادي المناطق

لقد كان للنوادي الأدبية والجمعيات والأحزاب السياسية التي عرضناها آنفا تأثير كبير في أوساط السكان في مستعمرة عدن، وبخاصة أولئك القادمين من الأرياف القريبة. ولذلك تكونت في عدن، بتأثير من الأنشطة الأدبية والاجتماعية، جمعياتٍ ونوادي واتحادات أنشأها أبناء المناطق الواقعة في مملكة الظلام، وأغلبها في مناطق ريف تعز. فقد كان بعض أبناء هذه المناطق ينشطون في الجمعيات والنوادي العدنية

[80] نفسه، ص. 508 . 611.

[81] نفسه، ص. 612 . 635.

وحتى في الأحزاب السياسية، بعد أن سكنوا في عدن. وكان من الطبيعي أن يصبحوا من أهلها، وبعضهم ولدوا فيها ويحملون شهادة ميلاد في عدن دون أن يقطعوا صلاتهم ببعض أبناء مناطقهم. وقد درج من كتبوا عن هذه الجمعيات والنوادي على تسميتها ب-"الجمعيات والنوادي القروية" مع أنها لا تجمع أبناء كل قرية على حدة، بل تجمع أبناء مناطق أو تقسيمات إدارية محلية، أو أبناء كل عزلة، مثل الاتحاد العبسي لمنطقة الأعبوس، والاتحاد الأغبري لمنطقة الأغابرة، واتحاد الأعروق لعزلة الأعروق، والاتحاد الذبحاني لعزلة ذبحان، والاتحاد الشيباني لمنطقة بني شيبان، والجمعية الخيرية لأهالي حبيش، ونادي أهالي رداع، والاتحاد الشوافي لأبناء الشويفة، ونادي اتحاد المقاطرة، ونادي الاتحاد القرشي، وجمعية اتحاد الزريقة، والاتحاد القدسي، وجمعية بني حماد، وجمعية التعاون للقبيطة واليوسفيين، وأمثالها من الاتحادات والجمعيات الخاصة بكل منطقة.

"وقد أسَّسَت هذه الأندية يومها ما يمكن أن نسميه الضمان الاجتماعي، إذ أن كل نادٍ منها جعل من مقره مأوى لكثير من العمال والطلبة، وقدم المساعدات المادية للمرضى الذين يفدون من القرى للعلاج في عدن، كما قدم (بعضها) القروض المالية (بحسب القدرة) للعمال العاطلين عن العمل ريثما يحصلون على أعمال، وفتح (بعضها) فصولا دراسية مسائية لتعليم الطلبة والعمال اللغة الإنجليزية (لتسهيل الدراسة أو الحصول على عمل)"[82].

صحيح أنها تكونت في مستعمرة عدن وبدأت نشاطها لمساعدة المهاجرين في المستعمرة في تبادل المعلومات عن فرص العمل المتوفرة، واللقاء الأسبوعي أو الدوري لتبديد مشاعر الغربة عن الأهل، ولكنها في الوقت نفسه وفرت فرص إيواء المنقطعين، ومساعدة المحتاجين عند الضرورة، وأتاحت فرصا للقراءة والتثقيف ونشر الوعي بين الأعضاء، والأهم أن لجميع هذه الاتحادات والجمعيات، التي يعود تاريخ نشأة بعضها

[82] علي محمد عبده، نفسه، ص. 114.

إلى الأربعينات وتواصل ظهورها في الخمسينات، نظما أساسية و"دساتير" تنص صراحة على العمل لإنشاء مدارس في مناطقها ومساعدة هذه المدارس بما تحتاج إليه من مستلزمات دراسية.

فقد نصت الفقرة 3 من المادة الثالثة من نظام الاتحاد الشيباني الذي أنشئ في عدن سنة 1946 على "إنشاء مشاريع خيرية في الوطن (أي في بني شيبة) من فتح مدارس وحفر آبار... وتشجيع تعليم أبناء الوطن في عدن على نفقة النادي أو بمساعدته بعدن، وشراء ما تحتاجه من كتب ودفاتر وجميع أدوات التعليم التي توزع بين التلاميذ سواء في اليمن (في بني شيبة) أو في عدن"[83]. ومما يستحق الملاحظة أن تكوين الاتحاد الشيباني قد تم في السنة التي أنشأت فيها حركة الأحرار المعارِضة بقيادة أحمد مُحَّد نعمان ومُحَّد محمود الزبيري "الجمعية اليمانية الكبرى"، وهي الجمعية التي نشطت للمساهمة في الحركة الدستورية التي قامت بعد ذلك بسنتين.

وفي سنة 1947 تأسس في عدن نادي أهالي رداع وينص "قانونه"، في مادته الأولى، الخاصة بما سمهاها "مرامي النادي"، على "تشجيع الفضيلة ومحاربة الرذيلة بالوعظ والإرشاد وتنوير الرأي العام وتثقيفه". وللنادي مكتبة لها مدير مهمته تنظيمها بحيث لا يخرج الكتاب إلا برخصة خاصة من مدير المكتبة، "أما الجرائد فيجب توزيعها على من يريد من الأعضاء ولكن بعد يومين من وصولها من الخارج بشرط أن تُرَدَّ بعد يوم أو يومين فقط"[84]. وينبغي ملاحظة أن علي الأحمدي، أحد وجهاء النادي، قد قام بدور مهم في حركة الأحرار الدستوريين وتولى في مرحلة معينة الأمانة العامة للاتحاد اليمني المعارِض، وأصبح عند قيام الجمهورية وزيرا للإعلام وقُتِل بعد قيامها بشهور قليلة وهو يحارب في منطقة رداع دفاعا عن الجمهورية الوليدة.

---

[83] نفسه، ص. 347.

[84] نفسه، ص. 356 . 359.

وفي السنة نفسها تكوَّن نادي الاتحاد الشوافي (اتحاد أبناء الشويفة) وله قانون يتصدره بيت من شعر أحد زعيمي حركة الأحرار المعارِضة، هو مُحَمَّد محمود الزبيري، تقول:

جودوا بأنفسكم للحق واتحدوا　　　في حزبه وثقوا بالله واعتصموا

وهذا يشير إلى علاقة ما للنادي بالمعارضة أو أن أفكار المعارضة ومطالبها تصل إليهم. وينص قانونه في الفقرة الثانية من الأغراض على أن النادي ينوي "إذا واتته الظروف إيجاد مشاريع خيرية في بلاد الشوافي كفتح مدرسة أو مدارس... ثم العمل على تكوين بعثة من الطلاب يدرسون في مدارس عدن، على نفقة النادي ومساعدة ذويهم، حتى يكسبوا المؤهلات البدائية (الأولية) التي يتمكن النادي معها من تسفيرهم للدراسة في البلاد العربية كمصر أو العراق"[85]. ومن أبرز مَن بعثهم الاتحاد الشوافي للدراسة في مصر الأديب والشاعر أحمد الجابري، الذي ألف كلمات أغان للكثير من الفنانين في عدن ذاعت شهرتها.

وفي سنة 1950 تم إنشاء نادي الاتحاد الأغبري ووُضِع له "قانون أساسي" ينص في الفقرة الثالثة من مادته الأولى على "العمل على إيجاد مشاريع خيرية كفتح المدارس وإرسال البعثات إلى الخارج وغير ذلك"[86]. وقد حصل الاتحاد على عشر منح للدراسة في مصر، ومن أشهر المبعوثين الذين أرسلهم للدراسة على نفقته الطبيب اليساري المشهور فيما بعد مُحَمَّد قائد الأغبري (كان والده أحد الفدائيين الذين أرسلتهم حركة الأحرار المعارِضة من عدن للدفاع عن الحركة الدستورية عام 1948 وبعد فشلها تعرّض للسجن في القلعة في صنعاء إلى أن خرج وعاد إلى عدن وعمل في صفوف المعارضة). وقد أصبح الطبيب مُحَمَّد قائد وزيرا للصحة في العهد الجمهوري ومسئولا في منظمة الصحة العالمية في شرق المتوسط ومن أشهر الأطباء اليمنيين حتى

---

[85] نفسه، ص. 363.

[86] نفسه، ص. 463.

وفاته سنة 1986. وممن بعثهم الاتحاد الأغبري أيضا أحمد مُحَّد ثابت، الذي أصبح شابا يساريا ومصرفيا شهيرا في العهد الجمهوري، وبخاصة في أول بنك يمني تأسس في صنعاء بعد قيام الجمهورية مباشرة، وهو البنك اليمني للإنشاء والتعمير.

و"قد اهتم النادي يومها بنشر التعليم في عزلة الأغابرة، فقرر رواتب شهرية لكل المعلمين في (معلامات) قرى الأغابرة، وبنى مدرسة في قرية المعصرة، ولا تزال تحمل اسم النادي.... وكان التعليم إجباريا" على الأولاد في القرى. وسعى لإرسال طلبة للدراسة في العراق. وتأسست حلقة أدبية في هذا النادي في التواهي باسم "كرمة أبي العلا"[87].

كما ساعد المهاجرون في مستعمرة عدن في تأسيس "مكتب الفلاح" في حيفان بإشراف عبدالله عبدالإله الأغبري، الذي كان قد اكتسب خبرة في مدارس جيبوتي الحكومية، فعمل المكتب على غرس قيم التعليم في ريف محروم.

وفي سنة 1951 أُنشئ نادي التعاون العريقي وينص نظامه الأساسي على "تشجيع نشر التعليم والثقافة عن طريق اقتناء الكتب والمجلات والعمل على إيجاد مشاريع خيرية كفتح مدارس وإرسال بعثات (للدراسة في الخارج) حسبما تسمح به مالية النادي". وكذلك محاولة الاتصال المباشر ببقية النوادي والهيئات لبحث المشاكل العامة معا[88].

ويذكر يحيى قاسم سهل في كتابه بعنوان "المجتمع المدني في عدن" في الملحق رقم 8 قائمة بأسماء جمعيات ونوادي لا يرد سوى أسماءها دون تفاصيل أو نشر قانونها الأساسي كما فعل مع النوادي والاتحادات الأخرى، من بينها نادي الاتحاد الذبحاني[89]. لكن علي مُحَّد عبده ينقل عن الأستاذ أحمد مُحَّد نعمان تأسيس "نادي

---

[87] علي محمد عبده، نفسه، ج1، ص. 114.

[88] نفسه، ص. 457.

[89] نفسه، ص. 960.

الإصلاح الأدبي" في التربة سنة 1934 "على غرار النوادي الأدبية القائمة في عدن، وكانت هناك اتصالات ومراسلات بين المسئولين عن المدرسة (مدرسة التربة التي أسسها نعمان) وبين المسئولين في النوادي الأدبية بعدن، يتبادلون فيها الرسائل والآراء والمنشورات حول التعليم وتطوره، وخاصة مع المسئولين في (نادي الإصلاح العربي) الذي كان له إلى جانب نشاطه الأدبي، من إلقاء المحاضرات وإقامة الندوات، اهتمامه بالجانب التربوي كما أسلفنا من فتح مدارس في عدن وإرسال الشباب لمواصلة دراستهم في الخارج"[90]. ويضيف أنه كان لنادي الإصلاح في التربة "قاعة للمحاضرات ومكتبة للقراءة تتوفر فيها الكتب الحديثة والمجلات المصرية الدورية أهمها الشورى، والجهاد، والمقطَّم، وكوكب الشرق، والأهرام" ترسل من عدن بانتظام، وكانت الكتب والمجلات تُوفَّر ليقرأها الشباب[91].

وفي سنة 1952 تأسست بالشيخ عثمان، عدن، جمعية اتحاد المقاطرة، وينص "قانونها"، في الفقرة 7 منه، على نشر الإصلاح والثقافة بين الأعضاء، وفي الفقرة التاسعة على التعاون والعمل مع الهيئات الرسمية والأندية والجمعيات في عدن "في كل ما فيه الصالح العام". كما ينص في الفقرة 11 على "استعمال الصحف والمحاضرات والنشرات والكتيبات وما إلى ذلك لتنفيذ أغراضها"[92].

وفي السنة نفسها (1952) نشأ نادي الاتحاد القرشي ومقره في الشيخ عثمان أيضا، وله "قانون" تنص الفقرة 3 من المادة الثانية منه على نية الاتحاد "إنشاء مشاريع خيرية من فتح مدارس... وإرسال بعثات علمية وتشجيع تعليم الأطفال ومساعدتهم وشراء ما يحتاجونه من كتب ودفاتر وجميع أدوات التعليم التي توزع بين التلاميذ"[93].

---

[90] علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، ج1، ص. 123.

[91] نفسه.

[92] نفسه، ص. 371.

[93] نفسه، ص. 379.

وفي سنة 1953 تأسست جمعية اتحاد الزريقة ووضع لها "نظام أساسي" ينص في الفقرتين الأولى والثانية من أهداف الجمعية على:

(1) "رفع مستوى الزريقة (كلها وليس أعضاء الجمعية فقط) ثقافيا واجتماعيا،

(2) تعليم أبناء الفقراء منهم" على اعتبار أن الموسرين يستطيعون تعليم أبنائهم. وللجمعية مكتبة تحتوي على كتب ومجلات وجرائد تُعَار بإذن من سكرتير الجمعية[94].

وفي السنة نفسها نشأت جمعية الاتحاد القَدَسي وينص نظامها الأساسي على أن من أهدافها رفع المستوى الاجتماعي والأدبي ونشر الثقافة الإسلامية عن طريق الكتب والمجلات والمحاضرات وإقامة الحفلات العامة في المناسبات الدينية والقومية والتعاون مع الجمعيات والهيئات والنوادي الأخرى. وللجمعية مكتبة تحتوي على كتب ومجلات وجرائد تعار بإذن من سكرتير الجمعية[95].

وفي سنة 1954 نشأ نادي الاتحاد القراضي (يضم أبناء الأقروض) الذي ينص نظامه الأساسي على أن النادي ينوي إنشاء مشاريع خيرية في الأقروض مثل فتح مدارس[96].

وفي السنة نفسها نشأت في عدن جمعية بني حماد الخيرية وينص قانونها على "محاربة الجهل ومكافحة الأمية بنشر العلم عن طريق بناء مدارس في أنحاء بلاد بني حماد عموما حيث تتعاون مع الحكومة اليمنية. وللجمعية أن تكوِّن لجنة خاصة تسمى لجنة التعليم. وعمل هذه اللجنة النظر في فتح مدارس أهلية في الجهات التي تقرها الجمعية وتتمول هذه المدارس مما يجمعه الأهالي في داخل بني حماد من الطعام (الحبوب) وقت الحصاد باسم نفقة التعليم وما تسمح به الحكومة اليمنية ثم ما تَقدِرُ عليه الجمعية كمعاونة[97]". ويلاحظ أن "قانون" هذه الجمعية مدروس بعناية، فهو

---

[94] نفسه، ص. 387 . 389.

[95] نفسه، ص. 392 . 397.

[96] نفسه، ص. 400.

[97] نفسه، ص. 409.

يحرص على عدم الاصطدام بالسلطة داخل بني حماد حتى لا تمنع تنفيذ مشاريع الجمعية، كما أنه ينشئ لجنة مهمتها العمل على تنفيذ المشاريع المنصوص عليها في قانون الجمعية، ويُشرِك أهالي المنطقة في تمويل التعليم بأسلوب مبتكر يقدرون عليه عن طريق المساهمة العينية بالحبوب وقت الحصاد.

وفي سنة 1955 أنشئت جمعية التعاون للقبيطة واليوسفيين وينص نظامها الأساسي على أن من أهدافها رفع المستوى الثقافي والاجتماعي وتبني المشروعات الحيوية ومنها بناء المدارس في حدود إمكانياتها المادية[98].

وفي سنة 1960 نشأ نادي الاتحاد العبسي الذي نص "دستوره" في الهدف الثاني من أهداف الاتحاد على "رفع مستوى التعليم والثقافة في الوطن والمهجر"، في حين ينص الهدف الثاني على "إيجاد مشاريع خيرية في بلاد الأعبوس كفتح مدرسة أو مدارس"[99]. ويلاحظ أن النادي قد أطلق على نظامه الأساسي تسمية "دستور" التي كانت تعد كلمة ملعونة في مملكة الظلام. وهذا يعكس مستوى الوعي السياسي والقانوني لدى القائمين على النادي[100].

---

[98] نفسه، ص. 437.

[99] نفسه، ص. 352.

[100] يذكر يحيى قاسم سهل في كتابه المذكور آنفا أسماء جمعيات ونواد دون ذكر تفاصيل أخرى، هي نادي الاتحاد الصلوي، ونادي الاتحاد العديني، ونادي الاتحاد الذبحاني، ونادي الاتحاد الأصبحي، وجمعية أهالي دبع، وجمعيات النور لشباب الأخمور، وجمعية أبناء الضالع الخيرية، والجمعية الوطنية الحضرمية، والجمعية الخيرية لأبناء العزاعز، وجمعية الاتحاد الشرجبي، وجمعية بني عمر، والاتحاد الأثوري. ومن المنظمات الثقافية في مستعمرة عدن يذكر، في الملحق السابع، أسماء الجمعيات التالية مع سنة تأسيسها: نادي الأدب العربي سنة 1925، ومخيم أبي الطيب سنة 1928، ونادي الإصلاح العربي في التواهي سنة 1929، وكرمة أبي العلاء المعري سنة 1949، وحلقة شوقي سنة 1942، ونادي الشباب الثقافي في الشيخ عثمان سنة 1947، ونادي الشباب الأدبي في كريتر سنة 1942، والمنظمة المتحدة للشباب اليمني سنة 1961، والرابطة القومية للكتاب العربي في اليمن سنة 1962، ومنظمة الشباب العربي سنة 1963.
ص. 960.

ويلاحظ أن بعض هذه الجمعيات والنوادي قد نشأ مبكرا مترافقا مع نشأة "الجمعية اليمانية الكبرى" في عدن بقياد زعيمي حركة الأحرار المعارِضة، الزبيري ونعمان، وجميعها تضع في أهدافها المساعدة في تعليم أبناء مناطقها في عدن وفي نشر التعليم في مناطقها، بل إن بعضها قد نص صراحة على العمل لإرسال طلبة من مناطقها للدراسة في الخارج، وبخاصة في مصر والعراق.

ولا نستطيع أن نقدِّر القيمة الكبرى لهذا الاهتمام العام وهذا الإلحاح على نشر التعليم والثقافة بين الأعضاء وفي المناطق في الداخل إلا إذا تصورنا الجهل الذي كان مفروضا داخل مملكة الظلام التي جاء الهاربون إلى عدن منها، وشيوع الأمية بين السكان، وعدم اعتراف النظام الإمامي بالحق في التعليم، وتعامله مع الجهل والأمية والتخلف الثقافي كأمر واقع. "ويمكن القول إن أروع الأعمال وأقوى التأثيرات هو محاكاة أبناء الشمال الأميين للمثقفين من الشباب في عدن في تأسيس النوادي ومجاراتهم في القيام بهذا النوع من المؤسسات الحضارية في عدن ونقلها إلى قراهم"[101].

ومن المعروف أن الكثير من أبناء هذه المناطق ممن كانوا قد سكنوا عدن على الأقل منذ ثلاثينات القرن العشرين (ويعود سكن بعضهم في عدن حتى إلى القرن التاسع عشر) وتزايد عددهم في الأربعينات والخمسينات، قد شاركوا في ازدهار الحركة النقابية في مستعمرة عدن خلال الخمسينات، لأنهم كانوا في الخمسيات ومطلع الستينات يشكِّلون أغلبية سكان عدن[102]. وانخرط أبناؤهم في المدارس الأهلية التي انتشرت في عدن وأصبحت تقدم خدمات تعليمية كبيرة مدفوعة التكاليف وبخاصة لأبناء القادمين من مملكة الظلام، مثل مدرسة النجاح التي أسسها الشريف الدباغ، في كريتر بجانب نادي الأدب العربي الذي تأسس كأول نادٍ أدبي في كريتر، عدن، وأسس مُحَّد عمر بازرعة مدرسة خيرية التحق بها الكثير من أبناء المهاجرين من مملكة

---

[101] علي محمد عبده، نفسه، ج1، ص. 113.

[102] كتيب بلقيس منار المستقبل، الاتحاد اليمني، ص. 18.

الظلام ممن لا تتوفر لهم فرص الدراسة في مستعمرة عدن باعتبارهم غير مولودين فيها. كما تأسست مدرسة النهضة في الشيخ عثمان، وكذلك المدرسة الأهلية في التواهي وقام بجهد في بنائها مُحَّد سلام حاجب، من حركة الأحرار اليمنيين، وحمزة مُحَّد ناصر، وآخر هذه الجهود التعليمية "كلية بلقيس" التي كان صاحب الفكرة في إنشائها أحمد مُحَّد نعمان ومعه بعض الموسرين من المهاجرين إلى عدن من المرتبطين بقيادته للمعارضة، والذين خصصوا اشتراكات شهرية لتمويلها وتغطية رواتب المعلمين فيها[103] وحصلوا على أرضية وباشروا بناء الكلية فوقها بسرعة قياسية.

وقد حُدِّدَت فلسفة الكلية وسياستها في كتيِّب خاص نشرته المعارضة باسم "الاتحاد اليمني" احتفاءً بهذه المناسبة، يقول إن كل مدرسة تحمل رسالة، "ورسالة بلقيس هي تثقيف أبنائها وبناتها بصفة عامة، وتربيتهم بصفة خاصة". ويؤكد على تثقيفهم بأن العلم ليس وسيلة لوظيفة فحسب، بل إنه ضروري في الدرجة الأولى لإنسانيتهم ووطنهم وللعالم كله، ليكونوا مواطنين صالحين. ويتحدث عن تعليم المرأة قائلا إننا بتعليمها نساعد أنفسنا[104] مقدِّما دفاعا مجيدا عن تعليم المرأة وضرورته لها وللرجل وللمجتمع ككل.[105]

ويرى الكُتيِّب الصادر عن الاتحاد اليمني أن محاولات اليمنيين للتغيير قبل أن يتعلموا لن تنجح. ولهم عِبرة في العثرات التي صاحبت المحاولات السابقة. لأنهم ضحوا لصنع الجديد فارتطموا بواقع يخيم عليه الجهل وانهار كل شيء، ولذلك تلاشت جهودهم كالأحلام. ويرى أن اللعنة الحاسمة التي ينبغي أن يصبها اليمانيون على الظلم والقيد وعلى الظلام تتمثَّل في المدرسة والكتاب والقلم. فالعلم هو "لعنة الله ولعنة الضمير والعقل والإنسانية على الظلم وعلى الظالمين وعلى كل من يخالف العقل[106]".

---

[103] علي محمد عبده، نفسه.

[104] كُتيِّب كلية بلقيس، نفسه، ص. 11.

[105] نفسه، ص. 28 . 30.

[106] نفسه، ص. 26.

وكتب أحمد نعمان، الذي كان العقل المدبر وراء إنشاء هذه المدرسة لاستيعاب أبناء المهاجرين في مستعمرة عدن وقام بحملة لجمع التمويل[107] وأشرف على سياستها دون أن يتولى فيها أي منصب وظيفي، مقدمة للكتيب الذي أصدره الاتحاد اليمني ليتضمن فلسفة الكلية وسياستها وأقسامها وطموحاتها. كما ألقى أحمد حسين المروني قصيدة بمناسبة افتتاح الكلية احتوت على بيت يكاد يحدد نوع التعليم الذي تقدمه الكلية بصورة لا لبس فيها ولا جدال:

انظروا الغرب كيف ساد على الشرق بعلمٍ، وكيف نال مرامه

وقد أنشأت الكلية الجمعيات بمختلف أنواعها، وأكدت على التثقيف العلمي والاجتماعي وأنشأت المسرح الدائم وأكدت على التنشِئة الديمقراطية والتعاونية.

ومما يستحق الملاحظة أن اثنين من وزراء التزابية في عهد الجمهورية كانا معلمين في كلية بلقيس، هما أحمد المروني ومُحَّد أنعم غالب، والثالث قاسم غالب أحمد عمل معلِّما فيها قبل أن ينتقل للتدريس في المعهد العلمي الإسلامي الذي أنشأه في عدن الشيخ الأزهري الكفيف مُحَّد سالم البيحاني، زميل نعمان في الدراسة الأزهرية في مصر.

---

[107] كان نعمان والزبيري رمزا للمعارضة وشكلا قيادة راسخة في كل الظروف لحركة الأحرار المعارِضة ضمنت لها التماسك في كل الأزمات، والانبعاث بعد كل ضربة قوية تعرضت لها، وربطت بينهما صداقة متينة وتفاهم تاريخي قل نظيره، تواصل حتى وفاة الزبيري سنة 1965. وكان إنشاء كلية بلقيس من المرات النادرة التي اختلفا فيها. فقد شهدت هذه الفترة، التي كان فيها نعمان منهمكا في حملة لجمع التبرعات لتمويل كلية بلقيس، انتفاضة قبلية في خولان وأراد المؤيدون لها الاستعانة بما للزبيري من مكانة لدى نعمان ليستخدم تأثيره على الموسرين من المهاجرين في جمع أموال وإعطائها لمشايخ خولان بحجة أنهم سيقومون بثورة بقيادة أحمد السياغي، نائب الإمام في إب الذي هرب إلى لحج، يدخلون بها صنعاء ويقضون على النظام الإمامي. لكن نعمان لم يكن مقتنعا بجدوى تلك التحركات القبلية، فرفض تشتيت جهوده وفضل إعطاء الأولوية لجمع تبرعات ومساهمات لتمويل مشروعه التعليمي ممثلا في كلية بلقيس (انظر التفاصيل في: علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة المعارضة، ج2، ص. 213 . 216).

وانهمك الكثير من أبناء هذه المناطق، التي أنشأت لها نوادي وجمعيات، في النهضة التعليمية الأهلية في مستعمرة عدن وفي الازدهار الثقافي والحراك السياسي والنقابي. فقد كان أغلب سكان عدن، سواء ممن يحملون شهادة ميلاد في عدن (المِخلَقَة الشهيرة) أم ممن لا يحملونها، من شمال اليمن[108]، ولذلك نجحت الجبهة الوطنية المتحدة سنة 1956 في مقاطعة الانتخابات التشريعية في مستعمرة عدن[109]. وقد سمحت لهم الجمعيات والنوادي التي أنشأوها بأن يمدوا تأثير الحركة الحضارية في مستعمرة عدن إلى مناطقهم، فأصبحت تلك المناطق بهذا الفعل امتدادا للحراك التعليمي والثقافي والسياسي في مستعمرة عدن. وحين جاء الكفاح المسلح لإخراج المستعمر البريطاني شارك الكثير منهم في العمل النضالي في عدن، سواء من خلال النقابات أم الأحزاب السياسية، وانتمى بعضهم إلى الجبهتين اللتين خاضتا الكفاح المسلح وتصارعتا حتى الاستقلال.

ويدل العدد الكبير لهذه الجمعيات والاتحادات، التي تضم أبناء العزل في منطقة جغرافية محدودة، على أنها قد كانت تستجيب لحاجة ماسة لدى المهاجرين إلى مستعمرة عدن، من حيث توفيرها لمراكز لقاء وتعاون وتبادل للمعلومات عن العمل والدراسة وأخبار القرى. واكتسبت أهمية عملية أكبر بقيامها، أو على الأقل قيام بعضها، بدور في تحمل مسئولية إيصال ما يرسل المهاجرون من نقود وثياب وأشياء

---

[108] بلقيس منار المستقبل، ص. 18.

[109] بدأ توافد سكان ريف تعز إلى مستعمرة عدن للعمل والبحث عن فرص جديدة منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر وتزايد تدفقهم في أربعينات وخمسينات القرن العشرين بازدياد دور ميناء عدن كميناء عالمي حُر، وما رافقه من انتعاش التجارة والبناء ونشأة الصحافة والنشاط التعليمي والثقافي. لكن دور ذوي الأصول الشمالية ومكانتهم بدأت بالتراجع عند الاستقلال بسبب إغلاق قناة السويس والانخفاض الخطير في دور ميناء عدن بعد أن فقد مكانته العالمية. وجاءت الإجراءات المتطرفة التي اتخذتها حكومة الاستقلال تباعا لتؤدي إلى تراجع الأنشطة التجارية والمصرفية وما رافقها من نزوح أغلب سكان عدن ما قبل الاستقلال، سواء إلى الشمال أم إلى بلدان النفط، فانخفض تواجد ذوي الأصول الشمالية إلى حدٍ كبير.

عينية إلى أسرهم وفي كونها مكانا تصل إليه رسائل الأهل وأخبارهم، إذ كانت تحل محل البريد غير المتوفر إلى القرى والعزل.

وكان دورها في نشر التعليم محوريا، أولا بالنسبة للطلبة من أبناء المهاجرين، وثانيا في قرى المهاجرين عن طريق التعاون بين أعضاء الجمعيات والاتحادات من جهة والمواطنين القاطنين في قراهم وعزلهم. ولا شك أنها بهذه الجهود الأهلية قد أسهمت في تغيير ثقافة المهاجرين من حيث حركت فيهم روح التضامن والتعاون فيما بينهم وربطتهم بشكل أفضل بقراهم وجعلتهم عامل تحريك للبيئة التعليمية والثقافية الراكدة في مناطقهم.

ومن هنا جاء دور هذه الجمعيات والنوادي قبل قيام الجمهورية في تهريب الكتب والمطبوعات إلى الداخل، فكانت القناة الرئيسية لتسرُّب المواد الثقافية ولنشر الوعي بالحاجة إلى التغيير وأن هذا التغيير لا يقبل التأجيل، وحين حدث التغيير الجمهوري تدفقوا بالآلاف لنصرته والوقوف بجانبه والتضحية في سبيله.

ومن المعروف أن الخوف من عقاب السلطات الإمامية وانتقامها من أهالي المغتربين في الداخل قد جعل هذه الاتحادات والجمعيات تنص في نظمها ودساتيرها على أنها لا تعمل بالسياسة، لكنها كما هو معروف قد كانت قنوات لتسريب الكتب والمطبوعات، بل وللنشاط الحزبي فيما بعد، على إثر نشأة الأحزاب السياسية الحديثة.

ومن الملاحظ أن حزب الأحرار قد حاول عند تأسيسه جعل هذه الجمعيات قواعد لنشاطه وقنوات لجمع التبرعات والاشتراكات. وحين منع البريطانيون حزب الأحرار تجاوبا مع طلب النظام الإمامي، أعاد الأحرار تنشيط حركتهم وأطلقوا عليها "الجمعية اليمانية الكبرى" لتكون جمعية وطنية مشابهة للجمعيات القائمة التي يعمل فيها أبناء المناطق المختلفة، وكأنما أرادوا أن يكونوا جمعية عامة على أن تكون جمعيات المناطق فروعا لها، لكي تستند "الجمعية اليمانية الكبرى" في نشاطها وفي تمويلها على هذه الجمعيات.

القصة والمسرح والشعر

وفي الصحافة التي نشأت في مستعمرة عدن بدأت القصة القصيرة والرواية. ففي مطبعة "فتاة الجزيرة" نشِرت في الأربعينات أول رواية بعنوان "سعيد" لمحمد علي لقمان ثم رواية "يوميات مبرشت" لعبدالله الطيب أرسلان. وفي مستعمرة عدن كتب علي مُحَمَّد عبده (ابن أحد الفدائيين الذي استقدمتهم حركة الأحرار من عدن من بين المرتبطين بنوادي المناطق التي تحدثنا عنها آنفا إلى صنعاء ليدافعوا عن الحركة الدستورية في 1948 وفقد حياته في صنعاء. فارتبط ابنه بحركة الأحرار وعمل فيها حتى قيام الجمهورية) رواية "حصان العربة" التي نُشِرت مسلسلة في صحيفة الكفاح سنة 1959، وموضوعها معاناة المهاجرين من مملكة الظلام هربا من الظلم والفقر وانعدام فرص العمل، وعملهم في مهن شاقة لكسب عيشهم. ونُشِرت بعدها رواية "مذكرات عامل"[110] للكاتب نفسه الذي ارتبط في تلك الفترة بازدهار الحركة النقابية في مستعمرة عدن. ومن هذا الباب يمكن اعتبار نشر روايتي مُحَمَّد عبد الولي يموتون غرباء سنة 1971 مسلسلة في صحيفة "الشرارة" الصادرة في المكلا، ورواية "صنعاء مدينة مفتوحة" سنة 1973 في مجلة "الحكمة" الناطقة باسم اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، استكمالا لهذا الدور الريادي لعدن. وقد كان من الطبيعي أن يكون ظهور القصة القصيرة والرواية مرتبطا بازدهار الصحافة الليبرالية الحديثة في عدن ابتداء بصحيفة "فتاة الجزيرة" ومطبعتها وحتى تعدد الصحف في الخمسينات والنصف الأول من الستينات. فليس من الممكن أن تزدهر القصة القصيرة والرواية في مجتمع تقليدي منغلق لا وجود لحركة ثقافية فيه.

---

[110] وهبية صبرة، البنية الروائية في يموتون غرباء، ص. 30 . 40.

وفي مستعمرة عدن ظهر المسرح في اليمن. حيث يعيد سعيد عولقي في كتابه "سبعون عاما من المسرح في اليمن" بداية المسرح إلى العشرينات من القرن العشرين حين قُدِّمت مسرحية "شهداء الغرام" التي اقتبسها نجيب حداد من مسرحية "روميو وجولييت" لوليام شكسبير. "وفي الفترة بين سنة 1926 و1940 تكونت العديد من الفرق المسرحية ولكن معظم نشاطها لم يتعد مسرحية أو مسرحيتين في العام الواحد" وكان يقوم بالتمثيل فيها هواة أحبوا المسرح واهتموا به. فقُدِّمت مسرحية "صلاح الدين" عام 1929، وفي عام 1933 قدمت مسرحية "القائد المغرم" في نادي الإصلاح العربي، ومسرحية "فتاة الغار" وكذلك مسرحية "عجائب الأقدار".

وفي سنة 1933 تكون فريق مسرحي برئاسة مُحَّد عبدالله الصائغ اهتم بتثقيف نفسه من حيث قراءة النصوص المسرحية العربية وقدم مسرحية "وفاء العرب" التي لاقت نجاحا وتواصل عرضها كل أسبوع لمدة أربعة وعشرين أسبوعا. ونافسه فريق آخر برئاسة نايف حسين السوقي وعرض نصين مسرحيين لجرجي زيدان بعنوان "مجنون ليلى" و"فتاة الأندلس".

وتكون فريق مسرحي برئاسة مُحَّد عبده الدقمي، قدم سنة 1939 مسرحية "يوسف الصديق" التي تعرضت لانتقاد رجال الدين بسبب عرضها لقصة دينية. لكن الفريق نفسه عرض في السنة نفسها مسرحية "غرام وانتقام" من إخراج عبدالله أبكر حسين. ثم قدم بعد شهرين مسرحية "عنترة بن شداد". ونظرا لعدم توفر العنصر النسائي قام علي مُحَّد الدُّبَعي بدور عبلة وكان ذلك عملا جريئا في تلك الفترة المبكرة.

وفي العام نفسه قدمت فرقة الصباغين مسرحية "الخيانة والوفاء" التي اهتدت إلى دور الغناء في جذب الجمهور للإقبال على المسرح. ثم قدمت الفرقة نفسها سنة 1940 مسرحية "عجائب الزمان" من إخراج مُحَّد أحمد حيدرة التي اعتُبِرت في حينها "حدثا فنيا بارزا في إخراجها وتمثيلها"[111].

---

[111] نفسه، ص. 41 . 44.

وفي سنة 1944 عرضت على مسرح "سينما ريجال" مسرحية علي بك الكبير المستمدة من المسرح المصري وأخرجها الشاعر المعروف مُحَّد عبده غانم. وهذه هي المرة الأولى التي ينشغل فيها بالمسرح كادر مثقف هو مُحَّد عبده غانم الذي درس الأدب العربي في الجامعة الأمريكية في بيروت وتخرج منها سنة 1932. لكن المسرح تراجع بعد عرض هذه المسرحية. وكانت أكبر مشكلة تواجه المسرح دائما عدم توفر النصوص المسرحية وانعدام التمويل. ولذلك اقتصر خلال فترة على المسرح المدرسي. وفي سنة 1957 قدم عبدالمجيد القاضي مسرحية "السيد حنبص".

وأسس صالح مسيبلي في سنة 1958 "الهيئة العربية للتمثيل" من عمال شركة مصافي النفط البريطانية، فاعتبرت تطورا نوعيا في المسرح في مستعمرة عدن، إذ قدمت عروضا منتظمة دخلت فيها دماء جديدة على التمثيل المسرحي. وقد قدمت مسرحية "إغراء الشيطان" و"فتاتنا اليوم" و"اللقاء الأخير" و"هل قتلت أخي" و"جريمة في الليل" للمسيبلي تأليفا وإخراجا. كما قدمت مسرحية "ست البيت" من تأليف عمر بامطرف وإخراجه.

وبعد نجاح "الهيئة العربية للتمثيل" أنشأ جعفر مُحَّد علي فرقة أخرى للمسرح الكوميدي لاقت إقبال الجمهور وقدمت مسرحيات كوميدية مثل "السيد الدجال" و"جدو تزوج" و"ابني نينو" و"المصور" و"أبو الذهب" و"قعادة كرا".

وفي سنة 1961 تأسست فرقة هيئة الفنون والتمثيل التي قدمت على خشبة المسرح ثمان مسرحيات مثل المسرحية البوليسية "قتيلة الفندق". وكتب لها الفنان مُحَّد مرشد ناجي مسرحية كوميدية بعنوان "علي حسين طز البيسة". وبافتتاح التلفزيون في مستعمرة عدن سنة 1964 دخل المسرح مرحلة جديدة من تطوره[112].

وإذا كانت تكنولوجيا الصوت والصورة بواسطة السينما قد سحبت بعض الجمهور من المسرح، وهو جمهور كان ما يزال محدودا ولم تتوطد صلته الثقافية بالمسرح،

---

[112] نفسه، ص. 45 . 89.

فإن التلفزيون قد أدخل السينما والمسرح إلى البيت وسحب الجزء الأكبر من جمهور المسرح والسينما وتوسع على حسابهما. إلا أن السينما والتلفزيون، بالإضافة إلى الراديو، قد أقحمت جمهور القادمين من أرياف مملكة الظلام في الثقافة الحديثة، وغرست فيهم بالتدريج قيما تربوية وثقافية لم يعهدوها، وفتحت عقولهم على ما يجري في العالم من حولهم من تطورات ومن اكتشافات وأحداث، ساعدت في استنارتهم وأخرجتهم من ظلام العصور الوسطى المخيم على مدنهم وقراهم وراء أسوار العزلة والتخلف، وخلقت عندهم طموحات وأشواق ومشاعر لم يألفوها من قبل، وجعلتهم جسورا للجديد في وطنهم، ورسلا للتغيير، فأصبح التناقض وجوديا بينهم وبين النظام الذي يفرض على قراهم الفقر والجهل وانعدام أية رعاية، فإما أن يتغير وإما أن يفرض عليهم البقاء خارج مملكة الظلام بلا عودة، مشردين في أصقاع الأرض يبحثون عن فرص للعمل وللحياة والحرية.

وإلى جانب تجديد لغة النثر من خلال الصحافة التي ازدهرت وانتشرت، وكذلك من خلال القصة القصيرة والرواية والمسرح، شهدت مستعمرة عدن أيضا تجديد لغة الشعر، في شعر مُحَمَّد عبده غانم ومُحَمَّد سعيد جرادة. لكن التجديد الشعري الأبرز يتمثل في شعر لطفي جعفر أمان، هذا الطائر الرومانسي والعاشق الروحاني المحلق بشفافية ونعومة في سماء الشعر العربي بلغة شعرية جديدة تفيض رقة وعذوبة وتستوحي الشعراء الرومانسيين، وبخاصة في مصر.

تتجلى موهبة لطفي جعفر أمان الشعرية في وقت مبكر من حياته بقصائد رومانسية فيها مسحة من يأس العاشق وحزنه. فمن مجموعته الشعرية الأولى "بقايا نغم":

يحفـل الكـون بالجمـال وتهتـز قلـوبٌ مـن منصـتٍ ومغـني

عصرت خمرها من الأمل الغض ومن يانع المنى والتمني

دغدغتها يد الهوى فهي ما تبرح نشوى مع الحياة تغني

بين عقد الحسان والقدح الضاحك والزهر والغناء المرنِّ

غـير قلـب هنـاك أدركـه اليـأس وألقـاه في غياهـب حـزن

وأنا الشاعر الذي عبد الحسن وصاغ القصيد فيه فنونا

وأنا العابـد الـذي في صـلاة الحـب أفـنى شـبابه المفتـونا

وأنا مـن نصـبت كـل جمـال قدسـيّ السـناء ربا حنـونا

أنا قيثـارة يحركهـا الحـب فتملـي علـى الوجـود الشـجونا

فاسمعيني إذا شدوت بحبي فلكم صغت في هواك اللحونا

أمس عيد الميلاد ما ضاء شمع فيه أو فاح زهره البسام

خفتت شهبه وغاض شداه وبكى طيره وجف المدام

كـان كالمـأتم الملبـد بالحـزن وكالصـمت سـاد فيـه الظـلام

أو في قصيدة النغم السجين:

يا هـــزار الـــروض مـــا أحـــلاك صـــفاقا تغـــني

مـــرح الأعطـــاف ريان الصـــبا حلـــو التثـــنِّي

ليتـــني مثلـــك صـــفاقا علـــى الغصـــن أغـــني

فـــأرى الـــدنيا، ومـــا فيهـــا أغاريـــدي وفـــني

وأرى الحبـــــة تكفيـــــني والقطـــــرة تغـــــني

كلمـــا أرســـلت آمـــالي إلى الأفـــق المديـــد

ردت الـــروح يـــد اليـــأس فشـــدت بالقيـــود

وتلفـــــتُّ فـــــلا نـــــور ولا قلـــــب يغـــــني

أو من قصيدة "أسداف"

صدف الناس عن شكاتي وقالوا نفثـــات لشـــاعر مكـــروبِ

فنزفت الجراح في فجة الصمت وذوبـــت فيَّ دائـــي، نحيـــي

شـــزَرا أرمـــق الحيـــاة فتصـــلي بحديـــد مـــروع ولهيـــب

بهجـــتي بـــددت رمـــادا وقلـــبي في فجاج الأسى حطام خطوب

ومن قصائد الحب والعشق والفرح قوله في قصيدة "غناء"

أنا إن داعبـــــت أوتاري أرى العمـــــر غنـــــاء

وأرى الـــــدهر إذا أنشـــــدت آمـــــالا وِضـــــاء

فيغنيـــــني فـــــؤادي كيفمـــــا شـــــئت وشـــــاء

مزهـــــري قلـــــبي وأوتاري هـــــوىً ذاب صـــــفاء

والطـــلا لحـــني الـــذي يـــروي المحبـــين الضـــماء
ههنـــا العشـــاق أفنـــوا الليـــل ضـــما وعناقـــا

غمـــرتهم موجـــة الأحـــلام همســـا واشـــتياقا
فـــاملأ الكـــأس حبيـــبي وأدرهـــا نتســـاقى

خمـــرة تهفـــو لهـــا الأنفـــس وجـــدا واحتراقـــا
هـــاك قلـــبي هـــزه الحـــب برفـــق فأفاقـــا

وتمضي المجموعة كلها على هذا النحو من التعبير المجدد في الشعر في اليمن، في القوافي والأوزان، يستوحي من الشعر العربي أجمل صيغ محاولات بداية التجديد في الوزن والقافية والصور والموسيقى، يترقرق رقة وعذوبة وفنا صافيا لا ينشغل بدون الحب واللحظات المحلقة فوق مصاعب الحياة العملية، يحيا للحب وللفن، يغني ويعيش ناسكا في محرابه، يفرح ويحزن، يتفاءل وييأس، يسكره شهد الحياة ويأسره الجمال ويجتذبه التسبيح في محرابه. لا يرى له حياة غير التمتع والألم واليأس والحزن.

وفي مجموعته الثانية بعنوان "الدرب الأخضر" يخطو خطوة أخرى على طريق التجديد والتحرر من عبودية الوزن وتقاليد عمود الشعر العربي ويقترب من الشعر الحر. ففي قصيدته "طفل متسول" يمضي كأنه يستوحي تجربة بدر شاكر السياب في كتابة الشعر الجديد فيقول:

لا يا صغيري
كانت بلادي مرتع المتسولين
كانت وكنا مضغة المستعمرين
مستضعفين وواجفين

نستلهم الغيب البهيم

ونظل نرقد حالمين

بالغيب، بالغيب البهيم

ومواكب الأحرار تعبر في جنون

تطوي الحزون

وتفتت الأطواد شامخة

وتعصف بالحصون

وأنا وأنت والقبائل

والعشائر والبطون

نستلهم الغيب البهيم

متخاذلين وقانعين

متسولين

وهو في هذه المجموعة يغادر نزعته الشعرية التي تأخذ بمذهب الفن للفن، ليخوض في تجارب الحياة الاجتماعية ومعاناة الناس من حوله. ويناجي بلاده ويحثها على الانطلاق، في قصيدة غنائية شفافة غناها مُحَمَّد مرشد ناجي بلحن جديد بديع. أو يعبر عن انفعاله بغزو الفضاء وما يعكسه من تطور ومن قفزة معرفية وتكنولوجية إنسانية، أو يتحدث عن الشرق الجديد، أو يعبر عن ألمه ومعاناته حين طرده الاستعمار سنة 1951 إلى كينيا. ويواصل هذا الاتجاه الشعري في مجموعتيه التاليتين: "كانت لنا أيام" و"ليل إلى متى" التي توطِّدُ اتجاه التجديد الشعري. أما في مجموعته الأخيرة "إليكم إخوتي" فيغني للاجئين الفلسطينيين وينتحب مع الكارثة التي حلت بالعرب في يونيو 1967 ويحاكم الاستبداد والمستبدين، وينصف المظلومين ويعزف أعذب الألحان لبلاده.

الفصل الرابع

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

محمد أحمد نعمان

(النعمان الابن)

وتجديد اللغة السياسية

يعد مُحَّد أحمد نعمان سياسيا يمنيا مميزا قام بدور مهم في التغيير السياسي والدعوة إلى تجديد الفكر السياسي في اليمن الحديث. فقد جمع بين السياسي المحنَّك المحاور اللبق المناوِر من جهة، والمفكِّر السياسي المبتكِر للمفاهيم السياسية الجديدة، المبادِر الصريح من جهة أخرى، وهما صفتان إذا اجتمعتا كانتا مصدر تنازع وعدم رضى أو سوء فهم من قبل الآخرين أحيانا. اقتحمت السياسة حياته منذ الطفولة ولم تترك له أية فرصة لينعم بطفولة وادِعة. فقد التهمت طفولته ومراهقته واستغرقت كل حياته. ومع أنه تفتح على السياسة خلال مرافقته لوالده منذ الطفولة، كان من الذكاء بحيث صنع من تجربته المبكرة شخصيته الخاصة. فلم يكن مجرد ظل لوالده، بل كان منذ البداية ينظر إلى الأمور من زاويته الخاصة، ويجرِّب ويحاول ويجتهد كي يضيف شيئا جديدا إلى ما يعايش في حركة الأحرار منذ بدايتها.

ولم يكن من السهل الإضافة إلى الفكر السياسي اليمني في وجود عملاقين سياسيين هما أحمد مُحَّد نعمان ومُحَّد محمود الزبيري، ظلا خلال عقود من الزمن عنوانا لحركة الأحرار المعارِضة، ورمزا لكفاح اليمن من أجل التغيير، ومصدرا للانبعاث في كل مرة تصاب هذه الحركة بنكسة، وبذلك لم يكن بالإمكان تجاوزهما أو القفز فوق

تجربتهما، وحتى الإضافة إلى ما يقدمان من مفاهيم وأفكار. وظلت كل إضافة إما تنسب إلى ما يقدمان أو تحاول أن تنال من مكانتهما. وهكذا فإن تميُّز مُحَمَّد نعمان يقاس بالخطوات الصغيرة التي أضافها إلى مسيرة حركة الأحرار وبتوضيح بعض المفاهيم بأسلوبه الصريح المرتكز إلى خلفية ثقافية واسعة، ومرجعية فكرية ليبرالية محددة وصريحة.

ولد مُحَمَّد نعمان سنة 1933، حين كان والده منهمكا بإيجاد تجربة تعليمية جديدة في المدرسة التي أنشأها وأدارها في منطقته، بل كانت هذه التجربة التعليمية جديدة في اليمن كلها، بعد عودته من الدراسة في زبيد. وقد عمل بالتدريج لتطوير أساليبها التعليمية وجلب لها المدرس المجدد والكتب والمفاهيم التربوية من مستعمرة عدن. لم يكن الطفل مُحَمَّد نعمان بعد قد بدأ الدراسة على والده حين غادر أبوه اليمن ليخوض في معمعة طويلة من البحث عن طريقة للتجديد والتغيير، باحثا عن المعرفة وساعيا لإصلاح أحوال البلاد والتعريف ببلد مغلق معزول يعاني من الظلم والاستبداد. وقد ترك الأب فراغا كبيرا في حياة الطفل الذي ظل يشتاق إليه وينتظر عودته ليوفر له الحنان الأبوي ويساعده في الحصول على المعارف التي يمكن أن يحصل عليها.

وبعد تجربة قصيرة نسبيا من 1939 إلى 1940 قضاها نعمان الأب في مصر، في محاولة للدراسة والكتابة عن اليمن والمطالبة بالتغيير والإصلاح، عاد لينهمك في مغامرة أصعب تمثلت بالاقتراب من الأمير العنيف حاد الطباع وغريب الأطوار ولي العهد أحمد حميدالدين في تعز، الذي تجمَّع من حوله عدد من المستنيرين، منهم نعمان والزبيري، علهم يقنعونه بالقيام ببعض الإصلاحات التي تُخرِج البلاد من عزلتها وانغلاقها وتخلفها، بعد أن يئسوا من والده الإمام العجوز الغارق في الجمود والشك في كل من يطالب بتحسين الأمور في مملكة الظلام.

وقد كان لهذه التجربة القاسية في تعز أثرها على الفتى الذكي مُحَّد نعمان المتفاعل مع الظروف من حوله ومع تجربة والده، مع أنه كان ما يزال طفلا. وحين هرب والده ومعه الزبيري في سنة 1944 إلى عدن ليؤسسا حركة المعارضة المنظمة في حزب الأحرار، أسرع مُحَّد نعمان للالتحاق بوالده إلى عدن، وهو ما أتاح له الحصول على قدر من التعليم الحديث والبدء بدراسة اللغة الإنجليزية التي ستساعده في التعرف على مؤثرات ثقافية أخرى، إلى جانب معايشة تجربة والده ورفيق دربه الزبيري في حركة الأحرار، والاحتكاك بما تنشر صحيفة المعارضة "صوت اليمن"، بذهنه الصغير المتوقد بالذكاء والاستعداد للاستيعاب.

لكن هذه التجربة تنتهي بكارثة سقوط الحركة الدستورية في صنعاء واعتقال والده وهو في الطريق إلى العاصمة وسجنه في حجة. وعلى الرغم من الصدمة الكبيرة الذي مثله اعتقال والده وغيابه الطويل، كان مُحَّد نعمان من الشجاعة بحيث قَدِم إلى صنعاء للالتحاق بوالده في حجة، فتعرض للاعتقال في سجن الرادِع مع أن سنه لم يتجاوز خمسة عشر سنة. وحين أُفرِج عنه نظرا لصغر سنه التحق بوالده إلى حجة وأصبح هو نفسه أشبه بسجين أو بمن حددت إقامته في مدينة حجة التي كانت في تلك الأيام معزولة داخل العزلة المفروضة على مملكة الظلام، ومنفى حقيقيا بالقياس إلى مستعمرة عدن التي جاء منها أو حتى من تعز القريبة من عدن. وقد استفاد من هذه التجربة الصعبة من خلال الاحتكاك بعدد كبير من الأحرار المثقفين المستنيرين المسجونين في حجة والتفاعل معهم والتعلُّم منهم ومحاورتهم ومحاولة دفعهم للتفكير بمستقبل بلادهم وبما يقترحون من حلول ومن تصوُّرات للخروج من الكارثة التي حلت بالمعارضة المستنيرة وبالبلاد ككل.

ومما يستحق الملاحظة أن الآخرين كانوا ينظرون إلى مُحَّد نعمان (الذي كان ما يزال في تلك الفترة مراهقا) باعتباره قادرا على أن يقوم بدور ما في الاتصال بوالده في السجن ونقل رسائل سياسية. فهذا الأمير عبدالله بن يحي حميدالدين، الذي كان في

تنافس مع أخيه الطاغية الإمام أحمد، يطلب منه زيارته حين كان في صنعاء سنة 1952، وحين زاره طلب منه نقل رسالة سياسية إلى والده توحي بالاستعداد للتعاون مع الأحرار في المستقبل. يقول عن هذه الحادثة "اتصل بي سيف الإسلام عبدالله بواسطة أحد أعوانه الذي أبلغني سخط الأمير على الأوضاع ويرغب في مقابلتي والتفاهم معي نيابة عن والدي الذي كان منفيا في حجة... وذهبت لزيارة السيف عبدالله في منزله منفردا... أحسست أنه لا بد من صدام على نحو ما في يوم من الأيام"[113] بين الإمام أحمد وأخيه عبدالله، وهو ما حدث فعلا بعد ثلاث سنوات، وانتهى الأمير عبدالله قتيلا على يد أخيه سنة 1955. وهذه الحادثة دلالة على نباهة الشاب المراهق وعلى الاقتناع بقدرته على استيعاب الرسالة السياسية الخطيرة وكتمانها وإلا لما غامر الأمير بطلبه والتحدث إليه. وهي علامة نضج سياسي مبكر.

وقد أقام مُحَّد نعمان في حجة ليبقى بجانب والده السجين الذي نجح في التملص من سيف الجلاد أولا ثم في ترويض الطاغية ليُفرَج عنه ويعيش فيما يشبه الإقامة الجبرية محددا إقامته في حجة للاستفادة منه في مجال التعليم.

وظهرت براعة مُحَّد نعمان منذ تلك الفترة المبكرة، إذ أصبح طالبا في المدرسة ومساعدا لوالده في عملية التدريس ناقلا تجربته التعليمية في مستعمرة عدن إلى حجة وناشرا للأفكار المستنيرة. ومن هذه المدرسة نجح نعمان الأب في مساعدة طلبة للدراسة في الخارج مثل مُحَّد علي الشهاري وعلي حميد شرف ومُحَّد عبدالملك، ابن نائب الإمام في حجة، معتبرا تعلُّمهم وتفتُّحهم واستنارتهم نافذة لتسرُّب التعليم والاستنارة والأفكار الداعية للتغيير إلى منطقة كانت في تلك الأيام شديدة العزلة ومنفى للأحرار.

ويعد مُحَّد نعمان السياسي الوحيد في حركة الأحرار الذي اهتم بصياغة تصوراته وآرائه السياسية في نصوص مكتوبة عبر بها عما يجيش في صدره من آراء ورؤى. وزاد

---

[113] محمد أحمد نعمان، الأعمال الكاملة، ص. 194 . 195.

على ذلك أن كتب آراءه بصراحة تامة على غير عادة السياسيين الذين لا يقولون كل شيء بالتفصيل ويحتفظون لأنفسهم بهوامش للمناورة وبخطوط للتراجع أو المراوغة. وهو السياسي اليمني الوحيد الذي ترك تراثا مكتوبا إذا استثنينا أستاذه في السياسة مُحَّد محمود الزبيري الذي كان شاعرا سياسيا، أي أنه مارس السياسة بأحاسيس الشاعر المرهف وانفعالاته. فقد كان مُحَّد نعمان السياسي المثقف الذي ترك عددا من المؤلفات السياسية، فيها الكثير من الأفكار السياسية التي تحاول تجديد التفكير السياسي لحركة الأحرار المعارِضة.

لم يكن مجرد ناشط سياسي ينفذ ما يصدر عن قيادة الأحرار من قرارات ومن سياسات وإرشادات، بل كان دائما يحرص على أن يجتهد ويفكر ويبتكر ويقترح ويضيف بصمته الخاصة إلى المسيرة السياسية للمعارضة. وكان لا يتردد عن الجهر بآرائه حتى لو لاقت اعتراض العناصر التقليدية في المعارضة، لأن ذهنه كان متجددا، وكان كثير الإقبال على القراءة والاطلاع وتعميق ثقافته في حين كان معارضوه من التقليديين الذين لا يستطيعون مجاراته في تجدده واجتهاداته. كانوا كسولين وعاجزين في حين كان كثير النشاط والحركة. ولذلك وصفه بعض من عرفوه وأعجبوا بنشاطه، مازحين، بأنه "طاقة لا تطاق"، ووصفه آخرون بأنه الدَّوامة أو العاصفة.

ومن علامات نبوغ مُحَّد نعمان المبكر في يمن غارق في الظلام والتخلف أنه فكر بوضع أسئلة ووزعها على أحد عشر شخصا من الأحرار الدستوريين المسجونين في حجة طالبا منهم تقديم إجابات مكتوبة نشرها سنة 1963، أي بعد قيام الجمهورية، في كتاب بعنوان "من وراء الأسوار". ويمكن القول من استعراض الأسماء أن الشاب المراهق قد اختار أسماءً قدَّر أنها من الوعي والإخلاص للقضية ومن الثقة ما يجعله يغامر بهذا العمل السري معها، وأنه توسم أن يكون لها دور في مستقبل البلاد. وبالفعل كان من بينها من أصبح في العهد الجمهوري رئيسا للجمهورية مثل عبدالله السلال وعبدالرحمن الإرياني، ومن كان رئيسا للوزراء مثل والده أحمد مُحَّد

نعمان، ومن أصبح نائبا لرئيس الوزراء مثل عبدالسلام صبرة ومُحَّد نعمان نفسه، ومن أصبح وزيرا أو سفيرا مثل أحمد المروني ومُحَّد السياغي ومُحَّد الفسيِّل وأحمد المعلمي.

ومجرد التفكير باقتراح مناقشة مستقبل اليمن ووضع مقترحات تشبه برنامجا للتغيير، في فترة كانت فيها هذه الشخصيات في ظلمة السجن خاضعة لكل احتمالات تغيُّر مزاج الطاغية، أمر غير عادي. فبدلا من البحث عن وسائل تخرجهم من السجن ليعودوا إلى الحياة العادية، تجاوزوا السجان وأسوار السجن، وتصرفوا كأنهم مسئولين عن إخراج البلاد من سجنها وعما ينبغي فعله لتغيير واقعها وبناء مستقبلها. كما أن قبول هؤلاء السجناء لمبادرة شاب ما يزال مراهقا والثقة به للكشف عما يفكرون به من هموم سياسية لهو علامة على أنهم كانوا على ثقة به وبقدرته على كتمان السر وبإخلاصه للقضية التي دخلوا السجن بسببها.

وقد تركزت الأسئلة حول "كيفية بناء الأمة من جديد بعد أن باءت بالفشل وأخفقت محاولتها الأولى"[114]. وقد وضع الأسئلة ورتب الحصول على الأجوبة بطريقة سرية فأعطى لنفسه رقما سريا هو (34) وأعطى أرقاما للمشاركين وللموضوعات لضمان عدم كشف هوية السائل وحماية من يجيب، وجمع المادة خارج السجن وحرص على عدم تسربها مما يجلب الضرر للمساهمين في المناقشة، واحتفظ بها في ظروف صعبة تواجه شابا في مقتبل العمر حتى تمكن من نشرها في بيروت سنة 1963 بعد أن قامت الجمهورية وأصبح أحد المشاركين في هذه المناقشة السرية، عبدالله السلال، أول رئيس للجمهورية.

ومع أن الكتاب قد نشر الإجابات دون أن ينشر النص الحرفي للأسئلة كما طرحت في حينها، يمكن تلخيص تلك الأسئلة من الإجابات المنشورة في نقاط محددة هي:

---

[114] نفسه، ص. 201.

– تطلب الأسئلة رسم الخطوط الرئيسية لبناء مستقر "ترتكز عليه حكومة صالحة للحياة، تقوم على أساسه أمة تستطيع أن تشارك العالم في بناء الحضارة... ومعنى هذا وضع دستور منظم".

– "ما ذا نريد؟ كيف وبمن نسوس الشعب" وكيف نبني حياته، ومن هم رجال الحل والعقد؟ وما هو نوع الحكم المطلوب؟

– هل كان موقف الحكام طبيعيا مع الأحرار وهل كان موقف الأحرار من الحكام طبيعيا؟

– السؤال عن قيادة حركة الأحرار، من القائد أو القيادة المؤهلة لقيادة حركة التغيير؟

– كيف نعيد تنظيم المعارضة من جديد ونبني مستقبل الشعب، وبأي الطرق والوسائل؟ بمعنى آخر، ما هو البرنامج المطلوب؟

– كيف يمكن لليمنيين أن يعتمدوا على أنفسهم ولا يعيشوا "على فضل الآخرين"[115]؟

لقد كان مُحَمَّد نعمان وهو في ذلك السن المبكر يقض مضاجع الأحرار المسجونين ويلاحقهم ويصدهم عن اليأس والقنوط والإحباط في أجواء الكارثة التي حلت بهم وبشعبهم، ويدفعهم إلى عدم انشغال كل منهم بتخفيف القيود عن قدميه وبتوفير الحد الأدنى من وسائل البقاء على قيد الحياة، ويكرر السؤال الصعب في تلك الظروف: "ماذا نريد؟". لأن مجرد محاولة التفكير بهذا السؤال ترياق ضد الانهيار وضد اليأس والقنوط. يريد منهم أن يفكروا في مقام التفكير فيه بما عدا مقاومة الانهيار والموت ضرب من المغامرة التي تحتاج لإرادة قوية وجسد قادر على تحمل مشقات السجن. يريد منهم أن يفكروا وأن يستخدموا عقولهم التي أراد الجلاد سحقها، فيكتسبوا قيمة تتجاوز أسوار السجن إلى الطموح النبيل لبناء عالم أفضل لليمنيين. ولا توجد طريقة لتحريرهم معنويا من الأغلال الواقعية التي تكبلهم ومن السجن الذي

---

[115] نفسه، ص. 240.

يحاصرهم سوى التفكير بأنهم طليعة شعب يسعى لتغيير واقعه وبناء حياة أفضل لأبنائه. ولا يوجد في السجن ما يمكن عمله لتحمل هذه المسئولية النبيلة سوى التفكير بوضع خطة عمليه لبلوغ هذا الهدف النبيل، أو برنامج سياسي يسعى للتغيير. فمجرد التفكير بهذا البرنامج يعطي لوجود الأحرار المسجونين معنى، ويجعلهم يشعرون أنهم أصحاب رسالة لا يتخلون عنها حتى وهم يعانون أشد المعاناة وغير قادرين على تحرير أنفسهم من السجن. ومجرد تواصل مُحَمَّد نعمان معهم والطلب منهم أن يفكروا بمستقبل البلاد يوفر لهم نافذة تجعلهم يخرجون معنويا من السجن ليفكروا بواقع الشعب المظلوم ويقترحون الحلول التي تحرره من الفقر والجهل والمرض. وهكذا يكون التفكير بالقضية التي سجنوا من أجلها نوعا من التحرير المعنوي لهم من عذابات السجن.

لا يهم هذه السطور ما ذا اقترح كل منهم من إجابات. بل المهم وما يكتسب مغزى تاريخيا هو أن عجلة التفكير بالقضية العامة التي يضحي المساجين المشاركون من أجلها قد دارت، وأن النقاش قد عاد فيما بينهم، مما يجعلهم يشعرون بأنهم موجودون وأنهم جزء من قضية عظيمة تستحق أن يضحوا من أجلها، ويحررهم من شعور كل منهم بالوحدة داخل ذاته، والعزلة عن رفاقه في السجن، ويعيدهم للتفكير بالقضية العامة.

تعطينا الإجابات التي جمعها مُحَمَّد نعمان صورة واقعية عن التفكير السياسي للأحرار في تلك الفترة الصعبة، تستمد أهميتها من الظرف الذي كتبت فيه داخل سجن حجة، ونوعية الشخصيات المشاركة، والحالة النفسية التي كانوا فيها، وحقيقة ما يفكرون به وهم في غياهب السجن مصدومين ومنهكين من هول الكارثة التي حلت بهم وبقضيتهم وبشعبهم، تؤرقهم ذكرى رفاقهم الذين أعدموا أو الذين تشردوا وتمزقوا. والأهم أنها تعكس إصرار الأحرار على التماسك والتفكير بالغد وتكرار المحاولة بعد الفشل الذريع. يقول نعمان الأب في إجاباته: "ولا شك أن الفشل هو

سلم النجاح إذا واصل المرء كفاحه ونضاله ولم يستسلم لليأس"[116] مع أن اللحظة كئيبة ومحبطة ولا تبعث على التفاؤل.

وكمقدمة للشروع في الإجابة على الأسئلة التي طرحها يشرح لماذا ينبغي أن يكرروا محاولة التغيير فيقول إن الأحرار كانوا قد استعرضوا حال البلاد ودرسوها فوجدوها منكوبة بالجهل والفقر والمرض، وحاولوا أن يلفتوا نظر القائم على حكمها إلى ضرورة إنقاذها مما تعانيه بأسلوب التلميح وعدم الاصطدام بالحاكمين، فلم يجدوا استجابة فتلفتوا من حولهم في الداخل يتحسسون ويتلمسون لعلهم يجدون من يشاركهم الشعور بوجوب العمل لتخفيف المحنة، ووجدوا الكثيرين يتألمون سرا وجهرا إلا أنهم لا يعملون شيئا لمواجهة الظلم، والبعض يكتفي بالأمنيات ولا يفكر بالعمل والتضحية[117]. والبعض رأى أن الحل تحقيق الحكم الدستوري وإن كان الحكم الجمهوري الذي يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه هو أفضل نظام للحكم"[118] لكن هذا البعض يحذر من أن الشعب لن يقبل هذا الحكم ولذلك يقترح التدرج والاكتفاء بالحكم الدستوري المبني على الشورى"[119].

تكشف دراسة مقارَنة بين آراء كل من الشخصيات المشاركة في تلك المناقشة في الماضي والحاضر إلى أي حد تطورت ونمت تلك الآراء بمرور الزمن أو تراجعت، ولكن هذا ليس موضوعنا هنا. ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى دور مُحَّد نعمان الثقافي في تطوير لغة السياسة وتغييرها، وفي تجديد تفكير الأحرار السياسي. إنه يضع الأسئلة ويطرح تحدي كل شخص لنفسه ليعرف لما ذا دخل السجن وما ذا ينشد من تغيير لبلده. إنه يشحذ الهمم، ويحض على التفكير، ويدعو لتحديد ملامح المعارضة التي دخلوا السجن بسببها. بمعنى آخر إنه يطرح عليهم موضوع التخطيط والبرمجة لنضالهم

---

[116] نفسه، ص. 210.

[117] نفسه.

[118] نفسه، ص. 221.

[119] نفسه.

ولمسيرة حركة الأحرار، حتى لا يجد السجين نفسه نزيل السجن لا يعرف لماذا وماذا يريد. كما ينبه إلى ضرورة أن يتبادل الأحرار الآراء فيما بينهم ويتناقشوا لإيجاد رؤية مشتركة تجعلهم على بينة من أهداف نضالهم وغايات كفاحهم. وهو موضوع في غاية الأهمية، يدل على أن نعمان الابن كان من الذكاء بحيث يحدد مكمن النقص في حركة الأحرار ويدعو إلى تجاوزه أو على الأقل البدء بالعمل للوصول إلى تجاوز هذا النقص.

لكن أهمية هذا الكتاب الذي يجمع الإجابات أنه يشير إلى اهتمام مُحَمَّد نعمان المبكر بالأدب السياسي وبالكتابة وبأن يكون لا سياسيا فحسب، بل سياسيا مثقفا يضع آراءه بصراحة ودون غموض على الورق، ويتجادل حولها مع الآخرين، وينشرها كلما أتيحت له الظروف. وهذه بالضرورة ليست طريقة السياسي الذي يميل إلى الغموض ولا يكشف عن أوراقه مسبقا، بل يترك لنفسه مساحات كافية من الغموض وعدم التحديد ليتخذ المواقف الجديدة وفقا للظروف والمتغيرات وتغير المصالح التي يدافع عنها. أما هو فيرى أن "الغايات المبهمة تحشر الساعين حشرا، فيسير كلٌ بوحي من أغراضه، وربما وضع العراقيل والأشواك، بل الخنادق في طريق الآخرين، إما عن قصد أو عن غير قصد... ولهذا فإني أنادي وأطلب بإلحاح الإبانة عن كل غرض وأساليبه (الأساليب الموصلة إليه) حتى نسير ونحن مطمئنون... حتى نعرف أنفسنا ونتفهمها فنسير ونحن واثقون من أنفسنا لا نخشى أن يطعننا أحد من الخلف"[120].

ويضيف في كتاب بعنوان "أزمة المثقف اليمني" أن المناقشات التي احتواها كتاب "من وراء الأسوار" لم تتوصل إلى إجابات مقنعة يرضى عنها للسؤال الذي طرحه على المسجونين في حجة، وظل السؤال مطروحا والإجابات مفتوحة، وقال إنه ظل يطرح هذا السؤال دائما على من يلتقي بهم من الأحرار وفي كل النشاطات، في

---

[120] نفسه، ص. 250 . 251.

الاتحاد اليمني وفي الجبهة الوطنية المتحدة وفي الصحافة وفي كل المنتديات، وإنه كان مهموما بصياغة البديل للنظام الإمامي المستبد.

وبوحي من تجربة مُحَّد نعمان في طرح الأسئلة على المثقفين المستنيرين في السجن وجمعها ونشرها، قام أحمد المعلمي الذي كان أحد من أجاب عن أسئلة مُحَّد نعمان، بطرح أسئلة على مجموعة من المسجونين، بعضهم ممن أجاب على أسئلة نعمان مثل أحمد المروني ومُحَّد الفُسيّل ومُحَّد أحمد صبرة بالإضافة إلى المعلمي نفسه، مضيفا أحمد مُحَّد الشامي الذي لم يستجوبه نعمان، ربما لأنه لم يكن على ثقة بأنه سيكتم السر ويحرص على أمن الأحرار. وما يجعل هذا التوقع في محله أن أحمد الشامي خرج من السجن وقد تخلى عن حركة الأحرار وظل معاديا لها قبل الجمهورية وبعدها.

لكن كتاب المعلمي لا يشترك مع كتاب نعمان إلا في طرح الأسئلة على المساجين وجمعها لطباعتها فيما بعد. أما الأسئلة نفسها فقد ابتعدت عن السياسة وركزت على معرفة تعليمهم ومصادر تكونهم الثقافي وتطور فهمهم للأدب وتجربتهم الشعرية. وهو كتاب ليس فيه مخاطرة ولم يحتج للتخفي وراء رموز وأرقام لحجب أسماء المشاركين وتجنيبهم أي أضرار أو مضاعفات تؤدي إلى تغليظ عقابهم وزيادة معاناتهم. وقد نشرت هذه السير الثقافية الموجزة في كتاب بعنوان "من سجن حجة – ثوار وثورة 1948" لكن نشرها تأخر حتى بادرت "مؤسسة العفيف الثقافية" بنشرها سنة 2004.

ويوضح مُحَّد نعمان، السياسي الليبرالي، في كتابه "أزمة المثقف اليمني" الصادر عام 1964 أنه لم يجد الإجابة المحددة والشافية على سؤال ما هو البديل الصالح للنظام السابق حتى بعد قيام الجمهورية، وأن نشره لكتاب "من وراء الأسوار" وكتابه الجديد "أزمة المثقف اليمني" محاولة جديدة للإجابة الضرورية عن هذا السؤال.

وقبل أن يشرع في عرض ما يراه "أزمة المثقف اليمني" يقدم تعريفه لهذا المثقف اليمني بقوله: "المثقف اليمني في عرفنا هو من أوتي حظا من الفهم والدراسة يمكنه من التعبير عن الرغبة التي تجيش في نفوس الجماهير لتطوير أوضاع اليمن والخروج بها من عزلتها عن العالم المتحضر، وإعادة صياغة العلاقات الاجتماعية والسياسية على أسس عادلة بين مختلف فئات الشعب"[121]. ويعبر عن عدم رضاه عن عدم التغيير الذي ينشده عند قيام الجمهورية بالقول إن "التناقض الحقيقي الذي ظهر بوضوح عند قيام الجمهورية هو التخلف الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه البلاد"، وكأنه يريد أن يقول لا يكفي أن نغير إماما برئيس جمهورية، بل ينبغي أن يشمل التغيير جميع مناحي الحياة بما يؤدي إلى القضاء على التخلف الذي هو التناقض الأساسي وما ينبغي مواجهته.

[121] محمد أحمد نعمان، الأعمال الكاملة، ص. 269.

الدعوة إلى الجمهورية

والحقيقة أن مُحَّد نعمان قد كان مجتهدا يحاول التجديد في فكر الأحرار حتى لو اختلف مع قيادة حركة الأحرار المعارِضة ممثلة في الدرجة الأولى بوالده وبالزبيري. وليس أدل على ذلك من أنه في سنة 1956 توصل إلى قناعة بأن طريقة حركة الأحرار المعارِضة، والتي تستند إلى ضرب إمام طاغية بإمام آخر على أن يلتزم بدستور يحدد المسئوليات والعلاقات بالمواطنين، لا يمكن أن تستمر ولا أن تنجح. ولذلك قال "نعم. إنني أريد الجمهورية في بلادي. أريد أن ينتهي التوريث للبشر في بلادي. أريد أن يشعر الحاكم حقيقة لا مجازا أنه يخدم مواطنيه وأنه موظف لديهم لمدة محدودة، يعمل أجيرا لديهم في إدارة شئونهم العامة، لا إلها متجبِّرا يهب الحياة لمن يشاء ويُطعم سيف (الوشاح)[122] من يريد. أريد تغيير نظم لا تغيير أشخاص"[123].

وقد كان هذا الرأي مصدر خلاف بين مُحَّد نعمان ومن معه من شباب المعارضة الممثلة بالاتحاد اليمني من جهة وبعض زعامات المعارضة، وبخاصة في مستعمرة عدن الذين اعترضوا على هذا الطرح واتهموا مُحَّد نعمان بالتطرف والجنون واستخدموه ذريعة للانشقاق عن الاتحاد اليمني. وقد كان رد مُحَّد نعمان قاسيا على من اتهموه بالتطرف.

حيث قال: "ألا فاسمعوا أيها المتعبون، ممن يرون أن معركة الحياة والموت بالنسبة للشعب العربي في اليمن محصورة في حياة الإمام الموجود واختيار الشخص الذي

---

[122] الوشاح اسم السياف الذي كان ينفذ أوامر الطاغية بإعدام المعارضين، وأصبحت المعارضة تستخدمه كرمز للطغيان.

[123] نفسه، ص. 34 . 35.

يخلفه، يا من عجزوا اليوم عن احتمال مشقات الكفاح والنضال، إنكم على أبواب القبور. وإذا كنتم ترتبون لأنفسكم مراسيم الجنازة فتذكروا أنكم أنتم وحدكم الذين تسيرون بخطوات واسعة نحو القبور فلا تحفروا قبرا لكل أبناء الشعب". وقد استدعى الأمر تدخل الزعامة التاريخية للأحرار ممثلة بالنعمان الأب والزبيري، وتم سحب مُحَّد نعمان من عدن إلى القاهرة للتخفيف من حماسته لإثارة مواضيع تؤدي إلى الانقسام وتثير الخلافات في أوساط المعارضة، واعتبرا أن موضوع الجمهورية من الموضوعات المتطرفة التي لا فائدة من نقاشها في ذلك الوقت.

لكن المطالبة بالجمهورية قد لاقت تأييد بعض شباب المعارضة. فهذا محسن العيني في جوابه على جنوبيين يقولون لا يمكن الوحدة مع مملكة الظلام يقول في كتابه "معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن" الصادر سنة 1957: "هيا بنا يا رجال نوحد النضال في سبيل جمهورية شعبية يتساوى في ظلها المواطنون، فلا تابع ولا متبوع ولا سيد ولا مسود. هيا بنا نؤسس الجمهورية، جمهورية اليمن"[124].

ويشير علي مُحَّد عبده إلى أنه عند وصول نسخ من كتاب محسن العيني "معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن" إلى عدن بعد صدور الكتاب سنة 1957 طلب منه مُحَّد نعمان إعداد عرض للكتاب بعنوان "أول دعوة للجمهورية في اليمن". وقد نُشِر هذا العرض في صحيفة "الفكر" التي كانت تصدر في عدن. ونشر صالح الدحان مقالا في الصفحة الأخيرة من صحيفة "اليقظة" يتحدث عن الدعوة للجمهورية[125].

وفي عام 1959 كرر مُحَّد نعمان هذه الدعوة للجمهورية في كتابه الصادر عن الاتحاد اليمني، القائد لحركة الأحرار المعارِضة، حين ربط بين الوحدة الشعبية والحكم الجمهوري قائلا: "أما النص على أن الوحدة شعبية فذلك اتقاءً للدعوى بأننا نطالب بتوحيد اليمن تحت التاج الإمامي أو التاج البريطاني، وهو تأكيد على أن الوحدة لا

---

[124] محسن العيني، معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، ص. 158.

[125] علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، ج2، ص. 145 . 147.

يصنعها غير الشعب نفسه باقتناعه الواعي وسعيه البصير... ونحن حين نجعل وحدة قطر اليمن مرتكز نضالنا السياسي فإنما نفعل ذلك انسجاما مع مواقفنا في معارضة الدستور (الخاص بمستعمرة عدن) وقانون الانتخابات وتعريف المواطنة ومشروع التعدين (نسبة إلى عدن)"[126].

وهذا النص الصادر باسم الاتحاد اليمني، المؤسسة التي تجمع حركة الأحرار المعارِضة، ومن عدن نفسها، مهم تاريخيا لأن الحركة كانت تتهم بأنها إما تهادن البريطانيين لتضمن لنفسها القدرة على المعارضة وتأمين طريق للتواصل مع الداخل وتسريب المطبوعات والناشطين وغير ذلك، ويصل البعض إلى حد اتهام الحركة بأنها كانت على صلة ما بالبريطانيين في عدن[127].

وقد أثبت التاريخ أن مطالبة مُحَمَّد نعمان ومن معه من شباب المعارضة المستنيرين بالجمهورية كانت صادرة عن رؤية عميقة لتطورات الأحداث في اليمن وفي العالم العربي وفي العالم، وأنهم لم يكونوا يطلقون كلاما فارغا بلا معنى، فلم يمض سوى ست سنين، وهي فترة قصيرة جدا بمقياس تاريخ الشعوب، حتى قامت الجمهورية التي اعترض عليها الكثير من رجال المعارضة معتقدين بنظرة سكونية للتاريخ أن حدوثها مستحيل، وفي أحسن الأحوال أن الدعوة إليها سابقة لأوانها.

ومرة أخرى وجد مُحَمَّد نعمان نفسه في موقع المعارضة لجمهورية رأى أنها لا تتفق مع رؤيته الليبرالية للحكم. فقد كان القائد السياسي الجمهوري الذي لا يخفي انحيازه إلى الليبرالية الغربية وللاقتصاد الحر، وللتوافق بين جميع القوى صاحبة المصلحة في التغيير الجمهوري. وكان من الشجاعة والثقة بنفسه بحيث لا يخفي قناعاته الفكرية الليبرالية في السياسة والاقتصاد في وقت سادت فيه الأفكار القومية واليسارية ليس في

---

[126] نفسه، ص. 89.

[127] أبو بكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية، ص. 51 . 52.، عبدالله البردوني، اليمن الجمهوري، ص. 339 وص. 368.

اليمن فحسب، بل في العالم العربي، وبخاصة في فترة صعود قيادة جمال عبدالناصر لحركة التحرر العربي. وسادت في تلك الفترة فكرة الاقتصاد الموجَّه والتخطيط الشامل الذي رافق مفهوم رأسمالية الدولة التي تملك كل شيء أو تملك الكثير من مرتكزات الاقتصاد الوطني. وكان مؤمنا بالليبرالية الغربية في مجال الحكم والتمثيل الشعبي حتى لو اتخذ طابع تمثيل المناطق والفئات الاجتماعية بوجاهات نافذة. وورث عن أبيه رفض الحكم الفردي حتى لو استظل بشعارات ثورية. وكان ينفر من الحكم العسكري عموما ويميل إلى الانتخابات ووجود حكومة مسئولة أمام مجلس منتخب يمثل الشعب بصرف النظر عن التسمية (مجلس شورى، مجلس نواب، إلخ.).

ولذلك كان محل نقد شديد من جميع الاتجاهات السياسية، من المشايخ لأنه ضد الامتيازات الموروثة والمنتزعة بغلبة السلاح، ومن الضباط المستندين إلى القوة لأنه سياسي مدني يقف صراحة ضد غلبة القوة المسلحة على الحكم، ومن القوميين واليساريين لأنه يدعو إلى سيادة الثقافة الليبرالية الغربية والاقتصاد الحر، ومن المستفيدين من الحرب لأنه بطبيعته غير مسلح ونصير لسلام متفق عليه بين جميع "الأطراف المعنية".

ولأنه داعية سلام ويرفض مواصلة الحرب، كان أحد ممثلي الجمهورية في لقاء بين القوى الجمهورية والمعارضة الملكية المسلحة، عقد سنة 1964 في إركويت في السودان، للبحث عن سبل لإيقاف الحرب. فقد كان رجلا مدنيا لا يميل إلى استخدام السلاح للتغلب على الآخرين، وكان دائما حريصا على تحقيق السلام الذي يرعى مصالح الجميع، بمن فيهم الجماعات المحاربة للجمهورية. وكان يطالب باتفاق سياسي يشركها في إدارة البلاد على أن لا تقصي القوى الأخرى غير المسلحة وغير المقاتلة. ولأنه كان مفكرا سياسيا إلى جانب كونه رجل سياسة، أطلق على هذه العملية مصطلح "الأطراف المعنية" فكان أول سياسي يمني يطرح هذا المصطلح ويدافع عنه ويطالب بتطبيقه، وقد لاقى في سبيل ذلك الكثير من النقد ومن الهجوم عليه

واتهم بأنه طائفي لأنه يريد إشراك الجميع في إدارة الدولة وفي تحمل مسئولية تحديد مسار الجمهورية.

وقد لاقى كتابه "الأطراف المعنية في اليمن" الصادر في مطلع سنة 1966 نقد قاسيا ودحضا لما طرحه في هذا الكتاب المنطلق من مفاهيم سياسية ليبرالية لا يتفق الكثيرون معها فقال: "هناك من يعمد إلى إثارة المشاعر ضد المواقف التي يرفضها داعيا لإنكار شرعيتها، حاملا على صانعيها، ... وإثارة للآخرين ضدهم. وسواء قُدِّر لمن ينهج هذا السبيل النصر أو الهزيمة في محاولته تلك، فإنه لا يتراجع عنها ولا يرتضي لها بديلا. فإن انتصر فبطل، وإن انهزم فشهيد كريم.... وهناك من يستبد به إحساسه بالعجز وتشبثه في الوقت ذاته بالوقوف على أرض المسرح ولو كلوحة قانعا من الأمر بالسلامة... وبين الأسلوبين، أسلوب الرفض والقبول درجات"[128].

ويحول مصطلح "الأطراف المعنية" إلى نظرية سياسية يعرضها قائلا: "إن اعتماد أحد أسلوبي الرفض المطلق والقبول المطلق لا يؤدي عادة إلى الحلول السليمة، لأن رفض الواقع وفرض نظرية معينة وحلول وفق الأحلام ضرب من الخيال والهوس. والاقتناع بالواقع السيئ الأليم والتلاؤم معه دون التأثير فيه خضوع واستسلام لا يليق بالإنسان". ويرى أن المعالجة السليمة تراعي الواقع كأساس قائم مع تغييره نحو الأفضل وفقا لأحلام من يعملون لتطويره. فمثلا، يرى أنه إذا كان البعض قد استأثر بالسلطة في الماضي فإن على الجمهورية ألا ترد على الإقصاء بإقصاء مناقض، لأن الاستئثار بالسلطة سيِّئ ويجب ألا يمارسه أحد. وكان في اليمن فئات اجتماعية واسعة تعرضت للغبن فهل نرفع الظلم عنها على حساب الآخرين؟ ويجيب على هذا السؤال بالرفض ويطالب بالاعتراف الواعي بحقوق جميع الفئات بلا استثناء على أساس المواطنة، وعلى أساس أن الأرض اليمنية وجدت قبل وجود كل فئة على حدة، وقبل كل المذاهب. يقول "من أجل استمرار وجودنا كبشر على أرضنا، كشعب وكوطن، يجب

[128] نفسه، ص. 325.

أن تُحوَّل الأطراف المعنية إلى طرف موحد الشعور والوجدان ينطلق بطاقاته للبناء والتعمير، ... بدل استنزافها في أعمال الفناء"[129]، أي في الحرب والتقاتُل.

لكن المعضلة الحقيقية التي واجهها ليس مُحَّد نعمان وحده، بل حركة الأحرار المعارِضة كلها، أن الجمهورية قد تحققت على أيدي ضباط صغار، على الرغم من تأثرهم بدعوة الأحرار للتغيير وبمنشوراتهم وبشعر الزبيري، كان لهم رؤيتهم الخاصة لنوع الحكم الذي يريدون تطبيقه، وللجمهورية التي غامروا وضحوا من أجل قيامها، وهي رؤية لا تتفق تماما مع ما طرحه الأحرار الذين فاجأتهم الجمهورية كما فاجأت الكثيرين في الداخل والخارج. كما أن الجماهير التي تدفقت على عاصمة الجمهورية من الداخل والخارج قد كان لها مطالبها وشعاراتها وحاجاتها التي تتجاوز أحيانا ما يفكر به الأحرار. وزاد الأمر تعقيدا لأن اندلاع الثورة المضادة وتوسعها وتدفق القوات المصرية المساندة لصمود الجمهورية قد خلقت وضعا جديدا لم يكن في حسبان الجميع.

وهكذا تغيرت المعطيات وفرض كثير من الوقائع الجديدة نفسه على واقع الجمهورية وعلى دور الجهات المختلفة. ووجد الأحرار القدامى، ومنهم مُحَّد نعمان، أنفسهم في موقع المعارضة الجمهورية مع تأييدهم للنظام الجمهوري الذي تمنوه وعملوا من أجله. ولذلك أصبحت جميع كتابات مُحَّد نعمان اللاحقة لقيام الجمهورية التي طالب بها ويؤيدها تنطلق من موقف المعارضة لما يجري داخل الجمهورية. وحتى حين انسحبت القوات المصرية من اليمن وانتهت الجمهورية الأولى وبدأ حصار صنعاء، اتخذ نعمان الأب والابن موقف المعارضة الداعية للمصالحة وتحقيق السلام، معتقدين أن ما حدث في 1948 من سقوط الحركة الدستورية سيتكرر في سنة 1967، فبقيا في الخارج في انتظار تكرار ما فعله الزبيري حين خرج بأعجوبة من صنعاء سنة 1948 ليعيدا إحياء حركة المعارضة من جديد. وقد كانت هذه التقديرات من

[129] نفسه، ص. 328.

علامات الابتعاد عن الواقع الجمهوري الجديد وعدم إدراك أن الجمهورية قد أوجدت قواها الجديدة القادرة على تثبيتها دون حاجة إلى قوى خارجية لتتدخل عسكريا لمساندتها.

وما أن جاءت المصالحة بين الجمهورية والجيران في سنة 1970 حتى عاد النعمان الأب والابن، وشاركا في قيادة الجمهورية الثانية ومحاولة تنفيذ رؤيتهما للجمهورية ولمهامها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وحين أُعلنت الجمهورية الثالثة في 13 يونيو 1974 وانتقلا للإقامة في بيروت تعرض مُحَّد نعمان للاغتيال في أواخر ذلك الشهر، فكان غيابه خاتمة مسيرة كفاحية لهما معا، لأن مُحَّد نعمان كان قد برز وأصبح بمثابة القبس الذي يضيء طريق والده المعارض العنيد.

الفصل الخامس

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

إصـدارات رائـدة

أثَّرَت في تكـويننا الثقـافي

في مواجهة شدَّة العزلة والانغلاق، أصبح أي كتاب يؤلفه يمني ويطبع ويوزع ليصل إلى أيدي القراء اليمنيين أشبه بمعجزة. لذلك كان يستولي على المثقفين اليمنيين الكثير من الحزن والألم لأن اليمنيين لم يصلوا إلى مرحلة المشاركة في الثقافة العربية، وكان لدى القراء حسرة لكون اليمنيين قد عاشوا من حيث الإنتاج الثقافي عالة على غيرهم وظلوا زمنا طويلا مجرد مستهلكين في الثقافة العربية.

ويشكو عبدالرحمن الإرياني حين كان وزيرا للعدل بعد قيام الجمهورية من أن "المكتبة العربية خالية تماما من مؤلف منهجي حديث في تاريخ اليمن القديم، اضطلع به بحثا وتنقيبا ثم تنسيقا وتأليفا واحد من أبناء اليمن المثقفين، وكم تكون خيبة الأمل عظيمة عند الباحث الحديث حينما يجهد جهده بحثا عن مثل هذا الكتاب، ثم ينكشف له في النهاية أن رفوف المكتبة العربية وخزائنها خالية مما يبحث عنه"[130]. ويكاد يكون هذا نفسه ما يشكو منه عبدالعزيز المقالح في منتصف السبعينات في مقدمته لكتاب أبو بكر السقاف الرائد بعنوان "دراسات فكرية وأدبية" حيث يقول "ما نزال نعاني من الإفلاس والفقر الثقافي، باستثناء بضعة كتب تعد على أصابع اليد الواحدة ومجموعة من المقالات المتفرقة في الصحف وفي المجلات، فإننا ما نزال ندور في حلقة مفرَّغة، (ونعاني) من الفراغ والخواء، وما يزال بعيدا جدا زمن المشاركة، ولا أقول

[130] انظر مقدمة القاضي الإرياني لكتاب أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص. 1.

زمن الاكتفاء، وأقصى ما تصل إليه الشعوب في هذا المجال مرحلة المشاركة. لقد عشنا عالة على غيرنا زمنا طويلا مجرد مستهلكين في الثقافة كما نحن مجرد مستهلكين في أشياء أخرى.[131]".

ويعبر عن الأمل في أن "نَعبُرَ إلى داخل التيار المتطور من الحياة وألا نكتفي بالاستهلاك والفرجة. صحيح أن الكتاب – أي كتاب – هو ملك للبشرية ووثيقة تاريخية لتجاوز عصور الأمية والتوحش، وصحيح أيضا أنني أشعر بأن الكتاب الذي يصدر في القاهرة أو باريس أو موسكو أو الجزائر هو كتابي، لكن متى سأجعل الإنسان في القاهرة وباريس وموسكو والجزائر يحس أن الكتاب الذي يصدر في صنعاء هو كتابه، وأن صنعاء قد أصبحت تشارك في ملء فراغ صفحة من كتاب الرؤية الشاملة لإنسان الزمن الجديد"[132].

وقد ظل هذا الإحساس بأن اليمن تجد صعوبات كبيرة في الخروج من سجن الماضي، والتحرر من قيود العزلة الثقافية للمشاركة في حركة الثقافة العربية، يثقل كاهل المثقفين اليمنيين الرواد، ويجعلهم دائما يبحثون عن بادرة للاعتراف بأن اليمنيين بشر مثل غيرهم، ولديهم قدرات على قول الشعر وكتابة النثر مثل غيرهم من البشر، وأن فرض الطغاة للجهل والفقر لم يجردهم من إنسانيتهم. ولذلك كانت الكتابات الأولى للكتاب التقليديين تفرح إذا عثرت على إشادة باليمن هنا أو هناك عند الرحالة الذين زاروا اليمن مثل القول إن إب خضراء وخصبة، وأن العمارة في صنعاء جميلة ودُورها عالية، وأن في مارب آثار حضارات عريقة لسبا وغيرها من الحضارات اليمنية القديمة، أو بعض العبارات التي تجامل الطاغية وتمدح بعض جوانب حكمه، لكنهم يتجاهلون ما يعبِّر عنه الرحالة أنفسهم في كتبهم التي ينقلون عنها من نقد لجوانب القصور في

[131] انظر مقدمة عبدالعزيز المقالح لكتاب أبو بكر السقاف، كتابات فكرية وأدبية، ص. 7 . 8.
[132] نفسه، ص. 8.

نظام الحكم، ومن جباية جائرة للضرائب، ومن شيوع الفقر والجهل، وانعدام المدارس، وشيوع الأمراض، إلخ.

وظل الإحساس بالنقص في مجال الإنتاج الثقافي والمشاركة في الحركة الثقافية العربية الحديثة شائعا حتى عند الكتاب الحديثين، الذين يحاولون أن يستنهضوا همم اليمنيين للاهتمام بالتكوين الثقافي والبدء بعملية سد النقص والتعويض عن العجز الثقافي الكبير.

وحتى عند بعض الكتاب المحدثين والتقدميين، نجد دفاعا عن اليمن وردا على من يتهم اليمنيين بعدم المشاركة في الإنتاج العربي من شعر ونثر وقصة قصيرة وغيرها. فهذه مجلة الحكمة الناطقة باسم اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين تعلن منذ افتتاحية العدد الأول دفاعها المجيد عن إبداع اليمنيين ومشاركتهم في الثقافة العربية وتحاول ربما رفع الروح المعنوية لدى الأدباء والكتاب وحشدهم من حول اتحادهم العتيد.

ولذلك كان القراء يستقبلون صدور أي كتاب لمؤلِّف يمني بفرح كبير باعتباره حدثا تاريخيا يستحق الاحتفاء والإشادة به والإقبال على قراءته باهتمام كبير.

كما شاع في كتابات أوائل الإصدارات الرائدة الشعور بأن العزلة المفروضة على اليمن قد جعلت العالم يجهل اليمن ويحتاج إلى من يُعرِّفه بأن هناك في جنوب شبه الجزيرة العربية شعبا عربيا كانت له حضارات عريقة مثل سبا ومعين وقتبان وحمير وغيرها، وأنه ساهم في الحضارات الإنسانية وفي الفتوحات الإسلامية. وتجد في مطلع كل كتاب من هذه الإصدارات الرائدة بطاقة تعريف باليمن منذ عصور ما قبل الإسلام حتى العصر الراهن. وقد سرت هذه العادة الكتابية، التي ربما كانت ضرورية في البداية لتعريف القارئ اليمني وغير اليمني باليمن وبتراثه، وتواصلت حتى في بعض الرسائل الأكاديمية في الجامعات العربية وغير العربية، بحيث وُجِد ما كنا نسميها ساخرين عادة بدء كل رسالة أكاديمية بمقدمة "من سبأ إلى السلال"، وكنا نستغرب تكرار هذه العادة التي تستغرق جزءً كبيرا من أية رسالة أكاديمية بدلا من تركيز الرسالة

كلها على موضوع البحث المعلن. وهو ما يؤثر فعلا على قيمة الرسالة موضوع المناقشة. وكنا نستغرب ونقول "لما ذا لا يحيل كل كاتب القارئ إلى ما سبق أن كتبه آخرون في هذا الموضوع بدلا من شغل نفسه بموضوع ليس موضوع بحثه مما يجعله يمر على هذا التاريخ الطويل مر الكرام فلا يقدم فيه ما يستحق من بحث ومن معارف موثوقة، فتصبح تلك المقدمة الطويلة حشوا لا ضرورة له.

وربما يكون من هذا الباب أن الأغلبية الساحقة من الرسائل الأكاديمية التي كتبها يمنيون تركز على تناول اليمن، من حيث التاريخ والاجتماع والفلسفة والاقتصاد وغيرها، وأعترف أنني عند التفكير بكتابة رسالة الماجستير أو الدكتوراه قد أحسست بأنني في حاجة لتناول التاريخ الفكري في اليمن، أولا لإشباع رغبتي في معرفة بلادي التي أحبها وأتحدث عنها دون أن أعرف الكثير من شئونها. وثانيا للمساهمة في تحريك عجلة البحث في واقع اليمن الذي يشعر الجميع أنها ما تزال في حاجة للبحث والتنقيب في تاريخها السياسي والاجتماعي والاقتصادي ومساهمتها في الحضارة العربية الإسلامية وفي الحضارة الإنسانية ككل. ولعل هذا كان شعور غيري من الباحثين اليمنيين على أمل أن يأتي يوم نشارك فيه العالم العربي والعالم كله في الاهتمام بشئونهما وقضاياهما وألا نقتصر على الانكفاء على شئون بلادنا وقضاياها. وأثق أن هذا هو طموح كل مثقف يمني جمهوري.

وبسبب هذا الشعور بوطأة العزلة القاتلة على اليمن والتخلف المستدام طوال عهود ما قبل الجمهورية يلمس القارئ في الإصدارات الرائدة التي نتناولها هنا إصرارا على التمهيد لما يكتبون عنه بتقديم موجز سريع عن تاريخ اليمن منذ الحضارات القديمة حتى وقت تحرير كل كتاب جديد، وهذا ناتج من الشعور بأن اليمن قد عانت من التهميش والغربة عن عصرها ما جعلها مجهولة أو شبه مجهولة عند إخوتها العرب ناهيك عن شعوب العالم الأخرى.

وسوف أستعرض هنا هذه الإصدارات الرائدة لأنها مارست تأثيرا كبيرا على تكوين قطاع واسع من الطلبة والقراء في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الجمهورية، لأنهم وجدوها تستجيب لحاجتهم الماسة إلى تناول أوضاع بلدهم بأقلام كتاب يمنيين مطلعين على أحوال اليمن، والحصول على معارف لا تتوفر لهم في أي كتب أخرى. كما أن هذه الكتب قد نفدت من السوق ولم يعد أحد قادرا على الاطلاع عليها والعودة إليها لقراءتها وحتى لتناولها بأسلوب نقدي يبين ما أحسنت فيه وما ظلت فيه عن الطريق أو ارتكبت من أخطاء إن كان فيها أخطاء. إنها جزء من التراث الثقافي الجمهوري الذي لا يمكن تقدير حقيقة ما شهدته البلاد في مطلع العهد الجمهوري من نقاشات وصراع أفكار واجتهادات دون قراءتها.

ابن الأمير وعصره لمجموعة من المؤلفين

كان أول كتاب صدر لمؤلفين يمنيين بعد قيام الجمهورية هو كتاب "ابن الأمير وعصره". فقد صدر عام 1964 في فترة كانت فيها أوضاع الجمهورية الجديدة ما تزال تتسم بالارتباك وعدم الاستقرار، وهو العام الذي شهد توسع الحرب على الجمهورية وأدرك فيه الجميع أن العون المصري الذي كانوا يعتقدون أنه سيكون محدودا قد توسع ليكون حقيقة من حقائق الصراع بين القديم والجديد في اليمن. كما أن الصراع داخل الجمهورية بين القوى الجديدة الطامحة للتغيير الجذري والقوى التقليدية التي أرادت إصلاح النظام القديم وتطويره بالتدريج قد توسع وبدأ يعبر عن نفسه بطرق مختلفة.

ومع أن "كتاب ابن الأمير وعصره" قد كان مؤلفا جماعيا شارك في إعداده مجموعة من النخبة الثقافية المستنيرة في تلك الفترة، وهم قاسم غالب أحمد، وحسين السياغي، والمؤرخ الذي كتب وحقق فيما بعد عددا من مصادر التاريخ اليمني مُحَمَّد علي الأكوع، وعبدالله الشماحي صاحب كتاب "اليمن، الإنسان والحضارة"، وإلى

جانبهم موظف مصري تولى جمع المادة وإعدادها والإشراف على الطباعة، هو محمود إبراهيم زايد، فإن الكتاب قد نُسِبَ دائما لقاسم غالب في حالي الإشادة والنقد لأنه كان حينها وزير التربية والتعليم والمثقف القادم إلى الجمهورية بعد بعد نحو ثلاثة عشر عاما قضاها في السجن لانتمائه إلى حركة الأحرار المعارِضة وتعاطفه مع قيادة جمال عبدالناصر لحركة التحرر العربية، قبل أن يهرب إلى مستعمرة عدن ويعمل بالتدريس في التعليم الأهلي.

والواقع أن هذا الكتاب تطبيق عملي لرؤية حركة الأحرار لتاريخ اليمن وللصراع الفكري الذي دار فيه. فقد كان الأحرار أقرب في فكرهم إلى ما يسمى مدرسة التحرر الفكري غير المتعصبة لمذهب بعينه والداعية للعودة إلى الكتاب والسنة والأخذ بأصح الروايات وبما يَجمَع الأمة الإسلامية ولا يفرقها. ومع أن عددا من الأَعلام المهمين يمثلون هذه المدرسة في تاريخ اليمن، مثل مُحَمَّد بن إبراهيم الوزير (توفي سنة 840هـ-/1436م)، والحسن بن أحمد الجلال (توفي سنة 1084هـ-/1673)، ومُحَمَّد بن أسماعيل الأمير (توفي سنة 1182هـ-/1768م)، ومُحَمَّد علي الشوكاني (توفي سنة 1250هـ-/1834م) الذي خلَّف مدرسة ظلت مؤثرة في القضاء والإفتاء حتى قيام الجمهورية، فإن اختيار ابن الأمير للتركيز عليه في هذا الكتاب قد كان مقصودا لأنه كان أشجع رجال عصره في الصراع مع الحاكمين ولأنه "ترفَّع عن أعلى المناصب وناضل في سبيل رأيه في شجاعة نادرة... وزهد عن حياة السادة وكبرياء الأسر وترفعها والتزم جانب الشعب وعاش معه وأحس بإحساسه وعبَّر أدق تعبير عن أوجاعه وآلامه"[133].

أراد المؤلفون التأصيل الفكري للنظام الجمهوري باعتباره نظاما سياسيا عادلا يوفر المساواة والمشاركة الشعبية وفرص التنمية وتمتع جميع المواطنين بخيراتها، وأن يعودوا بالجذور التاريخية للجمهورية إلى معارضة التمييز ورفض الحكم والغلبة استنادا إلى

---

[133] قاسم غالب وآخرون، ابن الأمير وعصره، ص. 14.

النسب والوراثة وليس إلى خدمة الشعب وما يُقدَّم له من فرص للحياة الآمنة المستقرة والكريمة. إنه أول كتاب يصدر في عهد الجمهورية وأول تأصيل نظري لدعوة الجمهوريين إلى رفض أيديولوجيا الإمامة، وإلى أن يكون الحكم للشعب، وأن يكون الحاكم من يختاره هذا الشعب لا من يفرض نفسه بغلبة السلاح والتبرير بالنسب. ولم يكن منتظرا في تلك الفترة المبكرة من الصراع المحتدم بين القديم والجديد أن يكون الكتاب بحثا تاريخيا محايدا وغير منحاز للجمهورية. لقد كان نصا متحمسا للجمهورية الوليدة وفعلا من أفعال مقاومة الحرب عليها. ولذلك تلقاه الجمهوريون بحماسة وعارضه أعداؤها بشراسة.

يبدأ الكتاب بإعادة قراءة التاريخ الرسمي للأسرة القاسمية التي حكمت اليمن أو جزءً من اليمن خلال قرون. وأوجز تاريخ الأئمة الذين حكموا البلاد خلال حياة ابن الأمير ليستخرج ما في هذا التاريخ، وبخاصة عهد المهدي صاحب المواهب ومن تلاه من الأئمة، من تنافس وصراعات وحروب وقسوة، لدحض الصورة الإسلامية المثالية التي يُقدِّمُ بها التاريخ الرسمي مسيرة الإمامة، وكيف أن كل منهم يدعي أنه يدافع عن الإسلام في مواجهة من يقولون بدورهم إنهم يريدون تطبيق الإسلام الصحيح. وهكذا يتم استخدام الإسلام ستارا لحجب طموحات دنيوية وأطماع شخصية لتولي الحكم وانتزاعه من مسلمين آخرين، والتمتع بخيرات البلاد. بل إن التنافس والحرب قد نشبا بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، ويصف الكتاب دور ابن الأمير في الوساطة لحقن الدماء[134].

ويذكر الكتاب كيف ادعى الإمامة أكثر من شخص عند وفاة الإمام المتوكل قاسم إلى أن تغلب المنصور حسين بن القاسم الذي كان قد نازع أباه وتحارب معه. ودخل المنصور في حروب مع أكثر من داعٍ ومنهم أخوه أحمد. وكان لابن الأمير صلة

[134] نفسه، ص. 112 . 113.

بهذه الحروب إما وسيطا أكثر من مرة وإما متعاطفا مع أحد الدعاة لقناعته بأنه الأصلح للحكم حتى وفاة المنصور سنة 1161هـ-.

ويتلو هذا الموجز الذي يعيد قراءة التاريخ من منظور جمهوري رافض للأئمة، استعراض حياة مُحَمَّد بن إسماعيل الأمير، مولده سنة 1099هـ-/1687م، وتفوقه في العلم حتى جلس للدراسة عليه والده إسماعيل الأمير بعد انتقاله من كحلان عفار إلى صنعاء. ويتبادل الشعر مع والده الذي أرشده إلى البدء بمجموع زيد بن علي في الفقه بما في هذا المجموع من عدم تعصب، ثم مفارقته لصنعاء وبقاؤه بعيدا عنها بسبب غضب السلطة عليه. وأورد الكتاب شعرا كثيرا يعبر فيه الوالد عن شوقه لابنه المتفرغ للتعليم بعيدا عن أهله. وقد حج ابن الأمير أربع مرات للدراسة في مكة على علماء كثيرين بعضهم قادم من بلاد بعيدة، وناقشهم وتجادل معهم فأقنعهم وأقنعوه.

ويقدمه الكتاب كعالم متحرر من التعصب، غير متهالك على الدنيا والمناصب والحكم، منصف للناس. ويركز في تناوله لسيرة ابن الأمير على قضيتين: تبيان الاختلاف بين ما يرد في مجموع زيد بن علي من جهة وما يراه الإمام الهادي يحيى بن الحسين، مؤسس الزيدية في اليمن من جهة أخرى. ويعرض قصيدته التي دخل بسببها السجن، وهي قصيدة تنتقد الأوضاع القائمة في تلك الفترة ومطلعها:

سماعا عباد الله أهل البصائر　　　لقـول لـه ينفـي منـامٍ لنـاظرِ

ويشير إلى دعوته لإصلاح شئون الحكم ويسرد سوء أحوال البلاد وانتشار الحروب وما يرافقها من قتل ونهب. ثم يشير إلى دور ابن الأمير في الصلح والدعوة إلى حقن الدماء وإلى السلام. وينتهي الكتاب بإيراد بعض قصائد من أشعاره ويَعِدُ بمواصلة البحث عن أشعاره ورسائله حتى يستكمل ما ترك من آثار "فإذا قدر لهذا البحث أن يطبع مرة أخرى شملت هذه المختارات مجموعة كبيرة من هذا الشعر ومختارات من الرسائل التي لم تنشر، ومقتطفات من الآراء الخاصة لابن الأمير التي عنى بها في مؤلفاته"[135] . وقد أعيد طبع هذا الكتاب المتحمس لابن الأمير طبعة ثانية في

الذكرى العشرين لقيام الجمهورية لكنه لم يضف إلى ما في الطبعة الأولى سوى القليل. ولم يُعَد طبعه منذ ذلك التاريخ، ربما لأنه كتب بطريقة غير منهجية فيها الكثير من القفز من فترة إلى أخرى. وربما عاد السبب إلى أنه حين صدر في المرة الأولى كان أول كتاب يصدر في العهد الجمهوري وكان القراء حينذاك يشتاقون لقراءة أي كتاب يمني، لكن بمرور الوقت أصبح في متناول القراء كتب أخرى أكثر جاذبية للقراءة والاطلاع.

التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، لمحمد سعيد العطار

من الكتب المهمة التي نُشرت في بداية العهد الجمهوري وأثرت على تكوين الشباب والطلبة ووعيهم في تلك الفترة، كتاب مهم، أُعِدَّ في مطلع الستينات كرسالة دكتوراه باللغة الفرنسية ثم ترجم إلى العربية ونشر في بيروت في منتصف الستينات. وقد وصل إلى أيدينا للقراءة في نهاية الستينات وبداية السبعينات، وإن كان بسبب لغته الأكاديمية لم ينتشر وظل محصورا في أساط محدودة. ومن الأمانة الاعتراف بأنني وأمثالي من المراهقين ومن كانوا في مقتبل الشباب قد وجدوا صعوبة في استيعاب طروحاته، والبعض اضطر لقراءته أكثر من مرة لاستيعابه. لكن تكرار القراءة كان يعكس الرغبة في المعرفة والفرح بما يوفر الكتاب من معارف تدعو الحاجة إليها لتكوين أساس معرفي صحيح ومتماسك لفهم واقع بدا لنا مغلقا ومستعصيا على الفهم ولا يوفر التعليم الرسمي المعارف التي يقدمها ولا يستجيب لطموحاتنا وشوقنا لمعرفة واقع صعب يثير في أذهاننا علامات استفهام أكثر مما يوفر من إجابات على أسئلتنا.

والواقع أن الكتاب قد كان من العمق في تناوله للموضوعات التي حللها ومن الحصافة في عدم القفز فوق الحقائق الموضوعية وفوق حقائق واقعنا بحيث بدا لنا فريدا

---

[135] نفسه، ص. 324.

وغير مسبوق في الحياة الثقافية اليمنية. لقد جمع بين جدية الدراسات الأكاديمي والرصانة وسعة الاطلاع على مدارس الفكر العالمي المتقدم وعمق التفكير والاقتراب من الواقع الصعب، برصانة وابتكار استحق إعجابنا وقبولنا. وقد تعامل مع النظريات المجردة المطبقة على بلدان أخرى في العالم وعلى بيئات أخرى بطريقة مبدعة، لم ينقلها حرفيا ولم يطبقها على علاتها، بل تعامل معها تعاملا نقديا ونبه إلى أنه لا يرفضها ولكنه وجد أنها لا تقبل التطبيق الحرفي على واقع اليمن الخاص والمعقد. ووضح في كل مرة رأيه فيما يصلح للتطبيق على الواقع اليمني ووضَع مقترحاتٍ بما يصلح للتطبيق على هذا الواقع. ويمتاز بالتناول الحصيف لموضوعاته ولذلك يكرر في كل موضوع يتناوله أنه لا يمكن تناوله بشكل صحيح وموضوعي بسبب نقص المعلومات والإحصاءات والوثائق والدراسات الضرورية. ويشكو في أكثر من موضع في كتابه القيم عن اليمن من أن اليمن من البلاد النادرة التي لم تحظ باهتمام علماء الاقتصاد والاجتماع في المنطقة العربية وفي العالم، ولم تخصَّص أية دراسة اقتصادية أو اجتماعية لها. وأن انعدام الملفات والوثائق يثبِّط عزائم الباحثين. فلم يكن بالإمكان قبل قيام الجمهورية القيام بدراسات معمقة في اليمن ولا التجوال فيها. وحتى المنظمات الدولية، لم تكن قادرة على دراسة أوضاع البلد. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الطلبة اليمنيين الدارسين في الداخل والخارج كانوا نادرين جدا. كما ينتقد ما كتبته بعض منظمات الأمم المتحدة عن اليمن ويعتبره قاصرا.

ويعيد سبب التخلف الاقتصادي والاجتماعي إلى عدم تعرُّض البنيات الاجتماعية الموروثة للخضَّات وللاحتكاك لكي تتغير، ويقرر أن اليمن لم يكن بلدا إقطاعيا بالمعنى الأوربي، إذ لا وجود لأقنان مرتبطين بالأرض التي يخدمونها وملزمون بأداء خدمات شاقة إجبارية، ولا وجود لإقطاعيي ولايات ومعاقل شبه مستقلة.

ويحدد الطبقات الاجتماعية قبل قيام الجمهورية بالسادة أو الأشراف، ومشايخ القبائل، والتجار والحرفيين، والفلاحين، والعبيد، والأخدام.

وقد كان دور المرأة محدودا، بحيث كانت في المدينة عاطلة وأمية في حين كانت المرأة الريفية تشارك الرجل في العمل الزراعي.

ونظام الملكية قائم على الملكية الخاصة وتضبطه الشريعة من حيث الانتقال والوراثة.

وينتقد جداول الأمم المتحدة للدخل الفردي ويعتبرها قاصرة لأن المقارنة بين المداخيل الفردية لعدة بلدان موضوع تحفظات. ويذهب بعيدا في تقديرات وتفصيلات لحساب دخل الفرد وضآلته والاضطرار للهجرة وانتشار مضغ القات وما له من تأثير على استخدام الدخول. ويلاحِظ وجود تفاوت كبير بين دخل الطبقات ذات الامتيازات والفقراء. وتتولد عن هذا حياة بائسة وفقر في التغذية ويسهم القات في استنزاف دخل الفرد الفقير ويؤثر على مستوى معيشة العائلة. ويترتب على انخفاض الدخل الفردي انخفاض مستوى الصحة في ظل عدم وجود رعاية صحية وسوء ظروف المسكن والملبس.

وينقل أن البلاد تعاني من نقص فرص العمل ومن البطالة الفصلية والبطالة المقنعة والبطالة المرتبطة بالقات الذي يجعل المرء يقضي ساعات في مضغه، وكل ذلك تبذير وإهدار للوقت وللطاقة الإنسانية.

ويكاد الإنتاج اليمني يقتصر على الاستهلاك الداخلي ولا يبقى شيء للتصدير أو يوجد تصدير قليل ما عدا البن الذي عانى من الركود ومن تقلبات السوق والمنافسة، في حين يوفر القات دخلا أكبر من البن لكنه يستهلك داخليا وينافس البن على الأراضي نفسها ولا يُصدَّر منه شيء.

ومن أسباب التخلف التي ينقلها أن الصناعة منعدمة وتراجع الحرف أمام المنتجات المصنعة القادمة من مستعمرة عدن. وظلت التجارة تمر عبر عدن بحيث أصبحت الميناء الرئيسي لتجارة اليمن، سواء للواردات أم للصادرات.

ويقول إن الميزان التجاري سنة 1961 كان يعاني من عجز يقدر بخمسين في المائة. وكانت التجارة الداخلية مماثلة لما كانت عليه في العصور الوسطى. ولا وجود للشركات المساهمة. وكانت جميع المؤسسات التجارية في مستعمرة عدن.

ويضيف أن من الطبيعي في بلد لا يصدِّر سوى القليل أن يكون النقد الأجنبي قليل، وتداوله ضئيل. والأخطر عدم وجود عملة وطنية ولا بنك يمني، وكانت الضرائب جائرة رغم جانبها النظري المستمد من الشريعة الإسلامية. ولم تُنشَر أية ميزانية. وكانت تحويلات المغتربين المصدر المهم للنقد الأجنبي.

ويناقش الكتاب نظريات التخلف في العالم، والتي تضع معايير لقياس التخلف تستند إلى متوسط الدخل الفردي، ويعتمد آخرون على معايير العامل الاقتصادي والديموغرافي والاجتماعي والسياسي. لكنه يعتبرها كلها نتائج لهذا التخلف لا أسبابه. ويرى أن للتخلف عوامل عدة يسميها "فوق – اقتصادية" مكنت هذا التخلف من البقاء والاستمرار وزادت من خطورته. ويرى أن وضع اليمن والمنطقة التي توجد فيها يحتاج لأخذ التاريخ والحضارة والدين في الحسبان، وكذلك المظاهر الديموغرافية والشروط التقنية.

ويلخص تخلف اليمن بإعادته إلى عوامل مهمة وعلى الأخص انعزالها عن العالم وانقطاع التبادل التجاري والثقافي، والمؤثرات غير المباشرة للاستعمار. وأهم أسباب تخلف اليمن في رأيه سيطرة طبقة من ذوي الامتيازات يمثِّلها الإمام اتَّبَعت سياسة العزلة والانغلاق للحفاظ على مصالحها وفسرت الدين تفسيرا رجعيا يخدم هذه المصالح. وهكذا أسهمت عزلة اليمن وانقطاع تبادلها الاقتصادي والثقافي مع العالم في توطيد هذا التخلف.

ويستنتج المؤلِّف أن قيام الجمهورية قد كسر أقوى حلقة تنتج التخلف. فقد كان التغيير الجمهوري وحده القادر على تحرير قوى المجتمع "وإقامة نظام أكثر ملاءمة لانتهاج سياسة فعالة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية"[136].

واستعرض في القسم الثاني من الكتاب "الثورة اليمنية وآفاقها" من حيث كسر حلقة التخلف الذي جثم على صدر اليمن، وأوجز الأحداث التي جرت منذ 26 سبتمبر 1962. ويرى أن العوامل التي ساعدت على قيام الثورة هي التخلف والاستبداد والفقر واستحالة إيجاد حلول للمشاكل الخطيرة التي تعاني منها البلاد في ظل نظام الإمامة الاستبدادي شديد البدائية، وتأثير المغتربين الذين عاشوا في أنظمة سياسية واقتصادية أخرى أكثر تقدما، وتأثير الإذاعة والصحافة وانشار الوعي بفعل ذلك.

ويرى العطار أن سيف الإسلام عبدالله الذي كان مسئولا شكليا عن التعليم المتخلف والبائس عرف حاجة البلاد إلى قدر من التعليم الذي يسد النقص في الكوادر وعرف الخارج وتواصل مع الشركات البترولية ومن ثم كان لديه رغبة في استخراج الثروات الطبيعية وكان أقل ميلا إلى سياسة العزلة والانغلاق[137].

وربما كان هذا دافع البدر للانفتاح على مصر لإحداث بعض التغييرات الطفيفة ليمثِّل شيئا من الانفتاح، بعد أن شعر بعض أعضاء الأسرة الحاكمة بخطر العزلة على مستقبل النظام الإمامي.

وتناول الكتاب الفئات الاجتماعية المختلفة ودورها في التغيير، وحددها على نحو يعكس التغيير السريع في دور القوى المختلفة بمجرد إعلان الجمهورية قبل أن يشهد الواقع تحولات حقيقية اقتصادية واجتماعية. فقد أدى التغيير السياسي منذ بدايته لاستبعاد الطبقات القديمة التي حددها المؤلف بالسادة ومشايخ القبائل الكبار

---

[136] محمد سعيد العطار، التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، ص. 268.

[137] محمد سعيد العطار، التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، ص. 40.

والتجار والمزارعين القبائل والحرفيين والعبيد والأخدام، ولكن ترتيبها بعد التغيير الجمهوري أصبح (دون أن يقول ذلك صراحة): العسكريون والمثقفون والتجار. وهذا تبسيط للمسألة لا يتناسب مع المستوى الأكاديمي الحصيف الذي كتب به الكتاب. إذ من المستحيل أن تتغير الطبقات في يوم وليلة وبمجرد صدور قرار سياسي من أعلى، لأن الطبقات والفئات الاجتماعية تعتمد على دورها في عملية الإنتاج وفي امتلاك قوى الإنتاج وما ينتج عن ذلك من علاقات بين المنتجين أنفسهم وبينهم وبين وسائل إنتاجهم للخيرات المادية ونفوذهم في المجتمع الذي يعيشون فيه. وقد أثبتت الأيام أن هذا الترتيب للفئات الاجتماعية كان مصطنعا وعابرا. ولا أساس اجتماعيا له في بنية المجتمع.

وتناول الكتاب القرارات السياسية والاقتصادية للثورة ممثلة في إعلان الجمهورية، وإصدار دستور 1963 المؤقت، وإلغاء الرق، وطلب مساعدة مصر عبدالناصر. أما القرارات الاقتصادية فقد تمثلت بتكوين لجنة اقتصادية وإنشاء أول بنك يمني هو البنك اليمني للإنشاء والتعمير برأسمال مختلط عام وخاص (وحتى في مستعمرة عدن، لم يكن يوجد بنك محلي وكانت البنوك الأجنبية هي التي تمارس الأعمال المصرفية)، وتشجيع عودة رأس المال اليمني من الخارج.

لكن هذه التغييرات السريعة ووجهت بمقاومة عنيفة مدفوعة من الخارج، مما أدى إلى تجاوز حوادث اليمن المجال الداخلي، وأصبح لها بعدها الخارجي، ونُظِر للتغير الضروري في اليمن باعتباره تهديدا للجيران وللاستعمار البريطاني في عدن والمحميات البريطانية، ووجدت الجمهورية نفسها في وضع لا يساعد على بقائها واستمرارها. وتم إنهاكها بالحرب منذ الأيام الأولى وتضييق الخناق عليها. ولم يكن أمامها سوى اللجوء إلى طلب المساعدة من مصر عبدالناصر.

أما عن موضوع الوحدة العربية التي تفترضها المساعدة المصرية للجمهورية، وهي مساعدة جاءت وفقا لمفاهيم هذه الوحدة، فإن المؤلف يقول "لا يكفي أن تكون لنا

رغبة في الوحدة وأن ندعو لها بلادا اختلفت أنظمتها السياسية والاجتماعية" لأن هذا الاختلاف يودي بالوحدة إلى الفشل[138]. ويعترض على أي ارتباط بالاشتراكية العربية التي كانت مصر عبدالناصر تدعو إليها في سنوات كتابة الكتاب قائلا "ظروف اليمن تتطلب قبل الاندفاع في هذه الطريق الاشتراكية، حرية عمل كبرى في الميادين السياسية والاقتصادية والنظرية. أو بعبارة أخرى تتطلب تطبيق (تجريبية موجهة)... وليس اشتراكية، حاليا على الأقل"[139].

ويضيف أنه إذا كانت المعوقات الخارجية كبيرة فإن تأثير المعوقات الداخلية أضخم وتتولد عنها تعقيدات اجتماعية واقتصادية تفرض على الجمهورية التقهقر أو التراجع عند اتخاذ القرارات المناسبة. ولا يمكن القيام بعملية التحويل الاجتماعي في مجتمع تحكمه عادات وتقاليد عمرها آلاف السنين إلا إذا تم التمهيد لعملية التحويل بعملية توعية طويلة وعميقة. ومن أهم المعوقات في رأي الكتاب التفرقة الطائفية واعتبار الإمام زعيما روحيا لإحدى الطائفتين، وعقلية السكان الذين كانوا يعيشون في ظلام كثيف.

ويتساءل: هل تستطيع ثورة قائمة ليس لها برنامج محدد ولا انسجام عقائدي ولا إطار إنساني، لا غنى عنه لتحقيق ثورة حقيقية، أن تُحدِث قفزة إلى الأمام في التنمية الاقتصادية السريعة لمصلحة الطبقات الكادحة؟

ولا يخفي حماسته للتخطيط الموجه الذي يسمح للدولة أن توجه الاقتصاد، وهي مسألة في ذلك الوقت كانت سائدة في أوساط المثقفين في بلدان العالم الثالث وحتى في أوساط المثقفين والأكاديميين في أوروبا. لكنه انطلاقا من وعيه بعدم توفر الإحصاءات والبيانات والدراسات التي تمكِّن المخططين من وضع خطط واقعية تستجيب لضرورات التطور الاقتصادي ولحاجات السكان، يدعو إلى "تطبيق سياسة

---

[138] نفسه، ص. 319.

[139] نفسه، ص. 320.

اقتصادية واجتماعية تجريبية، ستتولد عنها بالضرورة مشاكل في المستقبل" أطلق عليها "التجريبية الموجهة" بهدف "تحقيق بعض التغييرات وبعض التقدم والنمو"[140].

ويضيف أن الأفكار الموجهة لهذ هـ "التجريبية الموجهة" التي يدعو إليها تهدف لحل المشاكل العاجلة التي لا تقبل التأجيل، والتي تواجه الجمهورية الوليدة في واقع صعب، وفي ظل الحرب المفروضة عليها، واعتماد خيارات اقتصادية لا تهدد المستقبل الاجتماعي. فلا أحد ينكر أنه يجب أن يكون لسياسات الحكومة غايات وأهداف محددة، وأنها يجب أن تقترح التدابير التي تمكِّنها من بلوغ هذه الأهداف. لكن المتطلبات الاقتصادية تقتضي إيجاد فائض اقتصادي وتراكم متسارع، والتخطيط لاستعمال هذا الفائض مع توطيد سلطة الدولة على الثروات الوطنية، ومراقبة التجارة الخارجية وحركة النقد. وعند توفر المعطيات يصبح بإمكان أية هيئة للتخطيط أن تضع البرامج وتحدد الأولويات وتقدِّر الحاجات.

ويعود المؤلف لتكرار القول إن انعدام المعطيات يعيق التخطيط، لكنه مع ذلك يدعو لعدم التخلي عنه ويدعو إلى الإسراع بإنشاء هيئة تتولى جمع المعطيات والبيانات. كما يقترح التركيز على حشد الموارد البشرية والمادية لتحقيق فائض وتراكم اقتصاديين وتحقيق نمو سريع. ويدعو إلى تعايش القطاعات الاقتصادية: القطاع العام وشبه العام ليتوليا التصنيع والاهتمام بالبنية التحتية والتوظيفات الاجتماعية (التعليم والصحة) ومنح الحرية لرأس المال الخاص ليشارك في الاستثمار وتحقيق النمو، وتشجيع المغتربين على توظيف رؤوس أموالهم في الداخل. يؤكد على ضرورة تنمية التعاون الثنائي ومتعدد الأطراف وفتح الباب للاستثمار الأجنبي للاستثمار في شركات مختلطة للمساهمة في تحقيق النمو الاقتصادي وتوفير فرص العمل.

وبسبب انتشار البطالة يدعو لإعطاء الأولوية للتصنيع لتشغيل اليد العاملة، وإجبار رأس المال الخاص على استثمار نصف ما يحقق من أرباح في التنمية الموجهة،

---

[140] نفسه، ص. 330 . 331.

وفرض ضرائب للحد من استيراد الكماليات ومراقبتها، واستخدام الفائض في الاستثمار لتحقيق نمو اقتصادي سريع.

ويقترح إعطاء أولوية للزراعة لأنها ستظل لسنين، كما يقول، المورد الأساسي للاقتصاد الوطني، وأن يرتبط نمو الصناعة بالمواد الأولية التي تنتجها الزراعة. ويقترح الاستعانة بالتعاون في الانتاج الزراعي. ومن الإجراءات المقترحة لمساعدة النمو الزراعي منح قروض للمزارعين، وبخاصة للجمعيات الزراعية. ومن الأفكار الرائدة ولكن التي أثبتت عدم واقعيتها، تطبيق سياسة لقلع أشجار القات ليحل البن محله.

ويدعو إلى إعطاء أولوية للتعليم وتحسين نوعيته مستعينا بمثل صيني سائر يقول "إذا كنت تضع مخططا لسنة فاصنع الأرز، وإذا كنت تضع مخططا لقرن فعلِّم الرجال". كما يدعو إلى محو الأمية.

وينتهي كخلاصة للتفكير إلى أن المقترحات التي صاغها لتحقيق فائض اقتصادي وتراكم رأس المال وحشد الموارد المادية والبشرية وإعطاء الأولوية للصناعة لاستيعاب العاطلين وللمشاريع الزراعية التي تحقق مردودات سريعة واستثمار الفائض في التنمية، كلها تمثِّل البرنامج العملي الوحيد الممكن في ظروف اليمن في تلك الفترة، وهو برنامج واقعي يضع أصابعه على المشكلات الواقعية للمجتمع اليمني ولا يشطح ويقفز فوق هذا الواقع، ولا تغريه النظريات الاقتصادية، التي يعرفها ويتجادل معها ويكشف إلى أي حد لا يتقبلها الواقع اليمني المتخلف كما هي دون تكييف لتناسب الوضع اليمني المعقَّد والصعب والمتخلف. وينتهي من كل هذا بالدعوة إلى ما يسميه "التجريبية الموجهة" وهي الفلسفة التي صاغها وكيفها، بشجاعة وجرأة ووعي دقيق بصعوبات الواقع الملموس، لتناسب الواقع اليمني.

لكنه ينتهي، كيساري، إلى التحذير من المخاطر الاجتماعية التي يشكلها رأس المال الخاص وكذلك رأس المال العائد من المهجر، ويحذر من أن هذا الرأسمال

سيطالب في مرحلة معينة بثمن سياسي، أي بالسيطرة السياسية على الدولة وإقصاء الجماهير التي تشكل غالبية السكان.

اليمن، محمد أنعم غالب

من الكتب التي أسهمت في تحسين وعي القراء الشباب والمتعلمين في اليمن بواقعهم كتاب مُحَمَّد أنعم غالب الذي، مثله مثل كتاب العطار، على الرغم من أنه في الأساس رسالة أكاديمية قدمها المؤلف لنيل درجة الماجستير في الإدارة، وقدِّمت باللغة الانجليزية في جامعة تكساس الأمريكية قبل قيام الجمهورية بسنتين، حرص المؤلف بدافع من ثقافته التي كانت قد تفتحت وتكونت أثناء دراسته في القاهرة في الخمسينات، ومن ثقافته اليسارية بالذات، على أن يتناول المجتمع اليمني ليَعرِفَه هو نفسه، وليساعد اليمنيين الشباب على معرفة بلادهم وواقعهم.

ومعروف أن المؤلف كان في سنة 1956 قد أصبح من القيادات الطلابية اليسارية التي قادت "مؤتمر الطلبة اليمنيين الدائم" في مصر، وهو المؤتمر الذي صدرت عنه وثيقة تاريخية تجاوزت ما تطالب به حركة الأحرار المعارِضة، تدعو اليمنيين إلى أن يعملوا معا لبناء وطن واحد متحرر يوفر المساواة والتنمية والديمقراطية والتضامن بين جميع اليمنيين.

وهذا كتاب غير معقد نظريا بالقياس إلى كتاب العطار الآنف الذكر، ولا يخوض كثيرا في تناول نظريات الإدارة وقبولها أو نقدها، ولا يُغرق في المقدمات النظرية المنتفخة كما يفعل بعض الدراسين في الجامعات العربية الذين يغطُّون ضحالة التفكير وعدم عمق التحليل بادعاء نظري عشوائي وسرد مجموعة من الآراء لمؤلفين غير مهمين ولا يضيفون للفكر الإنساني أية قيمة معرفية، دون تبرير لما ذا اختاروا أولئك الكتاب دون غيرهم.

يقدم هذا الكتاب أجوبة مباشرة لتساؤلات القارئ حول اليمن وعن واقعها، موقعها وتضاريسها ومناخها. ويقسم اليمن إلى أربعة أقاليم، هي السهل الساحلي، تربته ومناخه، والمحاصيل التي يزرعها، و"الجبال والوديان السفلى"، مميزاتها وتربتها

ومناخها ومحاصيلها، و"الجبال والوديان العليا"، تربتها ومناخها ومحاصيلها، و"المناطق الصحراوية".

وبالنسبة ل"الشعب" يشير إلى أن السكان حسب آخر تقديرات سنة 1949 كانوا أربعة مليون ونصف المليون نسمة. لكنه ينبه إلى أنه لا توجد تقديرات رسمية صحيحة لعدد السكان، ولذلك يدعو إلى أخذ هذا الرقم عن عدد السكان بحذر.

ويتحدث عن أن توزيع السكان يتصل بخصوبة الأرض وبالظروف المناخية. لذلك فتهامة أقل سكانا من الهضبة التي يقدر سكانها بثلاثة أرباع سكان البلاد. وتنخفض كثافة السكان كلما اتجهنا نحو الجبال والوديان العليا.

ويأتي إلى الأوضاع التعليمية فيقول إنها في غاية البؤس، وإن في المدن الرئيسية الثلاث صنعاء وتعز والحديدة أربع مدارس فقط في حالة فقيرة جدا، ولا يوجد أي نظام تعليمي على الإطلاق، ولا منهاج دراسي محدد، وهناك افتقار إلى المواد الأساسية وانعدام وجود معلمين مؤهلين. كما تدهورت مراكز الثقافة الإسلامية التي ازدهرت في الماضي البعيد، ولا تقدم الحكومة التمويل اللازم للتعليم، الذي يقتصر على تعليم الدين والشريعة واللغة العربية. وقد يوجد في الأرياف "كُتَّاب" هنا أو هناك مكون "من غرفة واحدة يتولى التدريس فيها معلم واحد معرفته محدودة في القراءة والكتابة بشكل ضعيف... يتلقى الأطفال تعليما أوليا محصورا في القراءة والكتابة على ألواح من الخشب. وليس هناك من كتب مستعملة في هذه المدارس سوى القرآن"[141]. وينفق الأهالي على هذه "الكتاتيب" أو "المعلامات".

ويشير إلى أن الإنتاجية منخفضة بسبب الوضع الصحي السيء وانعدام التعليم الحديث العام والمهني، كما أن معدل الأعمار قصير.

وحول الحياة الاجتماعية يشير إلى أن غالبية السكان تعيش في الريف. ولم يتغير طابع الحياة اليمنية منذ وقت طويل. والفرق بين القرية والمدينة ليس كبيرا.

---

[141] محمد أنعم غالب، اليمن، ص. 29 . 30.

ويعيش اليمنيون في عزلة عن العالم الخارجي فرضتها سياسة الحكومة، ويميل التكوين الطبيعي إلى جعل السكان يعيشون منعزلين عن بعضهم البعض. ويحتكم الناس إلى العرف أكثر من احتكامهم للشريعة الإسلامية. ولم تبدأ المعارضة الوطنية إلا في منذ عقود قليلة.

ويأتي إلى التركيب الطبقي فيقسم اليمن إلى طبقتين فقط: العامة والأرستقراطية، وداخل كل منهما فئات وفقا للثروة والحرفة والعشيرة.

أما بالنسبة لاقتصاد اليمن فيعتمد على الزراعة والحرف والتجارة ولم توجد في اليمن في تلك الفترة صناعة حديثة.

ويلاحظ أن اليمنيين يعيشون في مجتمعات صغيرة منعزلة يكاد اقتصادها يكون مغلقا. والمواصلات فيما بينها صعبة وبدائية. وإذا كان الأتراك قد أدخلوا التلغراف قبل خروجهم من اليمن، فإنه ظل كما هو ولم يطرأ عليه أي تغيير، بحيث يعتمد على سلك قديم مفرد من مخلفات العثمانيين.

وهكذا لم تكن الظروف ملائمة لنمو التجارة، فلا يوجد سوق وطني يشمل البلاد كلها، ويكاد الاقتصاد أن يكون اقتصاد كفاف. ومن المعوقات عدم وجود سوق نقدي مناسب، ولا مؤسسات مالية، ولا عملة وطنية، والريال الفضي المستورد نمساوي الأصل. وهو ثقيل ونقله غير مأمون ويؤدي إلى شلل الحركة التجارية. ولا توجد إحصاءات عن حجم تجارة الصادر والوارد. ويؤدي التنافس على تولي الإمامة إلى حروب يقتل فيها الأخ أخاه، وأحدث مثال ما حدث بين الإمام أحمد وأخويه عبدالله والعباس اللذين قتلهما بدم بارد.

ويلاحظ الكاتب أن الأحرار كسبوا الكثير من التعاطف بين المهاجرين لكنهم ظلوا محدودي الأثر في الداخل بسبب الإرهاب الرسمي وافتقارهم إلى ناشطين مدربين ومستعدين للتضحية[142].

---

[142] محمد أنعم غالب، نفسه، ص. 66.

ويجمع الإمام كرئيس للدولة جميع السلطات القضائية والإدارية والتشريعية. ينظر في كل التفاصيل ويبت في كل أمر. والخزانة العامة تحت رقابته الشخصية وهو الذي يقرر المصروفات بندا بندا. وهذا الجمود بكل مظاهره يشكل عقبة خطيرة في وجه التقدم والتطور.

غريب على الطريق، محمد أنعم غالب

على الرغم من أن ديوان شعر مُحَّد أنعم غالب بعنوان "غريب على الطريق" محدود الحجم (نحو سبعين صفحة) وأن طبعته الأولى قد صدرت سنة 1974، فإن قصيدة "الغريب"، التي يدور حولها العنوان، قد كتبت سنة 1956، وهي السنة التي برز فيها نجم مُحَّد أنعم غالب كأحد قادة "المؤتمر الدائم للطلبة اليمنيين" في القاهرة وكأحد الطلاب اليمنيين القريبين من اليسار المصري والمؤسسين للوجود اليساري اليمني، كما أن المجموعة قد برزت بمواقفها التي تنتقد حركة الأحرار اليمنيين المعارِضة وبخاصة من حيث مواقفها من الوحدة اليمنية، وهو ما عرضوه في بيانهم المشهور.

وقد شاعت هذه القصيدة في أوساط المثقفين اليمنيين وأعطت لكاتبها ومبدعها شهرة أكثر من كتاباته السابقة، وحتى من كتابه المهم "اليمن" الصادر سنة 1966، بحيث لا يكاد يُذكَر مُحَّد أنعم في أوساط المثقفين اليمنيين، واليساريين منهم بخاصة، دون ذكر قصيدة الغريب. وقد أشار عمر الجاوي في مقدمته لديوان "غريب على الطريق" إلى أن هذه القصيدة قد ألهمت الكثير من الكتاب والشعراء اليمنيين الذين تأثروا بمأساة المهاجرين اليمنيين وتشردهم ومعاناتهم وضياعهم وكفاحهم المرير من اجل كسب لقمة عيش لا تتوفر في وطنهم الذي كان تحت وطأة الفقر والجهل والمرض والظلم والاستبداد.

ومن نسج على منوالها ولكن في نوع أدبي آخر زميل مُحَمَّد أنعم في الدراسة في القاهرة مُحَمَّد عبدالولي في قصصه ورواياته، بحيث أصبحت الغربة بمعناها المادي والوجودي أهم موضوعات أدبه.

واستوحاها كذلك مطهر الإرياني في قصيدته الشعبية التي صاغها في قالب تراثي محبب بعنوان "الباله" مما جعلها ملحمة شعبية تغنى في جميع الأوقات.

بل إن الاغتراب والغربة تتخلل وجدان ومشاعر الشاعر عبدالعزيز المقالح وإبداعه. "وإذا كان هذا الموضوع قد وجد طريقه إلى عنوان أحد دواوينه (هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي)، فإن الغربة والاغتراب يتسللان إلى عيون كل الكلمات حتى تلك التي تبدو واثقة من أن الأمل سوف يتجسد كأحلى ما يكون التجسُّد في الزمان والمكان"[143].

وينبغي الإشارة إلى أن هذه القصيدة قد كتبت في وقت كان فيه الشعر في مصر يحاول أن يتجدد وينفتح على كتابة الشعر الحر الذي كان قد بدأ في العراق على أيدي رواد مثل بدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي ونازك الملائكة. وكان الشعر الحر في مصر يخوض معركة مشهودة لإثبات وجوده وفرض نفسه في وجه معارضة مثقفين كبار يهيمنون على الساحة الثقافية في مصر وفي العالم العربي، أمثال طه حسين وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم. فنشر صلاح عبدالصبور ديوان "الناس في بلادي" عام 1957 وفيه قصائد كتبت ونُشِرت في نفس الفترة التي كتبت فيها قصيدة الغريب، فهز ديوان صلاح عبدالصبور الحياة الأدبية في مصر. ونشر أحمد عبدالمعطي حجازي ديوانه بالشعر الحر "مدينة بلا قلب" سنة 1959 وفيه قصائد تعود إلى نفس فترة قصيدة الغريب التي كتبها مُحَمَّد أنعم في فترة تفتحه الثقافي والأدبي.

[143] د. أبو بكر السقاف، كتابات، رقم 1، ص 324.

وكان إقدام مُحَّد أنعم على كتابة القصيدة بالشعر الحر غير الملتزم بعمود الشعر العربي ولا بالوزن والقافية في تلك الفترة المبكرة من حركة الثقافة في اليمن (1956) عملا جريئا يشارك به في ريادة الشعر الحر في الثقافة العربية. وهي قصيدة تجريبية تأخذ بالأفكار التي انتشرت في تلك الفترة عن جمود الشعر العربي التقليدي، وغرقه داخل شرط عمود الشعر العربي، وتخشُّب الوزن والقافية والنظم الذي يصل أحيانا حد السطحية، ولا يسمح للمشاعر الداخلية بأن تتدفق، ولا للصور كي تغادر شروط الكناية والاستعارة، ولا للأغراض الشعرية أن تخرج عن المدح والهجاء والفخر والغزل. ووصل أحيانا إلى حد رفض قواعد النحو العربي التي تجمدت في بطون الكتب الصفراء، وشروط العروض والزحاف والضرورات الشعرية، بما يقيد حرية الشاعر وموهبته، ويسجنه داخل قوالب ميتة تجاوزها الزمن وتنتمي لحضارة القرون الماضية وآن الأوان لتجاوزها والإضافة إلى ما تركت من إبداع على أيدي شعراء عظام من أمثال المتنبي والبحتري والفرزدق وبشار بن برد والمعري وغيرهم. ولذلك تتتالى الصور والعبارات وتتمرد أحيانا على الوزن وعلى حركات الإعراب ولكن في إطار توازن الصورة الكلية التي تستغرق القصيدة كلها.

من هنا نجد أن الصور الشعرية المفردة فقيرة لكن الصورة الشعرية الكلية غنية، لأن القصيدة كلها في حالة حركة نابضة تروي قصة وتصور مشاهد مسرحية وتتدفق فيها المشاعر حتى نهاية القصيدة.

إنها تقدم تصويرا حيا لحياة مهاجر غريب كادح بائس أرغمته ظروف وطنه، وخضوعه للاستبداد والظلم والفقر، على أن يترك بلاده وأن يبحث عن أي عمل. ولأنه لم يؤهل في وطنه على أية مهنة ولا أية حرفة، فإنه يباشر أي عمل يتوفر له ليكسب عيشه ويتشرد في الآفاق بحثا عن أي عمل شاق.

تبدأ مأساة الغريب هنا:

طارده الجُباة

وباع نصف تروته

ليدفع الزكاة

وأجرة التقدير والجُباة والجنود

ورشوة الحاكم والأمير

وغادر الوطن

ولم يكن وحده في هذه المأساة:

وفي الطريق صادف الكثير مثله

وفي نفوسهم نفس الحنين للرحيل

وألقت السفين حملها بشاطئ مهجور

قد عاش في كل المهن

ينقل الأثقال في رصيف

بالحبل والخطاف والعرق

وفي الثغور النائيات

يكسب القليل

أو يقطع الأحجار في جبل

ليرفع القصور الشامخات

في كل أرض

أو ينزل الأعماق في مناجم الشمال

في بلد يلفه الضباب والثلوج

أو يصارع الأمواج في البحار
يجوب كل ثغر
على سفينة دائمة التطواف

وفي المحيط ذلك العريض
في وسط الدنيا
والشمس قرص نار
مقره بجانب السخان
يطلب المزيد من وقود
قطعة من اللهب
تسير في لهب

وعاش تحت كل شمس
كل النجوم تعرفه
الموج والجليد يعرفه
والصخر والشجر
ونسمة الصباح والمساء
والبحر والقفار
وكل ريح

كل أرض تنكره
لأنه الغريب
يسير هاهنا مشردا يحث خطوه المديد
يردد الأغاني الذابلات

ويزرع الأمل

ويحصد الضياع

إنها تصوير مسرحي لمأساة المهاجر الغريب منذ لحظة المعاناة واليأس الذي يقذف به خارج بلاده إلى شعوره بالضياع في كل أرض بعد أن عمل بكل مهنة وكل حرفة لكنه انثنى غريبا ضائعا، بلا منزل يضمه، ولا عمل يقيه غائلة الجوع. وقد خاض كل حرب، فلم يكن متاحا له ترف الاختيار بين الحروب. اختار له الجوع والغربة أن يكون في معسكر من المعسكرين المتحاربين ووجد رفاقا له من اليمن في المتراس المقابل له. يخوضون مثله حربا ليست حربهم ولم يختاروها.

ويطلق الشاعر في النهاية صرخة العودة:

يا ركب اليمانين المشردين

يا من أراكم تعبرون كل درب

وتعمرون كل أرض

وأرضكم خراب

يا أيها الركب الطويل

متى نعود؟

متى نعود؟

وعلى هذا المنوال سار كثير من الأدباء في تصوير معاناة المغترب اليمني وتشرده في أصقاع العالم، وبحثه عن أية فرصة توفر له الحد الأدنى من العيش. وممن سار على نفس المنوال ولعله تأثر بقصيدة الغريب مطهر الإرياني في ملحمة "الباله" التي غناها أكثر من فنان:

والليلة وانا من بلادي بعيد

ما في فؤادي لطوفان الأسى من مزيد

قلبي بوادي بنا وأبين ووادي زبيد
هايم وروحي أسير الغربة القاسية

ذكرت أخي كان تاجر أينما جا فرش
جو عسكر الجن شلوا ما معه من بقش
بكر غبش، أين رايح؟ قال أرض الحبش
وسار واليوم قالوا حالته ناهية

بكرت مثله مهاجر والظفر في البُكَر
وكان زادي، مع اللقمة، ريالين حجر
وابحرت في ساعيه تحمل جلود البقر
والبن للتاجر المحظوظ والطاغية

بحثت عن شغل في الدكة وداخل "عَصَب"
وفي الطريق والمباني ما وجدت الطلب
شكيت لاخواني البلوى وطول التعب
فقالوا البحر، قلت البحر وا ساعيه

وعشت في البحر عامل خمسة عشر سنة
في مركب اجريكي أعور حازق الكبتنة
وسود الفحم جلدي مثلما المدخنة
وطفت كم يا بلوِّد أرضها قاصية

من كان مثلي غريب الدار ما له مقر

فما عليه إن بكى وابكى الشجر والحجر
ابكي لك ابكي وصب الدمع مثل المطر
ومن دم القلب خلي دمعتك جارية

طريق الثورة اليمنية، محمد علي الشهاري

كان هذا الكتاب أحد أهم الإصدارات التي وصلت إلى أيدي القراء في أواخر سنة 1966 في مرحلة مهمة بدأ فيها جيل جديد من الأطفال يبلغ سن المراهقة ويعاني من شح غير معقول في توفر الكتاب المبسط الذي يناسب مستواه الثقافي ويجيب على الأسئلة الخطيرة التي يطرحها الواقع الجديد على ذهنه دون أن يجد لها جوابا، لا في المدرسة ولا في الأسرة، على أن يكون موجزا وغير معقد ولا تستغرق قراءته وقتا طويلا يؤثر على التحصيل العلمي للطالب، هذا التحصيل الذي كان يعتبر الاهتمام به عملا وطنيا هدفه تعويض النقص الذي عانت منه اليمن فيما مضى في التعليم الحديث وفي التحصيل العلمي والمشاركة في حياة العصر الذي يعيش فيه ويعجز عن فهمه وعن مسايرته رغم طموحه الكبير وآماله العراض.

ومنذ البداية يقدم الكتاب نفسه باعتباره قد جاء ليسد النقص ويملأ الفراغ السياسي الهائل الذي نشأ في اليمن بعد انهيار النظام القديم، ويدحض ما تبقى من تراثه الاستبدادي الانعزالي المغلق، ليضع محله منهجا ثوريا أصيلا يحدد الطريق، ويقود الخطى، ويحررها من العفوية والارتباك والفوضى، ويحدد الأهداف ويعمل لبلوغها ويحميها.

ومثل غيره من الكتب السياسية في ذلك الوقت، يبدأ بتحديد اليمن وحدودها، وكان هذا جانب مهم بالنسبة للجيل الجمهوري الجديد، لأن هذا الجيل كان في حاجة أولا لتحديد الوطن الذي يهيم به ويدعو للدفاع عنه ويحلم بنهضته، وينتمي إليه دون أن يقول له أحد، لا في المنهج المدرسي ولا في مواد ثقافية متاحة، ما

هو هذا الكيان اليمني الجمهوري الذي يواجه كل هذا التكالب لإسقاط نظامه الجمهوري الجديد، أين يبدأ وأين ينتهي، وما هي تضاريسه وتقسيماته وجغرافيته وتاريخه القديم والحديث، والقوى الطامعة فيه، ولماذا؟ وموارده الطبيعية وإمكاناته المتاحة، والأهداف القريبة والبعيدة التي ينبغي العمل لبلوغها، وسبل إنقاذه من مشاكله التي تبدأ بوضع نهاية للحرب وتنتهي بإطلاق عملية سريعة للتنمية.

ويرى المؤلف أنه منذ ظهرت حركة الأحرار المعارضة في الثلاثينات والأربعينات، وبداية ظهور المستنيرين بعامة، كانت الأهداف التي وضعتها هذه الحركة مقاومة حكم الاستبداد، وإقامة حكم الشورى، والبحث عن الشخصية القيادية التي تستطيع الحشد لبلوغ هذه الأهداف، والاندماج بالأمة العربية، وتحسين مستوى حياة الشعب. لكن حركة المعارضة لم تدع في تلك الفترة المبكرة إلى إلغاء الإمامة. ويرى الكاتب أن هذا القصور كان من أسباب فشل الحركة الدستورية في 1948، وحركة 1955، حيث بدا للناس أن الحركتين صراع بين الأسر الحاكمة من أجل السلطة. وهو ما طرح على الشعب ضرورة القضاء على النظام الإمامي الملكي وإعلان الجمهورية.

ويحدد أهداف التغيير الجمهوري ب:

- القضاء على الملكية التي قامت الثورة عليها،
- إقامة النظام الجمهوري،
- إيجاد جيش وطني،

إقامة تنظيم شعبي،

- تحقيق الوحدة الوطنية والعربية،
- تحقيق العدالة الاجتماعية

ويرى الكاتب أن هذه الأهداف على أهميتها تحتاج إلى تفصيل وتطوير. فهي ليست سوى معالم على الطريق، ولا بد من الانطلاق منها لوضع منهاج متكامل للتغيير تلتزم به الثورة وتطبقه لتحديد طابعها السياسي وطبيعة نظامها الجديد ويبرر

أفضلية نظامها على النظام الذي أسقطته، ويشخِّص النظام الاقتصادي والاجتماعي لبناء اقتصاد وطني جديد ومتقدم. ويتولى ما يسميه الكاتب "المنهاج" تحديد سياسة الدولة على النطاق العربي والدولي، والموقف من الوحدة العربية. إنه في رأيه الميثاق الوطني للتنظيم الشعبي الذي ينبغي أن تلتزم به جماهيره وتنفذه وتطوِّره.

ويرى أن الثورة اليمنية استمرار لتقاليد الشعب اليمني وقمة أعماله الكفاحية. فقد تحولت الإمامة إلى مُلك وراثي مطلق يتنافى مع الديمقراطية، معتبرا أن الإمامة حكم استبدادي أرستقراطي فردي وطغيان مسلح. ومع أنه كان بإمكان حكام اليمن أن يقوموا ببعض الإصلاحات، وتجديد حياة اليمن، وأن يأخذوا ببعض المنجزات الحديثة، فرض الإمام يحيى نطاقا رهيبا من العزلة على اليمن ليبعد الشعب عن التفاعل مع العالم المتحضر كي يبقى بمنأى عما يحدث من تطور في القرن العشرين.

ويشير المؤلف إلى أن جهاز الدولة في عهد الإمام يحيى ومن بعده الإمام أحمد كان متخلفا، ولم يوجد في البلاد نظام تعليمي أو صحي، ولا مؤسسات صناعية وزراعية، وهو ما تسبب في حدوث المجاعات وشيوع الفقر. واحتل الانجليز الجنوب وأمسكوا بالدخول إلى اليمن والخروج منها وبالتجارة. وبذلك تحكموا باستقلال البلاد.

ويتوسع الشهاري في تناول موضوع وجود الإقطاع في اليمن، ويفصِّل علاقته بشبه الأقنان العاملين بزراعة أرضي الإقطاعيين. ويتفق مع العطار على أن القنانة لم تكن موجودة في اليمن، بل كان هناك فلاحون شبه أقنان في بعض الوديان الخصبة لا يستطيع الاقطاعي بيعهم أو ضربهم، بل يزرعون أراضيه، وبيوتهم والبذور وأدوات الحرث والمواشي العاملة ملك للإقطاعي. وفي حالة ثانية كان الاقطاعي يعطي لشبه القن قطعة أرض يزرعها بشرط العناية بأرض الاقطاعي. وفي الحالة الثالثة يعطي للفلاح أرضا بالإيجار، وكان بيت الفلاح ووسائل الانتاج والبذور ملكا للإقطاعي.

وعلى النقيض من هذا ينقل الشهاري اطلاعه على وجود عبيد في وادي مور يقومون بزراعة أراضي الاقطاعي باعتباره مالكهم ويستطيع بيعهم أو قتلهم.

ويقرر أن الشكل الرئيس الغالب للإقطاع في اليمن يتمثل بتأجير قطع الأرض للفلاحين بأدوات الفلاحين ومواشيهم الخاصة مقابل نصف الغلة، أو ثلثي الغلة للمالك إذا دفع الضرائب للحكومة، أو يحصل الفلاح على الثلثين إذا دفع الضرائب للحكومة. وحين تكون الأرض شحيحة الانتاج وتحتاج لعمل شاق يحصل المالك على ربع المحصول. ويستنتج الكاتب من كل هذا أن المجتمع اليمني كان يقوم على علاقات الانتاج الاقطاعية. ويقسِّم الاقطاعيين إلى كبار ومتوسطين وصغار.

كما يُقسِّم الفلاحين إلى أغنياء ومتوسطين وفقراء. والملكية المتوسطة والصغيرة للأراضي غالبة في البلاد. وجميع الفلاحين واقعون تحت سلطة الاقطاعي الكبير. وقد كان الامام يعتمد في حكمه على فئة معينة من الاقطاعيين يعيِّنهم نوابا له على الألوية أو مسئولين إداريين (عمالا) على التقسيمات الإدارية وقادة للجيش.

ويحدد الفئات الاجتماعية بالسادة، والقضاة، والمزارعين، والقبائل والبدو. وأصحاب الحرف اليدوية وذوي المهن الأخرى فئتان اجتماعيتان تتوارثان الحرف من جيل إلى جيل. وتوجد فئة الأخدام المحتقرين الذين يعيشون على هامش النظام الاجتماعي اليمني. وكان اقتناء العبيد مباحا.

ويستنتج من هذا التناول للفئات الاجتماعية أن الجمهورية قد قامت بعد انتظار طويل للتغيير. ومع قيامها سقط جدار العزلة الرهيب مرة واحدة. ووجدت نفسها تواجه ثورة مضادة أشعلت حربا أهلية بين قوى التقدم وقوى التأخر. وناصرت الأغلبية هذا التغيير في حين ساند الاستعمار قوى الثورة المضادة. ويرى أن هذا قد كان سبب تدخل مصر عبدالناصر لدعم قوى التقدم في اليمن في وجه قوى الثورة المضادة والاستعمار. أما قوى الرجعية والاستعمار في العالم فقد وقفت ضد الجمهورية. وساندت الدولُ المتحررة الجمهوريةَ الوليدة.

ويرى أن الدلالة التاريخية للتغيير أنه كان قفزة نوعية أسقطت الحكم المطلق وجعلت سور العزلة ينهار، ووضعت نهاية للجمود السياسي وللاستبداد الاقطاعي.

أما دلالته الوطنية فهي أنه فتح باب التطور التاريخي والوحدة الوطنية ومهد الطريق للوحدة اليمنية وتحرير الجنوب المحتل، لتقوم دولة وطنية موحدة. وبذلك انتقلت حركة التحرر اليمنية والعربية في المركز الاستعماري في الجنوب من الدفاع إلى الهجوم.

ويلخص الدلالة الديمقراطية بأن كل يمني أصبح يمتلك حق أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية، وأصبح الشعب مصدر السلطات، وتوفرت ظروف مواتية لإقامة مجلس شورى يضم ممثلين للشعب ليشرفوا على السلطة التنفيذية ويوجهوا سياستها الداخلية والخارجية. ويشير إلى دعوة الثورة إلى قيام تنظيم شعبي يمثل القيادة الفكرية والسياسية والتنظيمية للثورة ويطور منهاجها ويعبئ الجماهير الشعبية لحماية الجمهورية والتمتع بالديمقراطية وفقا لما يقره الدستور. ومن المعروف أن الشهاري كان من القيادات المهمة في "التنظيم الشعبي للقوى الوطنية" الذي أنشئ في عام 1966 ليكون تنظيما شعبيا يحشد الجماهير للدفاع عن الجمهورية، وللإسهام في عملية البناء الاقتصادي والاجتماعي للبلاد. وقد اختفى هذا التنظيم باختفاء الجمهورية الأولى.

ويلخص الشهاري الدلالة الوحدوية للتغيير الجمهوري بأنه قد جاء ردا على انفصال سوريا عن مصر، وأعاد الأمل بقيام الوحدة العربية.

ويقرر أن للثورة اليمنية طابعا خاصا يتمثل بالأوضاع التاريخية والاجتماعية للواقع اليمني، لكنه طابع يجمعها بثورة التحرير الوطنية الديمقراطية في المنطقة العربية، ويسمح لها بالمشاركة في توسيع جبهة القوى المعادية للاستعمار والاقطاع والرأسمالية في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. ويرى أن الثورة اليمنية بسبب طابعها البرجوازي الصغير واحتضان جماهير الشعب لها من عمال وفلاحين ومثقفين ثوريين وبحكم التقائها الثوري مع مصر والدول العربية الأخرى، التي كانت تسير في طريق الاشتراكية، تستطيع أن تنتقل مباشرة من المجتمع القبلي – الاقطاعي إلى المجتمع غير الرأسمالي.

وهذا استنتاج يجعله يتناقض مع العطار ومُحَّد أنعم غالب اللذين يريان أن أوضاع اليمن المتخلفة تستدعي الحذر من الأخذ بالنظريات الجاهزة، وتفرض مراعاة ظروفها الخاصة الصعبة والمعقدة.

ويرى أنه خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الثورة كان كل شيء من أجل النصر في الحرب. أما بعدها فيجب أن تكون الإرادة للشعب، ولا بد من حسم الصراع بين الجناح الثوري والجناح اليميني، بين الاتجاه الثوري والجناح الإصلاحي. ويصنِّف زعماء المعارضة التقليدية ضمن الجناح الإصلاحي، أي غير الثوري، ويرى أنهم اختاروا الوقوف في الجانب المعرقل لسير الثورة نحو تحقيق أهدافها. لأنهم كانوا يريدون إدخال بعض الإصلاحات على حياة اليمن الاجتماعية والسياسية مع المحافظة على النظام القديم، فكان قيام الجمهورية تغييرا تجاوز أحلامهم. فلم يكونوا يرغبون في تغيير الوضع القبلي الاقطاعي، بل استندوا على رؤساء القبائل لينافسوا الضباط الأحرار، ويعتقدون أن اليمن ضحية صراع بين السعودية ومصر ويعملون لإنهاء الحرب الخارجية وإعطاء فرصة للتفاوض مع "الأطراف المعنية" (وفي هذا إشارة إلى كتاب مُحَّد أحمد نعمان بالعنوان نفسه). ويعتقد أنه لا يوجد اختلاف سياسي أو في الرؤية للحكم بينهم وبين السعودية.

وينتقد الشهاري القوى العسكرية التي عملت من أجل قيام الجمهورية وغامرت وتحملت المسئولية ويسميها "القوى الثورية"، ويرى أنها أخطأت خطأً فادحا بتمكين زعماء المعارضة التقليدية من الحكم بسبب نقص خبرتها السياسية وحسن نيتها، ولم تتنبه لخطورة الزعماء السياسيين الذين أفسحت لهم مجالا للنشاط وانخدعت بهم بحكم ماضيهم المعارض. ويرى أن ابتعادها عن ممارسة الحكم واعتمادها على دعم القوات المصرية لها قد كان خطأً، لأن التيار السياسي الثورة الذي يدافع الكاتب عنه قد أصبح جليا وواضحا يجمع من حوله قوى واسعة من الضباط الثوار والمثقفين الثوريين والتجار الوطنيين والعمال والفلاحين والجنود. وينبه إلى أن مطالبته باستبعاد الجناح

اليميني تعني إخراج هذا الجناح من السلطة وحرمانه من القاعدة الاقتصادية التي يستند إليها وعزله عن الحياة السياسية.

ويرى ضرورة خلق جهاز سياسي وإداري ثوري وتصفية الجهاز السياسي والإداري القديم من العناصر البيروقراطية والمشبوهة. ويدعو إلى حدوث تغيير ثوري جذري، وتغيير الوضع الاجتماعي، وخلق نظام اجتماعي متقدم. ويلح على ضرورة إلغاء النظام الاقطاعي، وتخطي مرحلة الرأسمالية من خلال إنشاء القطاع العام المتحرر من كل نفوذ أجنبي ليخلق القاعدة الأساسية للنهضة الاقتصادية ويُوفِّر الاستقلال الاقتصادي ويوجِد الشروط الاقتصادية للسير في طريق التطور غير الرأسمالي.

ويدعو إلى قيام مجلس شورى يضم جماهير الشعب، وإلى تحقيق الديمقراطية، لكنه يستدرك فيشترط أن يسبق قيام مجلس الشورى عملية إصلاح شاملة حتى لا تأتي الديمقراطية بالقوى التقليدية القديمة، وهذا يستدعي التمهيد بإجراءات ديمقراطية على النطاق الاجتماعي والاقتصادي والثقافي تؤدي إلى تغيير التركيبة الاقتصادية والاجتماعية القائمة.

وقبل هذا التغيير يعطِي الأولوية للإسراع بإنشاء تنظيم شعبي يملك منهجا ثوريا لتسيير الثورة على طريق التطوُّر الاقتصادي والاجتماعي الشامل. أي أنه يطالب بإنشاء نظام الحزب الواحد، كما كان الحال في مصر وفي بقية البلاد العربية المتحررة. ويعتبر نبذ الطائفية والعنصرية أساسية باعتبارهما ظاهرتين إقطاعيتين. ويدعو إلى قيام التنظيم الشعبي الذي يشكِّل ظاهرة تاريخية جديدة وينفي أن يكون التعدد الحزبي والحزبية شكلا صالحا للعمل السياسي الديمقراطي في البلدان النامية. ويدافع عن التنظيم الشعبي الواحد وينظر إليه باعتباره ظاهرة تاريخية جديدة تخص البلدان النامية لأسباب تتعلق بالتركيب الاقتصادي والاجتماعي المختلف عما في البلدان الرأسمالية، ويعكس التركيب الطبقي الخاص لهذه البلدان النامية، حيث تكون جماهير التنظيم الشعبي ممثلة بالفلاحين والعمال والمثقفين الثوريين والبرجوازية الصغيرة والجناح اليساري

والمتوسط من البرجوازية الوطنية. وهذه الظاهرة في رأيه ما تزال جنينية وفي مرحلة التكوين، وتختلف عن الجبهات الوطنية التي نشأت في أوروبا.

أما بالنسبة للوحدة العربية فيرى أن ربط حركة التوحيد القومي بإشاعة الحريات الديمقراطية للقوى الوطنية والشعبية وبالنضال من أجل الاشتراكية في وقت واحد يساعد على إيجاد أرضية فكرية توحد كل القوى الثورية والتقدمية في الوطن العربي للوصول إلى الوحدة، وكأنه يشترط أولا توحيد أداة الثورة ممثلة في التنظيم الشعبي الواحد.

نظرة في تطور المجتمع اليمني، سلطان أحمد عمر

كان هذا المؤلَّف أهم كتاب يصدر بعد قيام الجمهورية من وجهة نظر الكثيرين من أبناء الجيل الجديد الذي بدأ تعليمه بُعَيد قيام الجمهورية وكان أول من التحق بالنظام التعليمي الجمهوري الجديد الذي تأسس من الصفر وأدخل التعليم الحديث إلى اليمن الجمهوري. كان وعي هذا الجيل يتفتح على الحياة الجديدة ولا يجد كتابا لمؤلف يمني، وإذا وجد فإنه عادة ما يكون من الكتب الصفراء التي لا تستجيب لرغبة هذا الجيل في التفتح على العالم المعاصر، الذي بدأت أبوابه تنفتح أمامهم. وجاء هذا الكتاب ليركز على تناول المجتمع اليمني في تكامله واتساعه ويُعرِّف الجيل الجديد بالذات على البلد الذي ينتمي إليه ويأمل في أن يعد نفسه ويتهيأ لخدمته والارتقاء به، ويبسط له هويته اليمنية في إطار الأمة العربية التي ساندت جمهورية اليمن وسمحت بتصليب عودها قبل أن تعتمد على نفسها، في إطار عالم يطمح لفهمه والتفاعل معه والمشاركة في صنعه بأسلوب ومضمون يتسقان مع موقف هذا العالم من القضية اليمنية التي أصبحت محركا لحياة هذا الجيل.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن التيار العام في تلك الفترة في أوساط المثقفين اليمنيين، وفي أوساط الشباب في اليمن وفي العالم الثالث كله، كان قريبا من اليسار ومن الفهم اليساري لقضايا العالم الثالث. ولم يكن ذلك مجرد رغبة ذاتية أو نزعة ترف ومسايرة للموظة، بل كان اختيارا نابعا من حسابات وطنية. فبالنسبة لنا في اليمن، كانت دول العالم الثالث تتعاطف مع حقنا في صنع الحياة الجديدة على أرضنا، وكان الاتحاد السوفيتي أول من مد يد العون لبناء منشآت اقتصادية استراتيجية مثل ميناء الحديدة التي بدونها ما كان لعملية التغيير لجمهوري أن تنجح، وشرع في شق وتعبيد طريق الحديدة تعز وزود الجمهورية بالعتاد العسكري والتدريب لتستطيع الوقوف على قدميها. كما أن الصين الشعبية شقت طريق الحديدة صنعاء وعبدتها وهو ما سمح

بدعم الجمهورية ومدها عبر ميناء الحديدة، بل إن الصين الشعبية واصلت شق طريق صنعاء صعدة حتى في ظل حرب الدفاع عن الجمهورية وخلال حصار صنعاء. أما حركة القومية العربية فقد قدمت الأرواح وتحملت عبء الدفاع عن الجمهورية خلال سنوات عهد الجمهورية الأولى، ووصل الدعم حد تحمل عبء دفع مرتبات الموظفين الجمهوريين ومرتبات الوحدات العسكرية المدافعة عن الجمهورية في مرحلة من المراحل. كما ساعدت في مجالات التعليم والتدريب والرعاية الصحية والتحديث الإداري في وقت لم تكن الجمهورية بعد تملك الموارد المالية اللازمة التي تمكنها من الحصول على الخبرة الضرورية في السوق العربية أو الدولية.

كما أن حركة التحرر الوطني العربية والعالمية والدول الاشتراكية قد دعمت ثورة التحرير في الجنوب حتى نيل الاستقلال. وبالمثل وقفت هذه القوى مع قضية العرب الكبرى، قضية فلسطين، ووفرت العتاد الذي طلبته دول مثل مصر وسوريا باعتبارهما دولتي مواجهة، ودعمت المطالبة بتحرير الأرض العربية المحتلة.

كل هذا قد جعل الشباب اليمني والعربي أقرب إلى حركة اليسار وإلى الشعور بأنهم جزء من حركة عالم يتضامن معهم ويساندهم ويدعم قضاياهم. ومن هنا كان كتاب "نظرة في تطور المجتمع اليمني" أهم كتاب يستجيب لحاجتهم إلى فهم واقعهم والتعامل معه وفق نظرة ايديولوجية متماسكة ومنسجمة مع ما يدور في أذهانهم من اهتمامات وأسئلة، ويعطي لكل منهم الإمكانية لتكوين نظرته الخاصة، وأن يمتلك إجاباته الخاصة على الأسئلة التي تعتمل في ذهنه ولكن في إطار نظري لا يحيل إلى الكتب الأجنبية التي لا تتعامل مع الواقع اليمني ومعطياته الملموسة.

ومما يلفت النظر أن جميع المؤلفات التي تعكس التغيير الجمهوري كانت مهتمة بموضوع ملء الفراغ الذي تركه إسقاط الإمامة وحلول الجمهورية محلها. فقد كان الضباط الأحرار الذين تولوا تنفيذ عملية التغيير يوم 26 سبتمبر 1962 منشغلين بنجاح مغامرتهم الخطيرة التي كان فشلها يعني نهايتهم قتلى بسيف الطغيان وهزيمة

جديدة لحركة تحرير المجتمع اليمني بعد ما عانت تلك الحركة من هزائم وكوارث في المحاولات السابقة ابتداء بحركة التغيير الدستوري سنة 1948. ولم يكن لديهم لا الوقت ولا المؤهلات الثقافية والفكرية لوضع ما سماه مُحَمَّد علي الشهاري "منهاجا" للتغيير، ولا لصياغة ما سماه سلطان أحمد عمر "نظرة" في حركة المجتمع واستخلاص برنامج عملي تسير عليه الجمهورية لإحداث التغييرات المنتظرة والوفاء بالوعود التي طرحتها حركة التغيير الجمهوري.

بمعنى آخر، كان الجميع يشعرون بضرورة أن ينطلق التغيير الجمهوري من فلسفة (منهاج أو نظرة) تحدد خط السير وأولويات التغييرات المطلوبة، وترسم خطوط المستقبل. فما ذا ستكون الفلسفة إن لم تكن نظرة إلى العالم تمدنا بقاعدة للسلوك والتعامل مع الواقع الملموس واقتراح الحلول لمشكلاته وتوجيهه نحو بناء مستقبل متماسك يستجيب لحاجة الإنسان وطموحاته وأشواقه.

وقد حاول كل واحد من المؤلفات الصادرة خلال السنوات القليلة بعد الثورة أن يقدم بقدر ما تسمح له ملكاته وثقافته و"الفلسفة" السياسية التي ينطلق منها ما يراه منهاجا أو فلسفة تسير عليها الثورة.

فإذا كان قاسم غالب ومجموعة المؤلفين من المثقفين القريبين من حركة الأحرار الذين شاركوه في تأليف كتاب "ابن الأمير وعصره" قد وجدوا ضالتهم في تراث حركة التحرر الديني التي كانت حركة الأحرار المعارِضة قد استلهمتها، وفي المقدمة مُحَمَّد بن إبراهيم الوزير، والحسن الجلال، ومُحَمَّد بن إسماعيل الأمير، ومُحَمَّد علي الشوكاني وغيرهم، فإن مُحَمَّد أنعم غالب قد اكتفى في كتابه "اليمن" برصد حالة العزلة والتخلف المريع الذي عانت منه اليمن والتي إن لم توضع نهاية لها ستقود إلى انقراض الشعب اليمني وتشتته كجماعات مهملة على هامش عصرها، ولم يقترح سوى التعامل الواقعي مع الحقائق والنظر إلى الواقع كما هو دون تنظير ودون أوهام حتى يدرك الجميع ما ينبغي

عمله للقيام بالتغيير الذي لا يقبل التأجيل لإنقاذ من يمكن إنقاذه من ابناء اليمن المعذبين المسحوقين بالظلم والاستبداد والتغريب والضياع.

أما العطار، فبحكم أن كتابه قد كان بحثا أكاديميا أشرف عليه مفكرون فرنسيون متعاطفون مع حركة التحرر في العالم الثالث، ولهم نظريات في موضوع التخلف وكيفية التعامل معه لمساعدة هذه البلدان على امتلاك مصيرها وحل مشكلات واقعها بما يسمح لها بالنهوض ودعم عمليات تحررها واستقلالها، فقد كان حصيفا وواقعيا وحريصا على تناول الخصوصيات اليمنية في إطار النظريات العامة التي درسها، ودعا مخلصا كيساري إلى عدم القفز فوق معضلات الواقع الصعب الذي كان على علاقة عملية به. لأنه كان من أوائل المسئولين الجمهوريين في المجال الاقتصادي منذ البداية ومن المؤسسين لأول بنك يمني بعد الثورة، ومن المشاركين في دراسة تأسيس المؤسسات الجمهورية الجديدة الاقتصادية والمالية والإدارية، وممن عولت عليهم الجمهورية في أيامها الأولى لدراسة إمكان النهوض السريع بالاقتصاد الوطني صناعيا وزراعيا.

ولأنه كان على تماس مع حركة الواقع الصعب والمعقد، ويدرك المعوقات والعراقيل والتحديات، كان في كتابه "التخلف الاقتصادي والاجتماعي" واقعيا وحريصا على ألا تبتعد به نظريات التخلف التي درسها في جامعة السوربون الفرنسية ويقرأها في كتب أساتذته الكبار، عن التعامل مع الخصوصيات اليمنية المعقدة، ومع التخلف اليمني الذي لا يماثله أي تخلف آخر. وكان يدرك أن اليمن مهملة من جانب الدارسين والباحثين وهم لا يدركون حجم الكارثة التي تعيشها البلاد ولا ينتبهون إلى ضرورات وضع سياسات خاصة للتعامل مع واقع اليمن. وهكذا لم يكن يتردد في انتقاد تلك النظريات عند الضرورة وتبيان عدم صلاحيتها في بعض الحالات للتطبيق على المجتمع اليمني. ولم يتردد حتى في انتقاد جداول وبيانات منظمة الأمم المتحدة التي ما يزال بعض الدارسين حتى اليوم ونحن في القرن الواحد والعشرين

يستشهد بها، ولا يتردد البعض في الإشارة إلى معطيات البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي أو منظمات الأمم المتحدة عن اليمن وكأنها قران منزل مع أنها تعتمد على تقديرات أولية ناقصة يعدها موظفون بيروقراطيون في المؤسسات اليمنية، وليست سوى بضاعتنا ردت إلينا في تقارير تدعي المعرفة اليقينية.

أما سلطان أحمد عمر في كتابه "نظرة في تطور المجتمع اليمني" فيعطي ما يراه استجابة للحاجة إلى سد هذا الفراغ النظري بعد التغيير الجمهوري، بعد أن كانت الجمهورية قد انتصرت وبدأت مرحلة كان يُعتقد أنها ستكون بداية استقرار عام يسمح بالانطلاق في مشاريع التغيير الاقتصادي الاجتماعي الثقافي، ووضع برنامج عملي يحدد الأولويات ويرصد الموارد المتاحة ويستخدمها الاستخدام الأمثل للاستجابة لحاجات غالبية السكان من الفقراء الذين طحنهم النظام السابق وحرمهم من فرص التمتع بالحد الأدنى من الحياة الكريمة. وكان يدرك أن نحو ثمان سنوات قد مرت على التغيير الجمهوري اتسع خلالها الوعي، وزاد عدد المناصرين للتغيير، وتكاثرت طموحاتهم وتطلعاتهم لمستقبل أفضل.

تبدأ هذه "النظرة" إلى المجتمع اليمني وتطوره بالانطلاق من نظرية مادية تاريخية كلاسيكية، تقسم تطور المجتمع إلى مراحل تبدأ بالمشاعية البدائية، تليها مرحلة العبودية، ثم المرحلة الاقطاعية، ثم الرأسمالية تليها المرحلة الاشتراكية.

ويحدد المرحلة العبودية في اليمن بأنها تلك التي نمت فيها وترسخت الدول اليمنية القديمة وحضاراتها، وبخاصة دولة معين وقتبان وحضرموت وسبا وحمير. ويضيف "أن شروط تطور قوى الانتاج قد فرضت انتقال المجتمع اليمني من النظام المشاعي البدائي إلى مرحلة النظام العبودي القديم" بسبب اتجاه بعض القبائل إلى الزراعة والاستقرار في الأراضي الخصبة والاهتمام بالصناعات الحرفية وتربية الحيوانات المستأنسة. وكانت الحروب القبلية وسيلة لحشد الطاقات البشرية في عملية الانتاج بإخضاع القبائل الأخرى وإرغامها على العمل في الزراعة، والتحالف بين القبائل

القوية والضعيفة لتكوين قبائل متماسكة ترتبط بمصالح اقتصادية واجتماعية مشتركة. وهكذا اكتسبت القبلية مضمونا اقتصاديا واجتماعيا متوافقا مع أسلوب الانتاج العبودي الجماعي الذي حل محل أسلوب الانتاج المشاعي البدائي. ويستنتج من هذا التحليل أن القبائل الكبيرة قد كانت نواة الدولة العبودية القديمة[144].

لكن المؤلف بعد صفحات قليلة يخفف من الأحكام القاطعة التي تطبق النظرية التقليدية بتقسيم المجتمعات الانسانية إلى مراحل محددة، فيقلل من شأن هذا الاستنتاج القاطع عن طريق الإشارة إلى أن المجتمع اليمني القديم لم يعرف أسلوب الانتاج العبودي القديم كما عرفته مجتمعات أوربا، وبخاصة اليونان والرومان، لأن الأرض ومن عليها لم تكن ملكية خاصة، ولم يكن العبيد الطبقة الأساسية في الانتاج، وإن كان يستثني حالات كان فيها العبيد يقومون بالإنتاج كما في أوروبا، ويؤكد أن "أسلوب الانتاج الذي ساد في المجتمع اليمني القديم يشبه في خصائصه العامة نمط أسلوب الانتاج الأسيوي"[145]، الذي تكُون فيه ملكية الأرض عامة للدولة وتقوم الدولة بتسخير القوى البشرية عن طريق السخرة لتنفيذ الأشغال العامة كالسدود واستصلاح الأراضي وبناء قنوات الري وشق الطرق وبناء القصور والمعابد. وقد أدى هذا، كما يرى الكتاب، إلى بناء حضارات مزدهرة ماديا وثقافيا. ومن ضمن المنشآت المدَرَّجات الزراعية لحفظ مياه الأمطار الموسمية والاستفادة منها في الزراعة. "ولم تكن لتتم تلك الإصلاحات الضخمة في مجال الزراعة والري وتأمين حياة الاستقرار لو لم تقم تلك الدول الاستبدادية العاتية التي كانت تجند عشرات الآلاف من البشر عن طريق السخرة وبالاستناد على القبائل الكبيرة..."[146].

---

[144] سلطان أحمد عمر، نظرة في تطور المجتمع اليمني، ص. 11.

[145] نفسه، 14.

الخاضعة للاستعمار البريطاني.

ويرى أن المجتمع انقسم في تلك الفترة إلى طبقتين أساسيتين، الطبقة العليا وتتكون من الملك وموظفيه وسادات القبائل والمدن وكهنة المعابد وقادة الجيوش، وفئة الأشراف التي ظهرت في آخر العهد السبئي. أما الطبقة الثانية فهي الطبقة الدنيا التي تتكون من فئة القبائل المحاربة في جيش الملك، وحرسه وينتمون للقبيلة الزعيمة التي تملك حق حيازة الأرض، وفئة الجند، وفئة الفلاحين (القبائل الفلاحين)، والحرفيين المحتقرين، ثم العبيد المنزليين أو التابعين للمعبد أو للأرض. ولم يكن مألوفا انتقال فرد من طبقة إلى أخرى. ويخلُص إلى أن القبيلة ظلت قائمة لأن علاقات الانتاج وقوى الانتاج نمت من داخل القبيلة.

لكن تلك الحضارات اندثرت بسبب تدمير القوى المنتجة بواسطة الحروب، وانهارت المنشآت العامة كالسدود وقنوات الري. وأخذ التفسخ يصيب المجتمع العبودي القديم بتفسخ الطبقة العليا المسيطرة، فأهملت صيانة السدود وقنوات الري. وبدأت المِلكية الخاصة للأرض، وتحول أفراد من الطبقة العليا إلى ملاك أراضٍ كبار، منذ أوائل القرن الأول الميلادي وحتى القرن السادس. وانتهت المرحلة العبودية بالغزو الحبشي سنة 525م.

ويحدد عملية الانتقال من نمط الإنتاج الأسيوي إلى النظام الاقطاعي ابتداء بتغيير ملكية الأرض من ملكية الدولة وملكية الملك والمعبد إلى ملكية الأفراد. بهذا التحول في طبيعة الملكية انتقل المجتمع إلى المرحلة الاقطاعية وقامت علاقات الانتاج بين طبقة الاقطاع المالكة للأراضي والفلاحين.

وينبه الكاتب إلى أن للنظام الاقطاعي في اليمن خصائصه التي تختلف عما عرفه النظام الاقطاعي في أوروبا، وأن علاقات الانتاج وقوى الانتاج الاقطاعية قد ظهرت بأشكال مختلفة من منطقة يمنية إلى أخرى. وظهر الإسلام بعد أن أصبحت علاقات الانتاج وقوى الانتاج ذات طابع إقطاعي، كما يقول المؤلف. فكانت الدعوة الإسلامية بالنسبة لجميع الطبقات والفئات عامل انفراج بعد الغزو الحبشي ثم التدخل

الفارسي والحروب بين القبائل والقوى المختلفة وما نتج عنها من دمار، فتحرر اليمن من الغزو الأجنبي، وبادر اليمنيون بالاستجابة لتلك الدعوة وبدأوا يهاجرون لنصرة الدين الجديد. لكن الدعوة الإسلامية في رأيه وطدت الملكية الفردية للأراضي، وتحولت اليمن إلى مخاليف في الدولة الإسلامية. وأدى ابتعاد مركز الخلافة عن اليمن إلى بدء نشوء الدويلات اليمنية ولجوء الدعوات المعارضة إلى اليمن لاتقاء التعرض لجيوش الخلافة. وهو ما سمح للزعامات الاقطاعية بإقامة دولها المستقلة عن دولة الخلافة.

وأوجز المؤلف التاريخ الإسلامي في صفحات قليلة حتى وصل إلى السيطرة الاستعمارية والتجزئة، واضعا الوجود التركي ومحاولات الاحتلال البرتغالي والسيطرة الاستعمارية البريطانية على صعيد واحد. وينتقد توقف ما يسميه حركة تحرير اليمن من الأتراك عن الاتجاه نحو طرد المستعمر البريطاني، ويعيد هذا التوقف إلى أن سلطة الإمام اتسمت بطابع إقطاعي استبدادي عنيف نفَّرَت منها بقية مناطق اليمن.

ويحدد المؤلف أشكال الاستغلال الاقطاعي في مناطق اليمن المختلفة. ففي تهامة وفي مناطق إب وتعز ورداع أو ما يسميه "وسط الهضبة" توجد علاقات إقطاعية راسخة، وقد تتخذ في بعض مناطق تهامة شكلا عبوديا قديما، ويوجد في بعض مناطق الهضبة حيث الانتاجية عالية شكل يشبه القنانة.

أما الفئات الاجتماعية فيحددها بالسادة والأشراف ومنهم الأئمة الذين أسقطت الجمهورية حقهم في توارث الحكم. وتأتي بعدها فئة القضاة، والفئة الثالثة مشايخ القبائل، والرابعة ملاك الأراضي الاقطاعيين، كل هذه الفئات تشكل في رأيه الطبقة الاقطاعية. وتأتي بعدها طبقة الفلاحين وتنقسم إلى فلاحين أغنياء، يستعينون بآخرين في زراعة أرضهم، وفلاحين متوسطين يزرعون أرضهم بأنفسهم، وفلاحين صغار يزرعون أرضهم ويعملون بالزراعة عند الآخرين، وفلاحين معدمين لا يملكون أرضا ويعملون بزراعة أراضي الاقطاعيين وعند الفلاحين الأغنياء. ويقرر أنه حيث

التضاريس وعرة والأمطار قليلة ويشح الانتاج توجد القبائل المقاتلة التي تعيش متقاتلة فيما بينها، وتستخدمها السلطات لإخضاع المناطق الأخرى.

ومثل جميع من كتبوا عن اليمن، يشعر بالحاجة إلى تحديد الأراضي اليمنية التي يتحدث عنها وما هي حدودها، فيتحدث عن التطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية في مملكة الإمام وعدن والمحميات.

ويبدأ تلك التطورات منذ بدأت حركة التنوير في الثلاثينات وما تلاها من نشوء حركة الأحرار المعارِضة في الأربعينات. ويسجِّل ملاحظة مهمة تقول إن مملكة الإمام كانت عبارة عن ريف لمستعمرة عدن، والاستقلال الذي تتباهى به السلطة الإمامية قد كان شكليا لأن مستعمرة عدن كانت تسيطر على الدخول إلى اليمن والخروج منها وتتحكم في حركة التجارة تصديرا واستيرادا.

ويتفق مع العطار والشهاري في تقرير أن الاقتصاد قد كان يقوم على الزراعة التقليدية ما عدا إدخال زراعة القطن في أبين ومؤخرا في تهامة لكنها كانت محدودة ولم تؤثر على البنية الاقتصادية في البلاد. ولم يكن يوجد في اليمن أية صناعة، ويضيف أن مشاريع صناعية محدودة قد بدأت بعد قيام الجمهورية إلا أن التبادل التجاري مع الخارج قد كان محدودا وعبر عدن، وكان البن الصادر الوحيد تقريبا.

ويكرر ما بات معروفا من أن حركة المعارضة في الأربعينات وبعد سحق حركتها الدستورية عام 1948 تعرضت لنكسة كبيرة وأعدِم الكثير من قادتها وتشرد الباقون يبحثون تحت كل سماء عن ملجأ يقبلهم، حتى جاءت ثورة 26 سبتمبر 1962 التي فاجأتهم ولكنهم قبلوا بها وتحمسوا لها وشكلوا معارضة داخلها.

ويسجل وقائع نشوء تجمعات سياسية جديدة سرية في الخمسينات، هي حزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب، واتحاد الشعب الديموقراطي. لكن التغيير الجمهوري قد تحقق على أيدي منظمة صغيرة سرية من الضباط الأحرار. ويشير إلى حقيقة أنه إذا كانت الجمهورية قد نجحت بسرعة في الاستيلاء على العاصمة

ومناطق كثيرة إلى الجنوب منها، فإنها قد وجدت نفسها في مواجهة مع كثير من القبائل الشمالية التي كانت تشكل قاعدة الإمامة تاريخيا. وسرعان ما وجدت الجمهورية نفسها تواجه مقاومة شرسة مدعومة من الخارج تهدف إلى إسقاطها كما سقطت الحركة الدستورية في سنة 1948. وأصبح اللجوء إلى الدعم العسكري الكبير من مصر عبدالناصر ضرورة في رأي المؤلف لتمكين الجمهورية من الصمود والاستعانة بهذا الدعم حتى تصليب عودها وبلوغ مرحلة الاعتماد على النفس في الدفاع عن وجودها.

ويحدد المؤلف الموقف من الوجود المصري الذي أصبح محل انتقاد حركة المعارضة التقليدية كما يلي:

"لقد كان وجود جيش العربية المتحدة في اليمن ضرورة وطنية... وكانت اليمن في حاجة إلى خبرات الجمهورية العربية المتحدة... تثبيت الجمهورية العربية اليمنية كان يتطلب دعم العربية المتحدة... قامت بدور وطني هام في الساحة الوطنية شمالا وجنوبا... إلا أن الأجهزة المصرية في اليمن، وبالذات القيادة البيروقراطية العسكرية" قد ارتكبت أخطاء كبيرة. ويمضي في انتقاد ممارسات جهاز المخابرات المصري واعتماده على زعماء القبائل والاقطاعيين ومنحهم الأموال والسلاح لمساعدة الجيش المصري مما شجعهم على التكتل والسعي للاستيلاء على السلطة، ويرى أنهم أصبحوا دولة داخل الدولة[147].

ويؤرخ الكتاب لنشأة الحركة النقابية داخل الجمهورية، ويقدم معلومات لم تسجل في أي مرجع آخر، ولذلك تكتسب أهمية تاريخية، فيشير إلى أن أول منظمة نقابية في الشمال قد تكوَّنت سرا في مشروع شق طريق تعز صنعاء سنة 1961، وهو مشروع كانت تنفذه الوكالة الأمريكية. ويضيف أن هذا التكوين السري قد تحول في سنة 1963 إلى نقابة العمال في تعز، وتأسست بالمثل نقابات عمال في الحديدة

[147] نفسه، ص. 178 . 179.

وصنعاء، ومن النقابات الثلاث تكون الاتحاد العام لعمال اليمن سنة 1965 الذي أصبح عضوا في الاتحاد العام للعمال العرب في آخر العام نفسه.

كما يشير إلى بدء تكوين المنظمات الأهلية، فتأسس في تعز نادي الشباب الثقافي اقتداء بنادي الشباب الثقافي في عدن الذي تستفيد منه حركة القوميين العرب، وكان قناة من قنوات نشاطها السياسي وفعلها الثقافي. وفي العام نفسه الذي نشأ فيه الاتحاد العام لعمال اليمن بدأ تشكيل الجمعيات التعاونية الريفية في محافظة تعز والتي كانت امتدادا لما سمي "النوادي والاتحادات القروية" لأبناء الشمال في مستعمرة عدن والتي تحدثنا عنها آنفا، وتقوم بمهمات اجتماعية كمساعدة الطلبة الفقراء، وجمع التبرعات لإنشاء مدارس أهلية في مناطقها. ويصنف المؤلف "المقاومة الشعبية" التي نشأت خلال حصار صنعاء في أواخر 1967 وبداية 1968 باعتبارها من الجمعيات الأهلية بسبب قيامها على التطوع وإن قامت بأدوار عسكرية وخدمية أثناء الحصار.

ويرى المؤلف أن سيطرة المعارضة التقليدية على الحكم بعد نوفمبر 1967 بعثٌ جديد لهذه المعارضة التقليدية التي لم يكن التغيير الجمهوري في برنامجها بل تقبلته وسايرته حتى استولت عليه لتقيم مشروعها الإصلاحي القديم. ويسرد الأخطاء الجمهورية التي سمحت لها بالانبعاث والسيطرة على الجمهورية، مثل القرار الجمهوري رقم (1) لسنة 1963 بإنشاء مجلس الشيوخ في كل قبيلة وفي كل لواء (محافظة) وفي العاصمة، ومنحهم رواتب وسلطات الإشراف على الجهاز التنفيذي للدولة. وفي الوقت نفسه صدر القرار الجمهوري رقم (7) لسنة 1963 بحظر الحزبية والتضييق على القوى الجديدة. وهكذا في الوقت الذي حوصرت فيه قوى التغيير فُتِح المجال واسعا للقوى التقليدية القديمة كي تحافظ على مصالحها وتوسع نفوذها وتُقوِّي مركزها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وحين خرجت القوات المصرية من اليمن عقب هزيمة العرب في الحرب مع إسرائيل في يونيو 1967 كانت القوى التقليدية في وضع سمح لها بالسيطرة على الحكم دون صعوبات. وقامت بتوجيه ضربة لقوى الجديد وملاحقتها والتضييق عليها.

أما في عدن والمحميات فقد سرد الكتاب التطورات التي حدثت منذ بداية الاحتلال وظهور التجمعات السياسية مثل الجمعية العدنية، ورابطة أبناء الجنوب، والجبهة الوطنية المتحدة سنة 1956، وظهور الأحزاب القومية مثل البعث، وحركة القوميين العرب، واتحاد الشعب الديمقراطي، وأوجز جهود حركة القومين العرب للتوسع في أوساط الفئات الشعبية وبخاصة التواجد في الحركة النقابية تمهيدا لقيام الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، التي أعلنت قيام ثورة 14 أكتوبر 1963 وبدأت الكفاح المسلح. وسرد الكتاب مواقف القوى السياسية المختلفة من الكفاح المسلح إما معارِضة وإما مؤيدة للجبهة القومية التي خاضت حرب التحرير وتصارعت مع جبهة التحرير المكونة من القوى التي عارضت في البداية اللجوء إلى الكفاح المسلح، حتى استولت الجبهة القومية على المناطق ودخلت في صراع مسلح مع جبهة التحرير المنافسة لها ونجحت في التغلب عليها وتسلمت استقلال البلاد وأنشأت جمهورية مستقلة عاصمتها عدن.

وأصَّل للصراع اللاحق داخل الجبهة القومية بتتبُّع تنوع الفئات التي تحالفت داخلها، وهو ما أدى في رأي الكاتب إلى الصراع داخل الجبهة حول الرؤى والتوجهات، ويحاول أن يعطي تفسيرا طبقيا لتلك الاختلافات، وتتابعت الخطوات التصحيحية داخل الجبهة حتى عقِد مؤتمرها الرابع في زنجبار سنة 1968 الذي كان مقدمة لاستيلاء يسار الجبهة على السلطة في 22 مايو 1969.

ولخص الخلافات بين قيادة حركة القوميين العرب المركزية في بيروت التي كانت تؤيد مصر بدون نقاش وحركة القوميين العرب في اليمن التي كانت على خلاف مع الأجهزة المصرية في اليمن حول قيادة الكفاح المسلح ضد البريطانيين في الجنوب، مما

أدى إلى انقطاع الصلة التنظيمية بين فرع الحركة في شمال اليمن والقيادة المركزية في بيروت.

وانتقد الكتاب حتى الميثاق الوطني الذي تبناه المؤتمر الأول للجبهة القومية في سنة 1965 بدعم من القيادة المركزية للحركة، واعتبر أنه لم يكن مناسبا. واستنتج أن ذلك قد كان مقدمة لدمج الجبهة القومية في جبهة التحرير في 13 يناير 1966 مما أدى عمليا إلى توقف الكفاح المسلح ضد البريطانيين. لكن قواعد الجبهة القومية سرعان ما تنبهت للمخاطر الناتجة عن الدمج على استمرار معركة التحرير، فبادرت بإعلان استعادة زمام المبادرة ومواصلة الكفاح المسلح الذي تواصل حتى الاستقلال.

وقد سرد المؤلف جميع هذه الأحداث والتطورات وخلفياتها السرية بطريقة شدت انتباه أبناء الجيل الذي كان ما يزال يفتح عينيه على ما حوله فلا يجد مصادر تساعده على فهم ما يدور من حوله والتفاعل معه إن استطاع، في وقت كان فيه هذا الجيل قد بدأ في اتخاذ المواقف المتعاطفة أو المؤيدة أو حتى المعارِضة، وكان في أمس الحاجة إلى أن يكون على بينة من الحقائق والتطورات. فجاء هذا الكتاب ليقترح إجابات لم يجد جيل الجمهورية غيرها متاحا أمامه لا في المدرسة ولا في الصحافة المحلية المحدودة الموجهة وغير المستقلة. لذلك اعتبرناه من وجهة نظرنا أهم كتاب قرأناه في تلك المرحلة وساهم في تكويننا الفكري والسياسي، بل والثقافي، لأنه قدم لنا "نظرة متكاملة" إلى مجتمعنا، وزودنا بتفاصيل وأسماء وتواريخ، وعرَّفنا على تيارات الحياة السياسية التي كانت تدور من حولنا دون أن ندركها ناهيك عن أن نتفاعل معها.

وهذا ما أعطى لهذا الكتاب أهميته السياسية والثقافية في تلك الفترة التي كانت تعاني من ندرة الكتاب اليمني، وبخاصة الكتاب الذي يتناول الموضوعات المثارة في الأخبار وفي المقهى والشارع وفي المقايل لكنها غير مثارة في الصحافة ولا في المدارس. ولذلك انتشر هذا الكتاب بسرعة وتداوله القراء كالمنشور السري، وانتقل من يد إلى يد بحرص شديد، ومن ثم كان كتابا أسهم إلى حد بعيد في التكوين الثقافي للكثير من

الشباب. ومن المؤكد أن القوى السياسية المنافِسة للتيار السياسي الذي ينتمي له المؤلف والمعارِضة له قد كان لها انتقادات سياسية وغير سياسية للكتاب، لكن هذا الانتقاد لم يكن شائعا قدر شيوع الكتاب نفسه، ولم يصل إلى أيدينا في تلك الفترة، والغالب أنه كان نقدا شفويا في الأطر الضيقة ولم يكتب في نص يناقش موضوعات الكتاب ويبين ما فيها من أخطاء أو من انحياز سياسي إلى تيار بعينه، هو التيار الذي شارك مشاركة فعالة في الدفاع عن الجمهورية وفي الكفاح المسلح لتحرير الجنوب من الاستعمار البريطاني وأصبح في الجمهورية الثانية مشاركا في المعارضة ودفَع غاليا ثمن معارضته تلك.

وما يزيد من أهمية الكتاب أن مؤلفه ينقل الأحداث والمواقف والتحليلات من مصدرها الأول، لأنه لم يكن مجرد مشارك في تلك الأحداث والمواقف، بل كان في موقع قيادي في تيار اليسار الذي يمثله، ومشاركا في اتخاذ القرارات السياسية المهمة. وعمِل خلال المرحلة الأخيرة من الكفاح المسلح ضد الاحتلال البريطاني لعدن والمحميات مستشارا سياسيا سريا مسموع الكلمة لدى الجبهة القومية، بما في ذلك عند نيل الاستقلال في 30 نوفمبر 1967[148]. ولعل هذه الصلة الوثيقة بالأحداث التي جرت تحت السطح ولم ينشر الكثير عنها في الظاهر قد أثارت فضولنا في تلك الفترة، وجعلتنا أكثر تلهفا لقراءة الكتاب والاستزادة في البحث عن معلومات إضافية

---

[148] وبعد عودته من عدن بُعَيد الاستقلال إلى الشمال عمل على تحويل فرع حركة القوميين العرب ليؤسس الحزب الديمقراطي الثوري اليمني عام 1968 وأصبح أحد أهم قياداته، قبل أن يصبح عام 1972 أمينه العام. ومعروف أن والده أحمد عمر العبسي كان من أوائل المستنِيرين، وكان أول من أدخل التصوير الفوتوغرافي إلى اليمن، وهو الذي التقط صور الإعدامات التي نفذها الإمام أحمد حميدالدين في ميدان العُرضِي في تعز عقب فشل حركة 1955. وهي الصور التي نشرها الكاتب الكويتي من أصل يمني أحمد السقاف في كتابه "أنا عائد من اليمن" المنشور في العام نفسه، وكشفت لأول مرة بشاعة عمليات الإعدام في مملكة الظلام.

تساعدنا في فهم واقعنا وتلمس خطواتنا الأولى في معمعة الصراعات الدائرة في اليمن وفي المنطقة العربية وفي العالم.

دراسات فكرية وأدبية، وكتابات، أبو بكر السقاف

كان أبو بكر السقاف قد بدأ الكتابة بأسلوب جديد لم تعرفه الساحة الثقافية في اليمن، يتسم بكثير من العمق وسعة الاطلاع والتكوين الثقافي المتين، لكن هذه المقالات والبحوث لم تُنشَر، أو نشرت متفرِّقة في صحف قليلة الانتشار. وتصادف أن بدأت مجلة "الكلمة" البحث عن مؤلفات تستحق النشر، واستعانت بعبدالعزيز المقالح الذي كان حينذاك مقيما في القاهرة، فاختار لها مجموعة مقالات وبحوث كتبها السقاف في أوقات مختلفة ولم تجد فرصتها للنشر والوصول إلى أيادي القراء مع أنها متميزة من حيث عمقها وتناولها لموضوعات غير مطروقة في اليمن، وبها بلغ فن المقال في حركة الثقافة في اليمن ذروة تطوره وعمقه وسعة اطلاعه.

وقد بدأت علاقتي بما يكتبه السقاف حين كنتُ في بداية تفتحي على القراء الأدبية وتمرسي في السياسة في مطلع سبعينات القرن العشرين. وكنت أسمع لأول مرة بمثقف وكاتب اسمه أبو بكر السقاف، إذ وقع في يدي مقال طويل، وفي الواقع بحث، بعنوان "ملاحظات نقدية في المركزية الأوربية" في الفلسفة، نشرته صحيفة "الحقيقة" الأسبوعية التي كان المثقف اليساري يحيى عبدالرحمن الإرياني قد أصدرها في تعز وفتحت بابا أوسع لتناول القضايا السياسية والثقافية بشكل غير مسبوق في الحركة الثقافية في اليمن. فأحسست في الحال من قراءة المقال أنني إزاء مثقف وكاتب جديد ومختلف، من حيث سعة الاطلاع والإحاطة بالموضوع وبتيارات الفلسفة، ومن حيث العمق ودقة الملاحظات والقدرة على الصياغة. وبدأت منذ ذلك الوقت أترقب أي مقال يكتبه السقاف في المجالات المختلفة. ومن حسن الطالع أنني وقد أصبحت طالبا في الجامعة قد وصل إلى يدي كتاب "كتابات فكرية وأدبية"، بمقدمة كتبها

عبدالعزيز المقالح، تشكو من أن إنتاج الكتاب وأن التأليف في اليمن قد تأخر وأننا ما نزال مستهلكين للكتاب الصادر خارج اليمن ولم نبلغ بعد مرحلة المشاركة في الإنتاج المعرفي.

فأقبلتُ على هذا الكتاب إقبالا متحمسا والتهمتُ ما فيه من مقالات في وقت قصير. وجاء الكتاب الثاني بعنوان "كتابات" ليؤكد المكانة الكبيرة لكاتبه باعتباره كاتبا يمنيا متميزا واسع الثقافة يضيف إلى حركة الثقافة الحديثة في اليمن لبنة قوية لم تتوفر لها من قبل.

فأول المقالات، بعنوان "بتهوفن، موسيقى لكل العصور"، غير مسبوق في الكتابات اليمنية المهتمة بالتناول النقدي لفن الموسيقي في اليمن، يستعرض إبداع واحد من عظماء الموسيقيين في العالم. ويقدم الفن ليس باعتباره "أقصى درجات الفرح التي يهيِّئها الإنسان لنفسه" فحسب، بل باعتباره ضربا من المعرفة العميقة والدقيقة. وقد كتب هذا المقال سنة 1970 في ذكرى ميلاد ذلك الفنان العظيم، من وجهة نظر متذوق للموسيقى وليس من وجهة نظر موسيقية متخصصة. ويعلل عظمة فن بتهوفن من حيث تعبيره عن التغيير التاريخي الذي أحدثته الثورة الفرنسية، وكونه انعكاسا للحركة الرومانسية وللنزعة الديمقراطية التي شهدتها أوروبا والعالم منذ ذلك التاريخ.

ومن بتهوفن إلى ترجمة مختارات من الشعر الرومانسي لليرمنتوف، مقدما لها بتعريف بالشاعر. وتناول في مقال آخر مختارات من شعر شاعر رومانسي آخر هو هلدرلن، يسبقها مقدمة عن الشاعر وعلاقته بالفيلسوف الوجودي هيدغر، والظروف التي نشأ فيها في ألمانيا المقسمة وأثرت فيه وفي شعره. واستعرض في تناول آخر مكانة بوشكين في الثقافة الروسية معتبرا أنه "صنع وجدان الروس" وكتب عن شعر بوشكين ونثره بحثا طويلا وعميقا، كما كتب عن الشاعر السوفيتي بلوك وترجم بعض قصائده.

وبالنسبة للثقافة العربية الإسلامية، كتب مقالا مطولا عن الأصول الاجتماعية السياسية للمعتزلة، يعتبر بحق إضافة نوعية إلى ما كتب عنها. فمع أن ما كتب عن المعتزلة كثير نسبيا بالعربية وبغير العربية، باعتبارها مدرسة العقل في التراث العربي الإسلامي، لم أقرأ مثل هذا التناول لأصولها الاجتماعية السياسية في أي تناول آخر. إذ يرى أن الدارسين العرب للمعتزلة قبله "اقتصروا عند الحديث عن الجانب الاجتماعي والسياسي على ذكر بعض المظاهر العامة، التي لا تؤدي إلى صياغة محددة واضحة للأصول والجذور الاجتماعية لحركة المعتزلة، ولذا فإن الصورة التي قدمها مؤرخو الفِرَق أمثال الشهرستاني والبغدادي وابن حزم وما تناثر من مؤلفات الجاحظ وابن المرتضى وغيرهما هي الماثلة إلى يومنا هذا في أذهان القراء العرب عندما يتحدثون عن المعتزلة ومجتمعهم ومواقفهم السياسية"[149]. ويرى أن هذا يحتاج إلى مزيد من الدراسة والفحص.

ويناقش السقاف مقالات الشهرستاني والبغدادي وابن حزم والجاحظ وابن النديم والزمخشري والجويني والغزالي والباقلاني وابن خلدون من الأقدمين، وعبدالعزيز الدوري وغيره من المحدثين، بطريقة مبدعة وبسعة اطلاع على النصوص وفهمها وتناولها نقديا بما يليق بمفكر معاصر يستحق الإعجاب، وهذا ما جذب الكثيرين لقراءته بإقبال وشغف، وما جعل مكانه في قسم الفلسفة في جامعة صنعاء حاجة ماسة وليس مجرد توظيف لأستاذ مؤهل في مجال تخصصه. وهو أيضا ما أكسبه إقبال تلاميذه ومحاولة اقتدائهم به.

ويرى أن موقف الخليفة المأمون من المعتزلة محكوم بكونه خليفة يدير شئون مملكة مترامية الأطراف، فيها صراعات مذهبية وسياسية ودينية وتداخل بين الشيعة والاعتزال والحركة العلوية السرية، مع أن المعتزلة كانت في البداية حيادا بين أرستقراطية قريش ممثلة في الأمويين والهاشميين، لكنهم لم يأخذوا برأي الخوارج الذين كانوا،

---

[149] أبو بكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية، ص. 137.

باعتبارهم من فقراء الجزيرة، يمثلون إسلاما لا علاقة له بصراعات مكة والمدينة "وتمسكوا بأخوة إسلامية بسيطة لا تفرق بين المسلمين إلا بالتقوى"[150]. ويضيف أن دولة الخلافة في أيام مؤسسي المعتزلة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد أصبحت مختلفة في عصر المأمون.

يركّز السقاف على عهد المأمون في دراسة الجذور الاجتماعية والسياسية للمعتزلة. ويرى أن تكوُّن المدن في المجتمع العربي الإسلامي وتوسعها ناتج عن توسع السوق التجاري مقتبسا قول ابن خلدون إن الدولة هي "السوق الأعظم" ليستنتج أن نزوع المعتزلة "نحو تحكيم العقل كان بلا شك تعبيرا عن المزاج الفكري لطبقة التجار وأرستقراطية المدن الكبيرة" وأن "فلسفة المعتزلة محاولة لخلق أسس عقلية للتطور داخل الفكر الديني، أي دون التضحية بأصوله وأسسه التي كان أهمها في نظرهم التوحيد والعدل"[151].

وينتهي إلى أن فشل المعتزلة قد كان الوجه الآخر لانحدار حركة التطور الصاعد في عصرهم بانحسار تطور المدن وأصحاب الحِرَف والفئات الاجتماعية المستنيرة في المدن الكبيرة، وهذا رأي مبتكر ولا شك ولكنه قد يحتاج إلى نقاش لفحص مدى صحته وانطباقه على واقع الحال. لكن دراسة أسباب أفول المعتزلة ما تزال مفتوحة وقابلة للنقاش. ويظل السقاف مثالا يستحق أن يحتذى للمثقف اليمني واسع الاطلاع والمتمكن من أدوات التحليل الفلسفي والكاتب العميق الذي إذا تناول موضوعا أغناه بالبحث والإحاطة بجميع جوانبه.

ومن المقالات التي ضمها هذا الكتاب بحث بعنوان "الزبيري شاعرا ومفكرا" يعد من أعمق وأهم ما كُتِب عن الزبيري، وقد استعنت به في الفصل السابق عن الزبيري وتجديد لغة الشعر في اليمن.

---

[150] نفسه، ص. 139.

[151] نفسه، ص. 141 . 144.

ويضم الكتاب الثاني للسقاف والذي يحمل عنوان "كتابات" (أعطت له دار الهمداني في عدن التي أعادت طبعه الرقم 1)، مجموعة أخرى من المقالات والبحوث التي كتبت في أوقات متفرقة وجمعت لنشرها في هذا الكتاب.

ومن مميزات كتابات السقاف أنها تقيم حوارا صريحا أو مضمرا مع كتاب آخرين تناولوا الموضوع نفسه. ففي المقال الأول من هذا الكتاب بعنوان "القضية الأولى" يتناول التخلف الاقتصادي والاجتماعي في أكثر البلدان فقرا في وقت كتابة المقال، وهي اليمن وإثيوبيا وبنغلاديش وأفغانستان، وكأنه يقيم حوارا غير مباشر مع تناول مُحَمَّد سعيد العطار للتخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن[152] وتناوله النقدي في حينه لتعريفات التخلف ولتعامل المفكرين الاقتصاديين مع هذا التخلف، ولتقارير منظمات الأمم المتحدة ولجداول بياناتها.

ويفحص السقاف مفاهيم سائدة في الفكر السياسي والاقتصادي العالمي، وعلى الأخص فيما سمِّي البلدان النامية، حول خلق كتلة خاصة بالدول الفقيرة، أو ما يسميه دول العالمين الثالث والرابع (باعتبار أن أفقر الدول وأكثرها تخلفا تمثِّل العالم الرابع) مستبعدا إمكان تحقق الفكرة لأن ما يجمع بينها هو تبعية اقتصادها للسوق الاستعمارية. ويرى أن من المغالطة تصنيف الدول على أساس معدل دخل الفرد، لأن دخل الفرد يعتمد على تطور قوى الإنتاج ووسائل الإنتاج، ولأن تدني مستوى قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج يمتص جميع خيرات المجتمع المادية والروحية. كما أن المديونية تثقل كاهل دول العالم الثالث، بسبب النمو السريع لمعدل الاستهلاك مما يكبح عملية التنمية ويؤدي إلى تدهور الإنتاج المحلي، فتستهلك البلاد أضعاف ما تنتج، وتلجأ إلى

---

[152] أذكر أنني قرأت في الثمانينات مقالا للسقاف نشر في إحدى الصحف يتناول مؤلف العطار تناولا نقديا وحظى بإعجابي فاحتفظت به في نسختي من الكتاب لأعود إليه عند الحاجة، ولكنني بسبب كثرة تنقلي من منزل إلى آخر ومن بلد إلى آخر واضطراب ظروف اليمن قد فقدت تلك النسخة من الكتاب ومعها المقال المذكور. ولم تتح لي ظروف اليمن الحالية التواصل معه في منفاه الاختياري.

الديون لسد العجز في ميزان المدفوعات المختل، مما ينتج التبعية للسوق الرأسمالية وانخفاض معدل الدخل الفردي، ويزداد التخلف التكنولوجي، ويستمر تخلف البلد المعنِي.

ويلاحِظ أن تحديد سعر العملات الأجنبية بقرار إجراء شكلي يسهِّل المضاربة بالعملات في السوق المحلية ومن ثم تدور حلقة التخلف. ولن تكون إعادة جدولة الديون سوى مسكِّن مؤقت. ولا تستطيع إلا حكومة تمثِّل غالبية الشعب أن تتخذ قرارات جريئة تحدِث تغييرات هيكلية اقتصادية واجتماعية تؤدي إلى زيادة النمو الذاتي.

ويتناول في مقال آخر مسألة "هجرة العقول ومشاكل التطور" فيقول إن هجرة العقول لم تعد عفوية كما كانت في السابق، بل أصبحت تهجيرا منظما تموله جهات معينة، لأن الدول المضيفة للمهاجرين لا تدفع شيئا مقابل تعليم المهاجرين وإعدادهم من أطباءٍ ومهندسين وباحثين علميين. ويورد أرقاما عن عدد المهاجرين من المتعلمين إلى الولايات المتحدة وبعض دول أوروبا الغربية، ويعيد هجرة الكوادر من الدول العربية إلى توفُّر فرص علمية وثقافية لا تتوفر في الوطن، وإلى المصاعب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وعدم الاستقرار، ووجود بيئة طاردة. كما أن هجرة اليد العاملة تحبط الصناعة والتنمية. ويستنتج أن هجرة العمال والكفاءات كفيلة بشل كل تخطيط في المستقبل.

وعن الهجرة اليمنية يقول إن للهجرة تاريخا طويلا في حياة اليمنيين، وأصبحت تميز المجتمع اليمني، بسبب قسوة الطبيعة اليمنية وتنوعها الجغرافي والصراع بين الدولة المركزية والقبائل، لكنه يؤكد على عدم المبالغة في دور الظروف الطبيعية لأن ضآلة الدور الإنساني التنموي تجعل الظروف الطبيعية حاسمة. ويعتبر الهجرة مظهرا من مظاهر التبعية الاقتصادية للبلدان المضيفة.

ومن المقالات المهمة التي احتواها الكتاب تناول خصائص عملية تحديث اليابان. فقد تخلى الحكام الإقطاعيون اليابانيون في الماضي عن سياسة العزلة التي دامت أكثر من مئتي عام، وشرعوا في الانفتاح على الثقافة الغربية واقتبسوا منها بنشاط. فأخذت هذه الثقافة الغربية تتغلغل في الحياة اليابانية. وانفتح الباب لتطوير قوى الإنتاج الرأسمالية ولكنها سارت في طريق يختلف عن الطريق الذي سارت فيه الدول الرأسمالية المتقدمة في أوروبا والولايات المتحدة، وقامت بإصلاحات عصرية. فأنجزت اليابان في السنوات الأولى من القرن العشرين ثورتها الصناعية بسرعة وبوتائر قل نظيرها في العالم، وبنت السمات العامة للدولة العصرية، حتى أصبحت سنة 1919 إحدى الدول الخمس الكبرى. لكن النزعة العسكرية تأججت ولم تحظ الديمقراطية البرجوازية والنزعة الفردية بفرص للنمو.

ويضيف أن نمو الرأسمالية في اليابان أدى إلى ظهور الديمقراطية وازدياد قوة الأحزاب السياسية. إلا أن الديموقراطية قد تعرضت للإلغاء في أجواء الحرب وحلت الكارثة باليابان في نهايتها سنة 1945.

ويوجِز السقاف المميزات الخاصة لتحول اليابان إلى دولة حديثة كما يلي:

اعتمد تحديث اليابان على الاقتباس من الثقافة الغربية إثر سياسة الانفتاح وإنهاء العزلة. وكان من الصعب رسم خط فاصل بين التحديث والتغريب.

ونشأت الحاجة إلى نشر المعارف العلمية الحديثة، وبخاصة لدعم القوة الحربية لتتجسد فيها جميع إنجازات العلوم والتكنولوجيا، حيث بدأ إنشاء الجامعات لتشجيع البحث العلمي ونشر المعارف العلمية في التعليم العام.

كما انتعشت الفنون، وظهر الشعر الجديد، وانتعش الرسم والفنون التشكيلية والمسرح.

وشهدت اليابان فتحا ثانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية وطُبِّقت تحت الاحتلال إصلاحات أدت إلى تحويل اليابان إلى دولة عصرية. وارتبطت بالمبادئ الديمقراطية العصرية[153].

وخصص السقاف ثلاثة مقالات للفن التشكيلي الذي كان ما يزال يمشي خطوات طفولته الأولى في اليمن، المقال الأول يتناول فن الرائد الفنان المبدع هاشم علي بعنوان "الإنسان والأرض في فن هاشم علي"، والثاني متابعة لنشاط معرض فني أقيم في جامعة صنعاء، والثالث أيضا ملاحظات حول الفن التشكيلي في المعرض نفسه. وتعد المقالات الثلاثة تحية وتشجيعا من كاتب مهم وفيلسوف للنشاط الفني التشكيلي ليشد على أيدي الفنانين الشباب ويشجعهم على مواجهة الصعاب ومواصلة الإنتاج الفني وتطويره بمثابرة لا تستسلم أمام الصعوبات والمعوقات الكثيرة.

ومن بين هذه المقالات يستحق فن هاشم علي أن نتوقف عنده لأنه كان حتى وفاته علامة مضيئة في حياة الفن التشكيلي الشحيحة في اليمن، وأحد الذين تركوا بصمات مهمة على طريق الإنتاج الفني التشكيلي. فقد بزغ فن هاشم على من الصفر، في بيئة لم تكن بعد قد وجدت الوقت لتدرك وجودها الجديد وتنفتح على الفن التشكيلي. فكان أن فاجأها بفن جديد رفيع، واعتكف في صومعة الفن وحيدا مثابرا صابرا كراهب في صومعته، وأخلص لفنه حد نكران الذات ونسيان كل شيء عداه في الحياة. ولم يبدأ اكتشاف المثقفين اليمنيين لفنه إلا في وقت متأخر، وعندها بدأ الاعتراف به وبفنه من خلال تنظيم معارض فنية لأعماله التي تجاهلها الجميع وأهملتها المؤسسات العامة. وجاء اهتمام السقاف بالكتابة عنه متأخرا بمناسبة تنظيم معرض فني في صنعاء لأعماله المكدسة في منزله المتواضع في مدينة تعز.

والواقع أن الاعتراف الأول بأعماله وإبداعاته قد بدأ بعيدا عن أضواء الإعلام الذي كان كله رسميا، عن طريق البيع بأسعار متواضعة للسواح والزائرين الأجانب،

---

[153] نفسه، ص. 82 . 106.

وهو ما وفر له بعض الدخل لمساعدته على تحمل تكاليف حياته المعيشية المتواضعة ومواصلة الرسم دون توقف. واكتشف بعض اليمنيين أن في المدينة فنانا قديرا فبدأ القليل من القادرين شراء اللوحات وتزيين جدران مجالسهم بها من باب التقليد أكثر منه عن معرفة وتذوق واعٍ للفن التشكيلي.

إن بقاء أمثاله في ساحة الإنتاج الفني "لا يدل على صمود الفنان في بيئة اجتماعية صعبة فحسب، بل وعلى تواضع مطالبهم المفرط، واختصارهم لمطالب الجسد إلى الحد الذي يقيم الأود ويحفظ ماء الحياة الجارية في عروقهم، ليمسكوا بالريشة ويتأملوا مجتمعهم بالخطوط والألوان"[154]. ويتساءل السقاف كيف استطاع هاشم علي، استنادا إلى موهبته الكبيرة، أن يواصل الرسم ويطور فنه بعيدا عن حركة الفن العربية والعالمية المعاصر؟ فقد كانت صلته الوحيدة بالفن التشكيلي العربي والعالمي مثابرته على قراءة ما يستطيع الحصول عليه من مطبوعات عن فن الرسم. وهذا يعكس الجهد الكبير الذي بذله هاشم لتطوير إنتاجه الفني ومواجهة الصعوبات الجمة بصبر وأناة.

ومما يستحق الذكر في مقام الحديث عن تأسيس الفن التشكيلي في اليمن الإشارة إلى رائد آخر من رواد الفن التشكيلي بعد قيام الجمهورية، هو الفنان عبدالجبار نعمان، الذي اكتشف موهبته الفنية وهو ما يزال طفلا، ورسم صورة للزعيم العربي جمال عبدالناصر قدمها له عند زيارته لليمن سنة 1964 وكان عمره حينذاك خمس عشرة سنة. وأراد الزعيم العربي تكريمه بما يساعده في تنمية موهبته الفنية، فأعطاه منحة للذهاب إلى القاهرة لدراسة الفن التشكيلي. ودرس هناك، في المعهد الإيطالي للفن التشكيلي، حتى تخرَّج وعاد ليشارك مع هاشم علي في تأسيس هذا الفن في الحركة الثقافية في اليمن.

---

[154] نفسه، ص. 110.

الفصل السادس

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

انعدام التعليم

رمز لغربة نظام ما قبل الجمهورية عن العصر الحديث

كان التعليم في مملكة الظلام شبه معدوم، وإذا وجد القليل النادر فيها فهو يقتصر على قراءة القرآن وشيء من علوم الدين في حلقات المساجد فيما سماه إسماعيل الأكوع "هجر العلم ومعاقله"[155] في المدن والأرياف، التي كانت ترعاها مبادرات الأهالي وفي بعض الحالات القليلة أوقاف نذرها أصحابها قديما للمحافظة على التعليم الديني ومنعه من الاندثار. فلم يكن التعليم يدخل في اهتمام الحاكمين، ولم تكن غلبة الأمية على مواطنيهم تؤرقهم وتحثهم على بذل الجهد للتخفيف من وطأتها. وكانت بعض الأسر المحظوظة والبارزة تحرص على تعليم أبنائها القرآن وبعض علوم الدين والعربية بنفسها أو عند فقهاء احترفوا هذا العمل كسبا للعيش، لكي تحافظ على امتيازاتها الاجتماعية ولكي تواصل كسب عيشها من تقديم خدمات معينة، كإمامة الصلاة، وخطبة الجمعة، وتقسيم المواريث، وتسجيل عقود بيع الأراضي وشرائها وعقود النكاح والطلاق، وتولي الوظائف الحكومية القليلة المتاحة إن وجدت.

وقد لاحظ زوار اليمن من الأجانب انعدام المدارس في اليمن. فهذا أمين الريحاني يؤكد أنه لم ير مدرسة في طول البلاد وعرضها مع أنه قطعها من حدود المحميات البريطانية حتى صنعاء، مما جعله يستنتج أن الإمام لا يحب تعميم

---

[155] انظر إسماعيل الأكوع، هجر العلم ومعاقله في اليمن، 4ج.

التعليم[156]. ولن نذهب بعيدا في تتبع انعدام المدراس في اليمن، بل سنقتصر على حال التعليم قبل قيام الجمهورية مباشرة. فقد كانت توجد في صنعاء مدرسة متواضعة للأيتام افتتحها الأتراك قبل مغادرتهم اليمن وورثها الإمام ولم يلغها كما ألغى الكثير من الإصلاحات التي كانوا قد أدخلوها إلى البلاد. ومع أن تسمية "مكتب الأيتام" أو "مدرسة الأيتام" توحي بأن طلابها يجب أن يقتصروا على الفقراء الذين لا عائل لهم، كان أغلب الشعب اليمني تحت حكم الإمام فقيرا ويتيما، فكان التحاق أي طفل بها حلما يراوده ويراود أهله الذين يتابعون الإمام للحصول على أمر باعتبار طفلهم يتيما يستحق الالتحاق بمدرسة الأيتام. وكان الالتحاق بها صعب المنال وغير متاح إلا لمن يناله الحظ، حتى لو كانت هذه المدرسة تجلد الطفل وتدمغه باليتم ليل نهار.

ووُجِدَت إلى جانبها مدرسة علمية تخرّج الكتبة في المحاكم والإدارات في المملكة وقد يتولى المحظوظون ممن تخرجوا منها وظيفة حاكم شرع. كما وجدت في صنعاء وفي تعز مدرستان ثانويتان لتخريج بعض الموظفين، لكن مستواهما ونوعية التعليم متدنيان. كما وجدت مدرسة ابتدائية في الحديدة.

فهذا أحمد حسين المروني الذي التحق بمدرسة الأيتام مبكرا ولم يكن يتيم الأبوين، يحكي قصة حلمه بالالتحاق بهذه المدرسة ومتابعته لوالده كي يحقق له حلمه، وظل الأب يتابع المسئولين طويلا حتى نجح في تسجيل ابنه في مدرسة يفترض بها أنها مخصصة للمحرومين ممن لا عائل لهم. ولكن في اليمن اليتيمة يصبح التسجيل في عداد الأيتام حلما للمحرومين من التعليم. ويقول المروني إن بعض أهل صنعاء لم يتحمسوا لإلحاق أولادهم بمكتب الأيتام وكانوا يفضلون القراءة في المساجد أو الكتاتيب.

وحين نجح الأب في استصدار الموافقة، استصحب ابنه الطفل ليكون في عداد الأيتام. يقول المروني: وفي الصف الأول "وجدت ما يقرب من ثلاثين طالبا كانوا قد

---

[156] أمين الريحاني، نفسه، ص. 162.

سبقوني، بعضهم من صنعاء والأكثرية من الريف. وكنا نجلس على الأرض إذ لم تكن المقاعد قد وجِدت إلا للصفوف المتقدمة". وكانت السبورة هي المرجع لتلقي الدروس، فلا وجود للمنهج الدراسي أو الكتب المدرسية أو للوسائل التعليمية غير السبورة والعصا[157]. ويصف المدرسة والدراسة قائلا: كان الصف الأول "يضمني وخمسين طالبا، ومن منا إلا وله مرض معلوم، فهذا في رأسه (قَرَع) وذاك أجرب، وذلك مصاب بالسعال الديكي، وآخر يُذِيبُه السل ببطء، كل هذا ونحن في غرفة تتنفس برئة واحدة تطل على مراحيض المدرسة، ومساحة الغرفة لا تتجاوز العشرين قدما (مربعا)"[158].

وهذا مُحَّد الفُسَيِّل يقول إنه التحق في طفولته بمعلامة أهلية كان المعلم فيها شديدا ففر منها. وأصر بعد سنوات من التعب على "أن يدخل مكتب الأيتام، فبكت الأم وفزعت عليه من المرض والعدوى، ومن القمل والأوساخ ولكنه صمم.... قرأ خلال تلك السنوات القرآن وشيئا من الحساب وفروع الدين والنحو وبعض المحفوظات من الشعر"[159]. ويشير إلى أن أحد أساتذته ممن كان عضوا في أول بعثة عسكرية للدراسة في العراق ولم يمكَّن من الالتحاق بالجيش، قد عمل معلما وكان معروفا بالاستنارة، ولعله أحمد الحورش، وأتاح له الوصول إلى مكتبته الخاصة من الكتب التي جلبها معه من رحلته إلى العراق وعودته عن طريق دمشق وبيروت ومصر، ليقرأ فيها ويتأثر ويستنير. لكن هذا المورد للقراءة قد انقطع بهرب هذا الأستاذ لمواصلة الدراسة في مصر.

وفيما بعد، أصبح ثلة من الرواد الذين تخرجوا من مدرسة الأيتام من المثقفين ومن المناضلين في سبيل تحرير اليمن من اليتم العام ومن البؤس الذي جلبه لها إمام لا

---

[157] أحمد حسين المروني، الخروج من النفق المظلم . معالم سيرة ذاتية، ص. 26 . 27.

[158] نفسه، ص. 68 . 69.

[159] أحمد المعلِّمي وآخرون، من سجن حجة . ثوار وثورة 1948، ص. 50 . 51.

يرعى مصالح مواطنيه، ولا يعرف سوى الجباية دون أن ينفق من الجبايات الكثيرة على الخدمات العامة كالتعليم العام والرعاية الصحية للمواطنين المحرومين من أية رعاية من كل نوع. كما أن هذه المدرسة قد استقبلت بعض المعلمين الذين كانوا أول من خرج من اليمن للدراسة في الخارج مثل محيي الدين العنسي وأحمد الحورش، ودخلوا السجن بسبب استنارتهم واضطروا للهرب من جديد من اليمن لمواصلة الدراسة بعد أن دفعتهم استنارتهم لعدم الاكتفاء بما تعلموه في العراق ومن الحياة، وعادوا فيما بعد من مصر ليشاركوا في الحركة الدستورية ويتعرضوا للإعدام على أيدي الطاغية أحمد حميدالدين عام 1948.

بل إن علي عبدالمغني، أهم قادة تنظيم الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة في 26 سبتمبر 1962 وأعلنوا الجمهورية، قد بدأ دراسته في مدرسة الأيتام، وحين قامت الحركة الدستورية عام 1948 كان طالبا في هذه المدرسة عمره أحد عشر عاما لكنه كان يحظى برعاية حسين الكبسي، وزير خارجية الحركة الدستورية الذي كان ممن أعدِموا بالسيف عند فشل الحركة. وهو ما رسَّخ في وعي علي عبدالمغني ولا وعيه الشعور بحاجة اليمن للتغيير. فقد شارك في عام 1956 في التظاهر ضد العدوان الثلاثي على مصر ودخل سجن الرادع في صنعا، وشارك سرا في حركة البناء الثقافي المستنير، كما تظاهر سنة 1958 تأييدا للوحدة بين مصر وسوريا. والتحق سنة 1958 بالكلية الحربية، وتخرج منها ليعمل بنشاط لتأسيس تنظيم عسكري سري يتكون من الضباط الشباب هو "تنظيم الضباط الأحرار"، وبرز باعتباره من يقوم بمهمة التفاوض مع القوى السياسية ومع الضباط المستنيرين الكبار لدعم التحرك لتغيير النظام السياسي المتهالك، وقام بمراسلة الزعيم العربي جمال عبدالناصر باسم تنظيم الضباط الأحرار اليمنيين للحصول على دعم لقيام الجمهورية. وحين قامت الثورة استشهد وهو يقود حملة عسكرية نحو مارب بعد قيام الجمهورية بأيام قليلة وعمره لا يزيد عن خمس وعشرين سنة.

والواقع أن دور هذه المدرسة في بث بذور الاستنارة في واقع اليمن المظلم ما يزال في حاجة إلى دراسة وتسجيل إنصافا للرواد الأوائل الذين أدركوا منذ وقت مبكر أنه لم يعد بإمكان اليمن الصبر على هذا الحرمان من جميع الحقوق ومن جميع أنواع الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية والثقافية، ولا أن تبقى خارج العصر الذي تعيش فيه، وأن مواصلة السير على هذا الطريق المغلق يوشك أن يقودها على طريق الانقراض.

وفي وزبيد كان لبعض المساجد أوقاف يُصرف منها على عدد قليل من المعلمين شبه المتطوعين الذين يعقدون حلقات لتعليم علوم الدين واللغة العربية يحضرها بعض الطلبة المحليين، وقد يعطى القليل من المساعدة لطلبة قادمين من الريف منقطعين للدراسة، ويساهم بعض الأهالي بتقديم القليل من الإعاشة كعمل خيري، وهكذا يتوفر لبعض الطلبة عيش الكفاف.

وهو ما كان يحدث في صنعاء حيث كان لبعض الجوامع أوقاف تُقدِّم القليل من الحبوب مساعدة للمعلم وللطلبة القادمين من الريف، وأحيانا تقدم بعض الأسر رغيفا من الخبز لطالب معين لمساعدته على الدراسة، ويحترف بعض الطلبة والمعلمين في الجوامع تلاوة القرآن مقابل الحصول على قدر يسير من النقود، وهي مساعدة لا تكفيهم ولكنها في الغالب تحافظ على بقاء نظام تعليم قديم ومتوارث يستفيد منه بعض طلبة المدينة في ظل غياب النظام التعليمي العام، وهو نظام يدل على بؤس التعليم وفقره أكثر مما يدل على توفر فرص التعليم لمن يريد، ناهيك عن أن يقدم خدمة التعليم للجميع.

بشائر الخروج من السجن الكبير

كان عدد قليل من المستنيرين قد بدأوا الطرق على جدران السجن المغلق على اليمنيين في مملكة الظلام، وفي طليعتهم مُحَّد المحلوي. وتأثر به فيما بعد أحمد المطاع

الذي سيدخل السجن بسبب آرائه المستنيرة قبل أن ينضم إلى جماعة مجلة "الحكمة اليمانية" التي أصدرها المستنيرون مستغلين رغبة عبدالله بن الإمام يحيى، باعتباره وزيرا شكليا للمعارف ومسئولا عن التعليم غير المتوفر أصلا إلا ما ندر، ورغبته في منافسة أخيه الأكبر منه الذي كان أقوى أبناء الإمام يحيى وفرض نفسه بأسلوب الغلبة وليا للعهد ونائبا للإمام في تعز، أكبر مراكز الجباية في مملكة الظلام والقريب من مستعمرة عدن باعتبارها منفذ الدخول والخروج وميناء التصدير والاستيراد ومصدر التجارة التي تدر الكثير من الأموال على من يتولى شئون تعز.

وكان عبدالله بن الإمام يحيى قد خرج في وفود رسمية ومثَّل البلاد في الأمم المتحدة وفي غيرها ولمس الفارق الكبير بين بلاده والعالم من حوله، بما في ذلك العالم العربي، وألحت عليه الحاجة خلال رحلاته إلى مترجمين ومساعدين لا يتوفرون بين سكان بلاده، وأراد أن يكون أكثر انفتاحا من أخيه المتزمت والمنغلق أحمد، بثقافته التي اكتسبها خلال تربيته في معاقل منعزلة مغلقة شمال صنعاء.

ولذلك رعى صدور "مجلة الحكمة اليمانية" ودعمها عند أبيه المنغلق المتشدد الشكاك في الجميع من حوله، فصدر العدد الأول منها سنة 1938 واستقدم للإشراف المباشر على تحريرها شابا مستنيرا لم يكن طرفا في الملابسات والنقاشات في صنعاء ومن ثم فصفحته بيضاء عند الإمام ورجاله ما دام غير معروف كثيرا سوى أنه ممن يهتم بالتواصل مع الثقافة والأنشطة الثقافية خارج اليمن ويحاول أن يكتب عن حضارتها ودرورها الرائد في التاريخ.

وقد نتج هذا عن سعي عدد من المستنيرين لكي يعبروا عن أنفسهم من خلال اللقاءات والنقاشات، وشعورهم بالحاجة إلى أن يجدوا وسيلة لكتابة أفكارهم المستنيرة وإخراجها من الغرف المغلقة إلى جمهور قراء يستجيب لها ويوسع دائرة تأثيرها بعد أن كانت المراسلة فيما بينهم واللقاءات النادرة وسيلتهم لتبادل وجهات النظر والمطبوعات المسربة سرا عبر عدن.

وكانت الخطوة الأولى التي أقنعوه باتخاذها أن يقترح على والده إنشاء لجنة لكتابة تاريخ اليمن، وهي اللجنة التي نجح المستنيرون في أن يضموا إليها أحمد المطاع وأحمد عبدالوهاب الوريث. أما الخطوة الثانية فكانت إقناع الإمام الشكاك المتزمت بإصدار مجلة ثقافية سميت "الحكمة اليمانية" فقبِل إصدارها على أن تكون تحت رقابة الأمير عبدالله وإشرافه وأن تكون امتدادا لدور صحيفة "الإيمان" الرسمية المدافعة عن النظام. لكن المستنيرين كانوا يرون فيها فرصة للتوعية والتنوير ونشر الأفكار الإصلاحية ولو بصورة غير مباشرة.

وقد اتخذ المستنيرون طريق الدعوة الهادئة إلى الإصلاح دون استفزاز النظام أو القوى التقليدية ذات التأثير الكبير. وصدر العدد الأول في ديسمبر 1938/يناير 1939 بافتتاحية كتبها أحمد الوريث، الذي كان يشرف على صدور المجلة، وطبعت في المطبعة الوحيدة التي تطبع صحيفة الإيمان ولا تستخدم إلا بإذن من الإمام. وكان حجم المجلة صغيرا وإخراجها متواضعا، وتبلغ صفحات العدد اثنين وثلاثين صفحة من الحجم الصغير. ولأنها مجلة حكومية، كانت الحكومة تُمولُّها وتحصل على القليل من الاشتراكات وكانت توزع بالبريد إلى الحديدة وتعز وذمار وإب إلى جانب توزيعها في صنعاء.

وقد كتب الوريث في افتتاحية العدد الأول يقول إن المجلة "تبحث في الشئون الإسلامية والإصلاحية والمسائل العلمية والمباحث الأدبية والفصول التاريخية والإخبارية وتغذيهم (قراءها) بلباب آراء المفكرين، وعصارة أقوال الكاتبين، ونتيجة مقدمات الباحثين، وتكون حلبة سباق تتبارى فيها أقلام بعض أدباء اليمن الناهضين، فتشحذ هممهم، وتصقل من أفكارهم، وتقوي من عزائمهم، وتنمي فيهم ملكة البيان"[160].

---

[160] نقله عن العدد الأول من المجلة: سيد مصطفى سالم، مجلة الحكمة وحركة الإصلاح في اليمن، ص. 24 . 25.

وصدر من المجلة ثمانية وعشرون عددا خلال الفترة من ديسمبر 1938/يناير 1939 وحتى العدد الأخير في فبراير/مارس 1940.

وتنوعت موضوعاتها لتشمل النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والأدبية وآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال مأثورة ونصوص القرارات والأوامر الرسمية، ونُشِرت فيها مقالات طويلة مسلسلة في حلقات. فكتب الوريث مقالات في حلقات بعنوان "الإصلاح" وكان يقصد الإصلاح الإسلامي على أمل أن يفهم القراء أن الإصلاح في اليمن ينبغي أن يكون مشمولا حُكما بهذه الدعوة. وكتب عبدالله العزب مقالات عن "تاريخ الأدب العربي"، وكتب أحمد الحورش مقالات حول "علم التربية"، وهو علم لم يكن قد تحدث عنه أحد في اليمن قبل الحورش المتخرج من بغداد. وحين توفي الوريث حل محله أحمد المطاع في الإشراف على تحرير المجلة وواصل كتابة المقالات تحت عنوان "الإصلاح". وكتب محيي الدين العنسي مقالات بعنوان "اليمن السعيد بين الماضي والحاضر". وتناول في مقال آخر عرضا نقديا لديوان أحد الشعراء اليمنيين.

لكن المجلة لم تستطع أن تواصل الصدور، فقد توقفت في عامها الثالث، لأن الإمام عُرِف بخشيته وتوجسه من الجديد، وإذا كان قد وافق على صدور المجلة فإنه ظل يراقبها ويتحين الفرص للانقضاض عليها بحجج مختلفة. وهكذا ليس غريبا أن بعض محرري المجلة مثل أحمد المطاع ومحيي الدين العنسي وأحمد الحورش قد أعدِما بالسيف في الحركة الدستورية التي شاركت فيها حركة الأحرار المعارِضة بعد سبع سنوات من إيقاف المجلة. بل إن الإمام لم يقبل في البداية دخول أشخاص مثل المطاع والعزب ضمن سكرتارية المجلة، لكنهما تسربا إلى الكتابة للمجلة بداعي الحاجة إليهما لضمان مواصلة صدروها، وفرضا وجودهما من خلال قدرتهما على الكتابة وسد العجز الذي كانت تواجه من حيث الكُتَّاب الأكفاء، حتى نجحت العناصر المستنيرة في الأخير في السيطرة على المجلة بعد وفاة الوريث وتولي المطاع الإشراف على

التحرير. وكانت النهاية فاجعة حيث انتهى الأمر، كما أشرنا آنفا، بسحق محرري المجلة والانتقام منهم شر انتقام.

لقد حاول المستنيرون من خلال الاقتراب من الأمير عبدالله وإقناعه برعاية مجلة "الحكمة" فتح ثغرة ولو بسيطة في جدار الجهل السميك، للسماح ببصيص من نور المعرفة، للتعبير عن همومهم الثقافية الوطنية واتخاذها سبيلا للمطالبة الخافتة بالإصلاح كبداية على طريق التغيير الضروري المنتظر. لكن الواقع كان أعتى من كل المحاولات، وكان الظلام كثيفا بحيث استحال اختراقه. ولأن إيمان المستنيرين كان أقوى من نظام الجهل والعزلة والانغلاق، واصلوا تحدي المستحيل وشاركوا في الحركة الدستورية التي جسدت توقهم للتغيير بأية وسيلة، وانتهى بعضهم قتلى بسيف الجلاد والبعض دخلوا السجون الرهيبة ليعيدوا الكرَّة فيما بعد، ويواصلوا رسالتهم النبيلة الهادفة لتحرير شعبهم، إلى أن شاركوا أخيرا في التغيير الجمهوري. وهكذا فشل مشروع إصدار "الحكمة" لكن مشروع التغيير عاش وترعرع سرا وعلانية حتى فاز في النهاية وتحقق له النجاح.

بعثة العراق وبعثة الأربعين

كانت الدراسة خارج اليمن أمرا خارقا للعادة، ولا تتاح إلا لمن يُقدِم على مغامرات خطيرة تحمِّله الكثير من المشقات، وتواجهه المصاعب. ولذلك كان الخروج للدراسة نادرا، وكان من يريد أن يتعلم في الخارج يقوم بمغامرة غير عادية، كأن يهرب من بلاده دون وثائق تعرِّف به وتحدد هويته وسنه ومكان ولادته. فهذا أحمد مُحَمَّد نعمان حين هرب للدراسة في مصر سنة 1938 خرج للحج وتعاطفت القنصلية المصرية في جدة مع رغبته في الدراسة فزودته بوثيقة هوية مصرية[161] ليستطيع التنقُّل

[161] علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، ج1، ص. 127.

ودخول الأراضي المصرية. وكانت الظروف التي أحاطت بإرسال أولى البعثات الدراسية إلى الخارج غريبة وتكاد تأتي من باب إحراج السلطات ودفعها دفعا لاتخاذ قرارات لا تميل إليها.

يقول أحمد حسين المروني، الذي كان عضوا في أول بعثة خرجت من اليمن سنة 1936 للدراسة العسكرية في العراق، عن الملابسات التي أحاطت بإرسال البعثة: "وكان سبب إرسال هذه البعثة إلى العراق هو أن الوجيه الفاضل حسين بن صالح الحِبشي، الذي كان مغتربا في جاوا (اندنوسيا)... ترك جاوا وجاء بأهله وأولاده إلى صنعاء ليقيم... وألحق أولاده بمكتب الأيتام (لأنه لم يجد مدرسة أخرى يلحق بها أولاده). وعندما أنهوا مكتب الأيتام (انتهوا من الدراسة فيه) احتار والدهم وفكر في إلحاقهم بأية مدرسة ذات منهج أرقى من الابتدائية". وقد حصل له صديقه مُحَمَّد سري شائع (الذي كان فيما مضى ضابطا تركيا وله أصدقاء في العراق) على منحة لعشرة طلاب يمنيين إلى العراق للدراسة على نفقة العراق. ولما استأذن عبدالله بن الإمام تحدث مع والده الإمام فكان الرد أنه لا بد أولا من إرسال عشرة طلاب آخرين قبل إرسال أولاد الحِبشي.

ومما يدل على عدم رضا الإمام على سفر هذه البعثة للدراسة في الخارج، مع أنها تذهب إلى بلد عربي إسلامي، مقابلته لرئيس البعثة محيي الدين العنسي وتحذيره له بالقول: "إنكم ستذهبون إلى بلاد فيها الخمر كالسيول، وفيها أبناء الحرام كالغنم، واسترسل قائلا: والله لو يبلغني عن أحدكم ما يسيء ما معه إلا الموت، وتمتم بكلام كله سخط وغضب"[162].

وهكذا شعر الإمام بالإحراج فأرسل بعثة طلابية عسكرية، تعرَّض بعضهم بعد عودتهم للسجن عدة سنوات واشتركوا في حركة 1948 الدستورية وفي حركة 1955 وفي ثورة 26 سبتمبر 1962، منهم أحمد المروني نفسه الذي سيصبح في عهد

---

[162] أحمد المروني، نفسه، ص. 33.

الجمهورية وزيرا للتربية والتعليم ووزيرا للإعلام، وعبدالله السلال الذي سيكون أول رئيس للجمهورية في اليمن، وحسن العمري الذي سيصبح فيما بعد نائبا لرئيس الجمهورية وقائدا عاما للقوات المسلحة ورئيسا للوزراء، وكان على رأس البعثة محيي الدين العنسي الذي سيشارك في الحركة الدستورية وسيعاقب بالإعدام بالسيف.

وبعد أشهر من وصول البعثة الأولى إلى بغداد وصلت بعثة أخرى، ستةٌ من أعضائها أولاد الحِبشي الذي حصل على الموافقة على المنحة الأولى ولم يُسمح لأولاده أن يسافروا أولا. ومن أعضاء البعثة الثانية أحمد حسن الحورش الذي كان أكثر من تأثر بالأفكار المستنيرة وقرأ كثيرا من الكتب وعاد ومعه بعضا من الكتب، ثم هرب إلى مصر للدراسة وعاد ليشارك في الحركة الدستورية سنة 1948 ويُعدَم في حجة. ثم وصلت بعدهم بفترة وجيزة بعثة من أشهر أعضائها أحمد يحيى الثلايا الذي سيقود سنة 1955 حركة عسكرية لنقل الإمامة من الإمام أحمد إلى أخيه عبدالله ويعدم معه بعد فشل تلك المحاولة، وحمود الجائفي الذي سيصح بعد قيام الجمهورية رئيسا للوزراء سنة 1964[163]، وكذلك سلام عبدالله الرازحي ومحمد عبدالولي نعمان اللذين أصبحا وزيرين في عهد الجمهورية.

والحقيقة أن استنارة بعض أعضاء هذه البعثات الثلاث التي تشكل في الواقع بعثة واحدة بالنظر إلى قصر الفترة الفاصلة بين وصول الواحدة والتي تليها، قد كانت عميقة ومدهشة بحيث ظل بعض أفرادها يثابرون في العمل من أجل التغيير ويدخلون السجون ويخرجون ليواصلوا نضالهم دون تراجع أو إحباط كبير يدفعهم إلى التخلي عن قناعاتهم، على الرغم من شدة بطش النظام. وبعضهم قدم حياته ثمنا لقناعاته وأُعدِم بالسيف، لكن بعض من ظل منهم على قيد الحياة لم يتراجع ولم تتزعزع قناعاته حتى نجحت عملية التغيير وشارك في العمل الثوري حتى آخر لحظة، مثل السلال وغيره من الرواد الأوائل.

[163] أحمد المروني، نفسه، ص. 60 . 61.

ومضى وقت طويل نسبيا بعد عودة من بعثوا إلى العراق دون إرسال بعثة أخرى. وربما كانت استنارة بعض العائدين من هؤلاء المبعوثين مع أنهم جميعا قد درسوا دراسات عسكرية، وما حمل بعضهم من كتب مستنيرة وما شاركوا فيه من مناقشات معتادة في مقايل القات وتكشف عن توجهات المرء الفكرية، قد دفعت الإمام لصرف النظر عن إرسال بعثات للدراسة. وفضل بدلا من ذلك أن يأتي ببعض المدربين العسكريين العراقيين إلى اليمن ليدربوا الجيش تحت رقابة الإمام في المجتمع اليمني المغلق والمعزول بدلا من إرسالهم إلى مجتمعات عربية منفتحة نسبيا. لكن حتى هذه المحاولة لم تفلح في صد توق الطلبة إلى أفكار الحرية والتغيير، وإلى أن يتأثروا ببعض القادمين من المدربين، ويشاركوا في محاولات التغيير ويدخلوا السجون، ووصل الأمر إلى حد أن أحد المدربين العراقيين وهو جمال جميل قد شارك في الحركة الدستورية وأصبح بدعم من تلاميذه العسكريين مديرا لأمن صنعا وتحمل مسئولية حماية الأمن واصطدم مباشرة مع القوى التقليدية ونُفِّذَ فيه الإعدام بالسيف بعد سقوط الحركة الدستورية. كما شارك بعض تلاميذه في محاولات التغيير ودخلوا السجون أو هربوا وتشردوا حتى عادوا ليشاركوا في البناء الجمهوري الجديد بعد قيام الجمهورية، ومنهم مُحَّد علي الأكوع الذي شارك مع أحمد الثلايا في حركة 1955 وهرب إلى عدن ليلتحق بحركة الأحرار المعارِضة إلى أن أصبح أحد وزراء الداخلية في الجمهورية الثانية[164].

وفي سنة 1947 حدثت ملابسات مشابهة لما حدث عند إرسال بعثة إلى العراق. فقد سعى أحد اللبنانيين، الذين عملوا بالترجمة للأمير عبدالله بن الإمام في مهماته الرسمية إلى الخارج، لإقناع الأمير المسئول عن المعارف بضرورة أن يتعلم بعض الطلبة اليمنيين تعليما حديثا في لبنان ليساعدوا الأسرة الحاكمة في إدارة البلاد، أو على الأقل لمساعدة الوفود التي تذهب إلى الخارج في الترجمة. وتولى الأمير، باعتباره

[164] عبدالله البردوني، اليمن الجمهوري، ص. 431.

مسئولا شكليا عن التعليم، إقناع والده بحاجة البلد إلى إرسال بعثة للدراسة في الخارج واختار لهم مدرسة "المقاصد الإسلامية" في لبنان لتبديد أي شكوك لدى الإمام بأن هؤلاء الطلبة سيذهبون إلى مدارس تعلم الفساد والتمرد.

وقد تم اختيار أربعين طالبا أغلبهم من صنعاء وبعضهم من تعز والقليل منهم من ذمار والحديدة. فذهبوا إلى لبنان ولكن الإمام أحمد الذي تولى الإمامة بعد مقتل أبيه سنة 1948، أي بعد سنة من سفر هذه البعثة، اتهم لبنان باستقبال الجزائري فُضِيل الورتلاني، أحد الذين شاركوا في الحركة وتمكنوا من الخروج مع مُحَمَّد محمود الزبيري من صنعاء بمعجزة قبل سقوطها، ولذلك عاقب الطلبة بنقلهم من لبنان إلى مصر، فكان هذا النقل لطلبة في مرحلة المراهقة من مدن لبنانية ثانوية مثل صيدا وطرابلس إلى مصر، بمثابة نقل إلى مرجل الثورة العربية الذي بدأ بثورة 23 يوليو 1952 وصعود نجم جمال عبدالناصر كزعيم للأمة العربية، فكان الإمام بهذا القرار كمن يتقي الشمس بكفه.

إذ سرعان ما عاد الزبيري من منفاه في باكستان إلى مصر وأعاد تأسيس حركة المعارضة التي كانت قد سُحِقت بعد فشل الحركة الدستورية، فكان أغلب هؤلاء الطلبة أكبرَ مَدَدٍ لحركة الأحرار وبعضهم تجاوزوها واتهموها بأنها إصلاحية ولا تسعى للتغيير الجذري. وحين قامت الجمهورية اعتمدت على الكثير من هؤلاء الطلبة المؤهلين في البناء الجمهوري الجديد، من بينهم محسن العيني الذي كان وزيرا للخارجية ورئيسا للوزراء لعدة مرات، وحسن مكي الذي أصبح وزيرا أكثر من مرة ونائبا لرئيس الوزراء ورئيسا للوزراء ومن القيادات الاقتصادية والتنموية، وأحمد المحني الذي أصبح وزيرا، وعبدالله جزيلان الذي انطلق التحرك العسكري لقيام الجمهورية من الكلية العسكرية التي كان مديرها، وعبداللطيف ضيف الله الذي كان من أهم الضباط العسكريين الذين قادوا تنظيم الضباط الأحرار وأصبح وزيرا ورئيسا لأركان الجيش، وعبدالله الكُرشُمي الذي أصبح وزيرا ورئيسا للوزراء، وغيرهم.

وحين اكتشف الطاغية أن بعض الطلبة قد شبوا عن الطوق وبدأوا التأثر بالأحداث الملتهبة في مصر بعد ثورة يوليو وبروز قيادة جمال عبدالناصر، وأراد معالجة هذا الوضع، لم يكن بمقدوره اتخاذ قرار إعادتهم واعتقالهم، لأنهم لن يعودوا. وحتى حين جرب باتخاذ قرار عودة بعضهم وقطع المنحة عنهم، مثل عبدالرحمن أحمد نعمان وفيما بعد محسن العيني ومُحَمَّد الرعدي ويحيى جغمان، على سبيل المثال، ولم يعودوا، قرر تشتيت الطلبة في بلدان أوربا وأمريكا، فزاد الطين بلة، كما يقال، لأنه أتاح لهم معرفة تجارب سياسية واقتصادية وثقافية أخرى، وجعلهم عند المقارنة ببلدهم المعزول الفقير المغلق يشعرون بأن التغيير ضرورة لا تقبل التأخير. فلم يكن ممكنا إيقاف عجلة الزمن وكبح الرغبة في التغيير على جميع المستويات. كان الزمن قد أصدر حكمه على مملكة الظلام وأصبح زوالها مسألة وقت، وأيقن كثيرون أن التغيير قادم اليوم أو غدا.

وفي الوقت نفسه، كان تأثير حركة الاستنارة في أوساط اليمنيين يتسع يوما بعد يوم. وزاد تسرب الكتب وانتقال الأفكار. وقد جعل الراديو قوة الرقابة وحصار الأفكار مستحيلا. فبدأت أجهزة الراديو تتسرب عبر مستعمرة عدن دون أن تنتظر الإذن من السلطات الرسمية. واضطر الإمام نفسه إلى تأسيس محطة إذاعة قوة إرسالها محدودة سنة 1957 للدفاع عن النظام، ولم يعد بإمكانه فرض حظر على استيراد أجهزة الراديو. وبدأ تأثير حركة التحرر العربية يتجاوز الحدود والحواجز وينتشر في أوساط الشباب بخاصة، وبالذات الضباط الصغار، ومن بينهم تكوَّن تنظيم الضباط الأحرار الذين كانت خطابات جمال عبدالناصر من أهم المؤثرات الثقافية عليهم. وهم الذين سينفذون عملية التغيير الجمهوري وسيُسقِطون نظام الإمامة.

تحديث النظام التعليمي

لم يكن في مملكة الظلام أي نظام تعليمي معروف أو معترف به. ويشكو الطلبة الذين خرجوا من اليمن للدراسة في الخارج، سواء في العراق في الثلاثينات أم في لبنان في الأربعينات، من أنهم حين وصلوا لم يكونوا مؤهلين للدراسة في الصفوف المقابلة لسنهم مع طلبة البلد المبعوثين للدراسة فيه، وخضعوا لامتحانات تحديد المستوى. وكان بعضهم أكبر سنا من الفصول التي وضعوا فيها، واحتاج الجميع إلى الدراسة في فصول خاصة لرفع قدراتهم الدراسية حتى ينسجموا مع المنهج الدراسي. فنجح بعضهم بسرعة وأخفق بعضهم وواجهوا صعوبات في مواكبة زملائهم من غير اليمنيين.

وفي مرحلة متأخرة وجدت في صنعاء وتعز مدرستان "ثانويتان" لكن مستواهما لم يكن يساوي حتى المرحلة الابتدائية في النظام التعليمي الجديد وإن كانت بعض المواد التقليدية فيها مثل علوم الدين والنحو أعلى من المرحلة الابتدائية. وأذكر أننا حين تم إدخال النظام التعليمي الحديث في العام الدراسي 1964/1963 المستمد من النظام التعليمي المصري وجدنا أنفسنا نحن الطلبة القادمين من الريف بجانب زملاء أكبر سنا منا بكثير لم ينجحوا في امتحانات تحديد المستوى، وكانوا يشعرون بتذمر وعدم رضا عن النظام التعليمي الحديث لأنه أنزلهم من المرحلة الثانوية إلى صفوف المرحلة الابتدائية أو إلى صفوف الإعدادية. ووضع القليل منهم في الصف الأول ثانوي. وكنا بحكم صغر السن أكثر قدرة منهم على استيعاب المواد الجديدة مثل الرياضيات والعلوم وغيرها. وأمام احتمالات الفشل غادر أكثرهم الدراسة إلى العمل الوظيفي أو إلى الكلية الحربية وكلية الشرطة اللتين انفتحتا حديثا وبدأتا العمل لتخريج ضباط للاستجابة لحاجة معركة الدفاع عن الجمهورية.

وقد كانت الخطوة الحاسمة في تبني النظام التعليمي الحديث أن المستنيرين القلائل ممن تخرجوا من أوربا وأمريكا ومصر مثل حسن مكي وعبدالغني علي أحمد ومُحَمَّد سعيد العطار، وزملاء لهم من اليساريين، أقنعوا الرئيس السلال بالطلب من الزعيم العربي جمال عبدالناصر ألا تقتصر مساعدة مصر للجمهورية الوليدة على إرسال القوات العسكرية وبناء الثكنات العسكرية والمساهمة في سد العجز في ميزانية الحكومة التي أثقلتها تكاليف الحرب وشح الموارد، بل أن يكون للمساعدة المصرية جانب حضاري يتمثل في تطوير التعليم وتحسين خدمات الصحة وإنشاء الإدارة الحديثة. وكان رأي هؤلاء أن الجمهورية بهذا التغيير الحضاري تكتسب بمرور الزمن شرعيتها الجديدة في نفوس أبناء الشعب، وتصبح قادرة على الوفاء بوعودها في تحسين ظروف معيشة الشعب اليمني، والقضاء على الفقر والجهل اللذين خلفهما النظام السابق.

وقد استجاب الرئيس جمال عبدالناصر لهذا الطلب في الحال وأدرك مغزاه وأنه يتفق مع فهمه لطبيعة المساعدة المصرية لليمن كي تتجاوز التخلف والبؤس. فوجه ببناء ثلاث مدارس إعدادية ثانوية بشكل طارئ في كل من صنعاء وتعز والحديدة[165]. ولما كان إعداد المعلمين والإدارة المدرسية والكتب المدرسية يحتاج إلى وقت طويل وتدريب، تم الاتفاق مع الحكومة اليمنية على إرسال إدارة مصرية لهذه المدارس الثلاث ومعلمين مصريين أكفاء، وتعميم الكتاب المدرسي المصري، لتكون هذه المدارس نموذجا يتم تطوير بقية النظام التعليمي في الجمهورية وفقا له. وحين بلغت أول دفعة من الطلبة الدارسين في هذا النظام التعليمي الحديث مستوى الحصول على شهادة الثانوية العامة لأول مرة في تاريخ اليمن سنة 1966، وللمساعدة في إكساب هذا النظام ومن يتخرجون منه الاعتراف الدولي، وللاعتراف بشهادات من

---

[165] واعترافا بهذا الدور أطلق على المدرسة التي بنيت في صنعا اسم جمال عبدالناصر بعد سنوات من انسحاب القوات المصرية من اليمن.

تخرجوا كي يدرسوا في الخارج دون صعوبات تذكر، جاءت امتحانات الثانوية العامة من مصر، وجلس الطلبة اليمنيون للامتحان مع الطلبة المصريين وتنافسوا معهم في النظام نفسه، وأُرسِلت الإجابات إلى القاهرة لتصحيحها، وجاءت النتائج من هناك لتعلَن في اليمن.

وزيادة في تشجيع التعليم في اليمن وتسريع الحصول على مردودات تساعد في تطوير البلاد قررت مصر قبول جميع من تخرجوا من الثانوية العامة وفقا لهذا النظام الدراسي الحديث في جامعاتها وعلى نفقتها. فكان هذا القرار خطوة شجاعة ألهبت حماسة الطلبة للمثابرة في الدروس والاستعداد لامتحان لم يكن سهلا لأنه يتنافس مع عدد كبير من طلبة مصر، للفوز بفرصة الدراسة في الخارج. وقد سهلت هذه التطورات الاعتراف بشهادات الطلبة اليمنيين في جامعات العالم، وحصل هؤلاء الطلبة فيما بعد على منح للدراسة في كثير من جامعات الشرق والغرب دون الحاجة إلى فرض المرور بامتحانات تحديد المستوى لمعرفة قدراتهم الدراسية. وكانت بوابة لاستقلال النظام التعليمي اليمني فيما بعد عن النظام التعليمي المصري ولكن بعد أن فرض التعليم الحديث وجوده وأصبح مطبَّقا في أنحاء الجمهورية.

وليس الغرض هنا سرد تاريخ النظام التعليمي في اليمن وكيف تطور بمرور الزمن، وإنما الغرض الإشارة إلى القفزة الحضارية الكبيرة التي أحدثتها الجمهورية بنقل اليمن من شيوع الأمية إلى شيوع المدارس، ومن الحرمان من التعليم إلى نشر التعليم، وأصبحت المطالبة تتركز ليس على الحق في التعليم بل على تحسين نوعية التعليم ليواكب العصر، وهذا موضوع آخر في حاجة إلى مناقشة مستقلة لا ينوي هذا الكتاب خوضها.

الفصل السابع

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

التمرد على الثقافة التقليدية

كان عبدالله البردوني عند قيام الجمهورية في 26 سبتمبر 1962 يحاول إثبات وجوده في وجه طغيان الثقافة التقليدية. ولا يتسع المقام هنا للحديث عن ظروف البردوني الخاصة، عبقريته التي بزغت من يباب القرون، بمولده في قرية تطغى عليها الأمية وتعيش في القرون الغابرة، ولا على انتزاع وحش الجدري لنظر عينيه وتركه في لجة من الظلام الدائم والوحشة الدائمة والقسوة المتواصلة. ولا كيف كان من القوة وهو طفل ليقاوم هذه القسوة الوجودية، ويبني لنفسه مكانا صعبا تحت شمس الشعر العربي في بلد هامشي معزول تتسرب إليه الكتب والمطبوعات الحديثة كما تتسرب المخدرات والممنوعات.

وحـدي وراء اليـأس والحـزَنِ تجـــترُّني محـــنٌ إلى محـــنِ

وطفولـــةُ الفنـــان تـــذهلني عن ثقل آلامي وعن وهني

"يستطيع أن يكتشف المتأمل للديوان الأول (للبردوني) عبقرية شعرية فريدة، وجديدة توشك أن تهل بضوئها على المشهد الشعري اليمني والعربي، وسوف تتكشَّفُ له من خلال ذلك روحٌ غامرة بالحب، ناضحة بالعطف والحنان، تأسى لأحوال ناسها، وأبناء مدينتها بينما هي في أمس الحاجة إلى لمسة مواساة أو همسة محبة. إن هذه الميزة هي ذروة ذُرَى الشاعر ذي القلب الكبير والحس المرهف، والإحساس الشفيف بآلام البيوت والتوجع لأنينها، في أزقة المدينة البائسة اليائسة، بينا

هو يمشي هائم الخطو، ساهم الروح، واجف القلب، تائه الأصابع، راجف القدم، متلمسا ضوء ابتسامة في ظلام نهاره، أو يدا حانية في وحشة ليله"[166].

وباعتباره شاعرا موهوبا شديد الطموح لتطوير أدواته الشعرية منذ البداية، ومهموما بالتميُّز الشعري وعدم تقليد من يراوحون في مكانهم ولا يعرفون كيف يتجاوزون واقعهم الصعب، لم يجد نفسه في غلبة الشعر التقليدي على الثقافة السائدة. وكان يحاول تجديد ثقافته عن طريق تجاوز الشعر المتحجر السائد، وبذل جهودٍ مثابرة لمد الجسور مع الشعر العربي في مصر بالذات، من مدرسة الكلاسيكية المستحدثة مثل محمود سامي البارودي وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، ومن الشعر الرومانسي مثل أشعار إبراهيم ناجي وعلي محمود طه، وقرأ شعر أبي القاسم الشابي وغيرهم من شعراء الكلاسيكية المستحدثة والرومانسية في البلاد العربية. كما قرأ كتب المنطق والفلسفة الإغريقية والحديثة، وهي كتب كانت ممنوعة ولكنه بطبيعته التواقة للتحرر من سجون الوجود الملتفة من حوله ومن سجون الاستبداد التي تحرِّم الانطلاق خارج أسوار العزلة، كان أكثر حرصا على التحدي والبحث عن كل جديد وعدم الخضوع في وجه الظلام المادي والمعنوي الذي يلف حياته كلها، متمردا على عوامل الحزن في حياته وتواقا لتحويلها إلى متع معرفية تعوضه عن بعض ما حرمته الحياة، وما يَحرِمِ الاستبدادُ اليمنيين ويمنعهم من إدارة وجودهم بأقل قدر من المعاناة.

وقد ساعدته موهبته القوية ودفعته لقراءة أي كتاب يصل إليه ليبني بأحجاره المتنوعة تكوينه الثقافي العميق الذي تجذَّر. وامتاز بذاكرة قوية عوضته عما فقد من البصر وزادته حافظة تخزن النصوص والتواريخ والعبارات والصيغ اللغوية والصور الجميلة، وزودت شاعريته وموهبته بما يساعدها في بناء النصوص الشعرية وابتكار الصور والأخيلة الجديدة.

---

[166] انظر مقدمة خالد الرويشان للأعمال الشعرية للبردوني، ج1، ص. 20.

واكتسب شعره عمقا فكريا وفلسفيا عن طريق قراءته لرهين المحبسين، أبي العلاء المعري، وبشار بن برد، ومعاناتهما وتمردهما الذي استمد منه أسس تمرده على القديم لتشابه ظرفه الوجودي ككفيف البصر مع ظرفهما. وكان بانتمائه إلى الشعب البسيط يشعر بقوة إحساس الجموع الشعبية بوطأة الظلم، وبتطلعه إلى الجديد، يشعر بشدة الاستبداد وانعدام الحريات بما في ذلك حرية الإبداع الثقافي، ويحس أكثر بالحاجة إلى المساواة والعدالة والإنصاف. فأصبح هذا الشعور الأصيل لديه مصدر رؤيته الفلسفية للحياة وللثقافة في بلده وفي الوطن العربي كله.

وبدأ شعره السابق على الجمهورية، والذي أمكن نشره في مجموعة "من أرض بلقيس" سنة 1961، يهتم بتجديد الصورة الشعرية في قالب الشعر العمودي القديم، مثل قوله في قصيدة "من أرض بلقيس":

أطيافها حول مسرى خاطري زمرٌ	**من الترانيم تشدو حولها زمرُ**
هذا القصيد أغانيها ودمعتها	**وسحرها وصباها الأغيد النضِرُ**
يكاد من طول ما غنى خمائلها	**يفوح من كل حرف جوها العطِرُ**
يكاد من كثر ما ضمته أغصنها	**يرف من وجنتيها الورد والزهرُ**
ها أنتِ في كل ذراتي وملء دمي	**شعرٌ تعنقده الذكرى وتعتصرُ**
وأنتِ في حضن هذا الشعر فاتنة	**تطل منه، وحينا فيه تستترُ**

أو في قصيدة "فلسفة الفن" قوله:

لا تلمني إن بكى قلبي وغناك بكايا
لا تسلني ما طواني عنك في أقصى الزوايا

ها أنا وحدي وألقاك هنا بين الحنايا
هاهنا حيث ألاقيك طباعا وسجايا

حيـث تهـوي قطـع الظلمـا كأشـلاء الضـحايا
وتطـــل الوحشـــة الخرســـا كأجفـــان المنـــايا

والـدجى ينسـاب في الصـمت كأطيـاف الخطـايا
والســكون الأســود الغــافي كــأعراض البغــايا

لـــك مـــن أنَّاتيَ اللحـــن ولي وحـــدي أنيـــني
ولـــك التغريـــد مـــن فـــني ولي جـــوع حنيـــني
هـــا أنا في عزلـــة الشِّـــعر كأشـــواق السـجينِ

أو في قصيدة "نار وقلب"

وأغنيـــك والصـــبابات حـــولي	**زمـرٌ تحتسـي قصـيدي وتنهـل**
وأناجي هواك في معرض الأوهام	**في شـاطئ الظـلام المســربل**
في دمي من هواك حُمَّى البراكين	**العـواتي وألـف دنيـا تزلـزل**

ولأن البردوني يعيش مأساة نفسه السجينة ومأساة شعبه المحروم، لا يفارقه أنين الضحايا المتعبين لأنه منهم وأكثر منهم بلوى ومعاناة:

وأنـــوح للمستضـــعفين وإنـــني	**أشـقى مـن الأيتـام والضـعفاء**
وأحسـهم في سـد روحي في دمـي	**في نـبض أعصـابي وفي أعضـائي**
فكــأن جــيراني جــراح تحتســي	**ريَّ الأسـى مـن أدمعي ودمـائي**

ويشحذ قدرته على مقاومة الفناء، ويقوي نفسه، ويتخذ الشعر سلاحه في مواجهة ظلام الوجود، ويتيه بشعره فيقول:

قيثـارتي أنـت أم الشِّـعر لم تلـدي	**إلا غنى الخلد أو لحن البطولاتِ**
أودعـت نـدواك آيات النبـوغ فيـا	**قيثـــارتي لقـــني التـــاريخ آياتي**
وغـــردي بخيـــالاتي العـــذاب فمـــا	**حقيقـة السـحر إلا مـن خيـالاتي**

وشاعر الطبع موسيقى الغيوب إذا غنى أرى الأرض أسرار السماوات

قيثارتي إنني ابن الشعر أنجبني للخلد، للعبقريات الفتياتِ

وللحياة وللدنيا ونصرتها للحب، للنور، للزُّهر الصبياتِ

ومن قصيدة "فلسفة الجراح":

وكأن قلبي في الضلوع جنازةٌ أمشي بها وحدي وكلي مأتم

أبكي فتبتسم الجراح من البكا فكأنها في كل جارحةٍ فمُ

ومن قصيدة أخرى:

والصمت يجثو على صدر الوجود وفي صمتي ضجيج الغرام الجائع الصادي

ومن قصيدة أخرى:

كأن الصبابات في أفقه تئن فترتعش الأنجمُ

كأن النجوم على صدره جراحٌ يلوح عليها دمُ

ويبدأ المجموعة الثانية، "طريق الفجر"، بما في العنوان من تفاؤل، بقصيدة كتبت سنة 1963 برسالة إلى القارئ فيها:

من القبر، من حشرجات التراب على الجمر من مهرجان الذباب

ومن حيث كان يدق القطيع طبول الصلاة أمام الذئاب

ويهوي كما ترتمي في الصخور قتيلٌ على كتفيه مصاب

ومن حيث كانت كؤوس الجراح تزغرد بين شفاه الحراب

ومن حيث يحسو حنين الربا غبار المنى ونجيع السراب

ومن حيث يتلو السؤال السؤال ويبتلع الذعر وهم الجواب

عرفت اصفرار الرماد العجوز ليحمر فيه طفور الشباب

وحرَّقتُ أنفاسيَ المطفآت وأطفأتها بالحريق المذاب

يعبر البردوني في شعره عن إحساس لا يشبه إحساسات غيره من الشعراء، ويظل دائما مهموما في كل شعره بتجديد الصور والأخيلة، وبالتميز عن الشعراء التقليديين والنظَّامين ليكون شعره نغما فريدا عذبا، وطريقا فريدا في مسيرة الشعر في اليمن، لا ينسج على منوال من سبقوه، ولا يقلدهم، ولا يمت لهم بصلة، ويتحدى نفسه وموهبته لكي تتبرعم عن صور جديدة وخيالات مبتكرة تبتعد به عن التكرار وعن المراوحة في مكانه.

وفي قصيدة "في طريق الفجر" يستقبل فرح الفجر، وبروق التغيير فيقول:

واحترقنـــا شـــوقا إليـــه وذبنـــا　　　في كـــؤوس الهـــوى لحـــونا رقيقـــة

وانتظرناه والدجى يرعش الحلم　　　علـــى هجعـــة القبـــور العتيقـــة

والسرى وحشة وقافلة السفرِ　　　يخـــاف الرفيـــق فيهـــا رفيقـــه

وظـــلام لا ينظـــر المـــرء كفيـــه　　　ولا يســـعد الشـــقيق شـــقيقه

هكـــذا كـــان ليلنـــا فتهـــادى　　　فجـــرنا الطلـــق فالحيـــاة طليقـــه

وفي قصيدة أخرى:

وأنا هنا أصغي وأسمع من هنا　　　خفقـــات اشـــباح مـــن الأهـــوال

ورؤى كألسنة الأفاعي حوَّما　　　ومخاوفـــا كعـــداوة الأنـــذال

وأحس قدامي ضجيج مراقدٍ　　　وتثـــــــــــــاؤب الآباد والآزالِ

وأسير في الدرب الملفع بالدجى　　　وكـــأنني أجتـــاز ســـاح قتـــالِ

ومن قصيدة يخاطب فيها الحبيبة:

أغنيك وحدي وظل القنوط　　　أمـــامي وخلفـــي كطيـــف الـــردى

وملعبنـــا جـــدول مـــن عبـــير　　　إذا مســـه خطـــونا غـــردا

وأفراحنـــا كشـــفاه الزهـــور　　　تهامســـها قـــبلات النـــدى

ومما أكسب شعره نبضا جديد أنه أدخل فيه أسلوب الحوار الذي نعثر عليه لأول مرة في قصيدة "خطرات"، من مجموعة "في طريق الفجر":

قال لي: هل تحس حوليك رعبا وعجاجـا كالنـار طـار وهبـا

قلـت: إن الطريـق شـب عراكـا آدميـا في أجيـف الغـنم شـبا

قال: إنا نبكي الضعيف صريعا ونهـنِّي القـوي رغبـا ورهبـا

وهكذا تكتسب القصيدة حركتها المسرحية وتوترها من هذا الحوار النابض، ولا تعود تراكما لأبيات تسرد وقائع المشهد الدرامي. وهو أسلوب سيواصل البردوني استخدامه في شعره.

ويُلاحظ أن البردوني كان دائما يأنف من المشاركة في الحشد لموقف سياسي رسمي. فقد حدث أكثر من مرة أن تم حشد الأدباء والكتاب للحضور لمقابلة رؤساء الجمهورية المختلفين لتأييد موقف اتخذته الرئاسة. لم يكن يرفض الحضور ولكنه كان يتخذ مواقف أشجع من الاكتفاء بعدم الحضور. كان في الغالب يصل متأخرا، وحين يصل لا يبقى في الاجتماع مع الرئيس إلا لدقائق يعلن فيها موقفا صريحا بعيد النظر ومعارضا للموقف الرسمي، ويخرج بسرعة تاركا لبقية الحضور مواصلة الاجتماع مع الرئيس حتى نهايته.

وكان دائما حريصا على أن يبقى مستقلا برأيه عن أي موقف سياسي، وأن يبقى فريدا في النأي بنفسه عن السياسة بمعناها الآني، وعن الحشد لأية سياسة رسمية. كان يحرص على أن يكون ممن ينظرون إلى الأبعاد السياسية بعيدة المدى ولا يسمح بأن يستدرَج للسقوط في الآني والسائد، وألا يكون مشاركا في أحداث تترك نتائج مخيبة لآمال الناس فيه وفي شعره.

وحتى حين يكون مناصِرا لعملية التغيير، لا يرتضي أن يُستخدم شعره كشعار آني. وربما كان هذا سبب أنه أسقط من مجموعاته الشعرية القصائد التي انفعلت

بحدث سياسي كبير وشاركت فيه بقصيدة شاعت بين الناس وأصبحت مثل المنشور السياسي.

وقد كان قبل قيام الجمهورية يعبر عن التوق للحرية والتغيير في قصائد ظلت سرية وغير معلنة خشية الانتقام منه واضطهاده وهو في ظروف لا تمكنه من مقاومة الطغيان، موظف بسيط فقير لا مورد له يساعده على تحمل نفقات معيشته سوى مرتب بسيط عرضة للإيقاف ببساطة دون رحمة. ومع ذلك فقد تسربت بعض قصائده المعارضة إلى القراء سرا، ونَسَب له الناس فيما بعد، عن حق وعن باطل، تحدي الطغاة علنا ودخول السجون مرارا، لأنهم كانوا في حاجة إلى بطل شعبي أسطوري ينوب عنهم فيما عجزوا عنه، من تحدي آلة القمع والطغيان.

وكان من الطبيعي أن يكون شعر البردوني أول من تحرر من رقابة النظام التقليدي واندفع للتعبير عن فرحته بالتغيير الجمهوري:

أفقنا على فجر يوم صبي   **فيا ضحوات المنى اطربي**

أتدرين يا شمس ما ذا جرى   **سلبنا الدجى فجرنا المختبي**

وكان النعاس على مقلتيك   **يوسوس كالطائر الأزغب**

أضأنا المدى قبل أن يستشف   **رؤى الفجر أخيلة الكوكب**

فولى زمان كعرض البغي   **وأشرق عهد كقلب النبي**

طلعنا ندلِّي الضحى ذات يوم   **ونهتف يا شمس لا تغربي**[167]

وتسابق الشعراء الشباب للخروج من سجن الماضي وإطلاق قصائدهم الحبيسة وكان الراديو ميدانهم لإلقاء قصائدهم المتحمسة للتغيير، والداعية لاستقباله،

---

[167] انتشرت هذه القصيدة بين الناس وأوردها عبدالعزيز المقالح في كتابه "الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن"، ص 303، لكن البردوني لم يذكرها في أية واحدة من مجموعاته الشعرية الاثنتي عشرة التي نشرها في حياته ونشرتها مجتمعة الهيئة العامة للكتاب بصنعاء سنة 2002، بعد رحيله بثلاث سنوات.

والالتفاف من حول الجمهورية الوليدة المهددة منذ لحظاتها الأولى بمقاومة شرسة من قوى الماضي المهيمن على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، والمتجذر في العادات والتقاليد وفي النفوس التي كانت ما تزال عاجزة عن تصور وعود الحرية وعن استقبال أشعة الفجر الجديد. وامتشق كل منهم موهبته وعانق لغته الشعرية الجديدة التي كان يخبئها عن عيون حراس الثقافة التقليدية، وأطلق لخياله ولحماسته للتغيير العنان، وألقى قصيدة الترحيب بالباب الذي انفتح، وبكسر طوق العزلة من حول شعبه ومن حول الثقافة الحبيسة، وقال ما استطاع من شعر في تلك اللحظات الخارجة من الزمن والمنطلقة إلى الأمام راجيا أن يكون انطلاقا بلا عودة.

لكن الأيام كانت أقسى من لحظات الفرح. وتفرق الشعراء والأدباء الذين وحدتهم لحظة التغيير الجمهوري، وبدأ كل منهم يختار التيار الذي يجد نفسه أقرب إليه. فقد وجد البعض أنفسهم بسرعة، وهم الجمهوريون المتحمسون، في صف المعارضة التقليدية للجمهورية الأولى، جمهورية الرئيس السلال المتحالفة مع مصر الزعيم جمال عبدالناصر التي أصبحت خلال فترة وجيز الحامي الأكبر للتغيير الجمهوري. فوجد مُحَّد الشرفي نفسه في صفوف المتظاهرين ضد السلطة الجمهورية المهددة بالسقوط إلى جانب القوى الجمهورية التقليدية. وما لبث أن أُرسِل موظفا في السلك الدبلوماسي في الخارج يحاول تطوير أدواته الفنية عن بعد حتى انتهى إلى اختيار تيار أدبي خاص به، يتعاطف مع المرأة اليمنية الضحية متخذا لاستبعادها رمز "الشرشف" أو النقاب الذي يقصيها من المشاركة في الحياة الثقافية والعامة، ويخطو خطوة أخرى بتأسيس الكتابة للمسرح لأول مرة في الحياة الثقافية في صنعاء. فكان ذلك أجدى للثقافة في اليمن، ولليمن ككل، من انهماكه إلى جانب المعارضة التقليدية التي كانت معضلتها أنها لم تقدم بديلا قابلا للحياة يحل محل القوات المصرية والرئيس السلال المتحالف معها حفاظا على الجمهورية وتصليبا لعودها في انتظار اللحظة المواتية لاعتمادها على نفسها ومواصلة مسيرة التغيير الجمهوري.

ووجد عبدالعزيز المقالح نفسه، بحساسيته الشعرية العالية، عاجزا عن مسايرة القوى التقليدية والانخراط في أنشطتها أو حتى القرب منها، فآثر الابتعاد بنفسه عما يجري، إلى أن وجد نفسه أيضا دبلوماسيا في الجامعة العربية، وفيما بعد مبتعِدا يواصل دراسته الأكاديمية وتعميق مسيرته الشعرية باقترابه من تيار الشعر الجديد في الثقافة العربية، حتى أصبح العنوان الأبرز لهذا التجديد الشعري في الحركة الثقافية اليمنية.

وفي هذه الأجواء السياسية المضطربة اختار عبدالله البردوني أن يخطو بحذر واتزان. فقد كان من أوساط الشعب التي تشعر بأن التغيير الجمهوري ضرورة ويواجه مقاومة شرسة لا يمكن التغلب عليها دون الاعتماد اضطرارا على دعم حركة القومية العربية. ولذلك لم يصدر عنه أي تعاطف مع المعارضة التقليدية التي كان يخشى أن تؤسس جمهورية لا تختلف عن النظام السابق أو أن ترتكب أخطاء تؤدي إلى سقوط الجمهورية. ولذلك ظل متماسكا ومتسقا مع مشاعره الجديدة العميقة، متمسكا بالتغيير دون دخول في الملابسات التفصيلية والصراعات بين القوى الجمهورية المختلفة. أختار التغيير الجمهوري وتمسك باتجاهاته العامة وغض الطرف عما عداه.

وفي اللحظات المضطربة التي تلت قيام الجمهورية تراجعت الثقافة التقليدية أو توارت، ولم تعد قابلة للحياة، ولم تجد أنصارا يستقبلونها ويدافعون عنها. وفي الوقت نفسه كانت الثقافة الجمهورية الجديدة ما تزال في حال ارتباك، والجو العام يهدد الجمهورية بالسقوط. وهرب بعض الشعراء القدامى للمشاركة في العمل لعودة النظام القديم ظانين أن ما حدث في سنة 1948 سيتكرر ويعود الطغاة لنهب المدينة التي أسقطتهم وأخرجتهم من صفوفها، وارتبك أنصار الجديد ولم يستطيعوا، أو لم تسمح لهم الظروف الصعبة، بتأسيس ثقافة جديدة مبدعة على أنقاض الثقافة التقليدية التي كان من الواضح أنها قد انهارت ولم تعد قابلة للحياة.

وظل البردوني في الميدان، يحاول ملء الفراغ الذي تركه هؤلاء وأولئك. يكتب القصائد العمودية التي أَلِف كتابتها ولكن بحساسية شعرية جديدة وبخيال ملقح ببوادر

التغيير، وبأفق ثقافي منفتح على الثقافة في العالم العربي. وحرر الصفحات الأدبية في الإذاعة وفي الصحافة التي كانت رسمية. ووجد فيه القراء والمتابعون للأدب رمزا ثقافيا جمهوريا حاضرا بينهم. وحين عاد إلى صنعاء أحمد الشامي، الشاعر ووزير خارجية الملكيين حتى المصالحة التي تمت سنة 1970، بدأ محاولة النشاط الأدبي من جديد بهجوم قاس على أدب البردوني وشعره، في محاضرة رُتِّبَت له في مدرسة جمال عبدالناصر الثانوية (كانت ما تزال تحمل التسمية التي أطلقها عليها المصريون عند بنائها: مدرسة الثورة الثانوية) في صنعاء، كانت بحق محاولة لإعادة إحياء الثقافة التقليدية وإعادة حضورها في الواقع الثقافي الجمهوري. ولذلك لاقت هذه المحاضرة استياءً عاما بين الجمهور، وبخاصة في أوساط الطلبة والشباب الذين كانوا قد أصبحوا ينظرون إلى البردوني باعتباره صوت الجمهورية، والأديب الذي يرغبون في أن يقرؤوا له شعرا ونثرا. ولذلك لم يتكرر ذلك اللقاء. فعلى الرغم من عودة بعض شعراء الثقافة التقليدية إلى الجمهورية، لم يعودوا قادرين على مواكبة المتغيرات الثقافية داخل الجمهورية وفي الثقافة العربية، فظلوا متوارين عن الحركة الثقافية حتى غادروا الحياة.

ومع أن عبدالعزيز المقالح كان قد توارى لبعض الوقت بعيدا في القاهرة، بدأ يعود من جديد إلى وعي الشباب الجدد، وتسربت قصائده إليهم لتعبر عن قضاياهم واهتماماتهم، فكان لبعضها فعل السحر في خيالهم وفي تكوينهم الثقافي. وإنني لأذكر التأثير الكبير لقصيدته التي كتبها خلال حصار صنعاء في أواخر سنة 1967 بعنوان "إلى السلاح أيها المواطنون"، وهو عنوان يحيل إلى الثورة الفرنسية:

(Aux armes citoyens)

استخدم فيه ما يسميه النقاد البنيويون "التَّناص المباشر" باقتباس شطر من نشيد الثورة الفرنسية (La Marseillaise). إنها قصيدة مهداة "إلى أبطال المقاومة والصمود في حصار السبعين":

إلى السلاح

إلى السلاح

دوى النفير

انتشرت على جوانب الشمس الجراح

يكاد يلفظ الأنفاس

يختفي تحت العباءة الصباح

فقاتلوا

أيلولكم مجنونة من حوله الرياح

المجد للأحرار

للمقاتلين

الموت (للوشاح)[168]

الموت (للوشاح)

جنكيز خان والمغول قادمون

الأهل والديار والبنون

غدا سيعدمون

إن لم نُعِد السور والخنادق

ونشرِع البنادق

سترتدي المدينة السواد

ستغرق النساء في الحداد

سيرجع الفساد

الليل والإرهاب والسجون

[168] كان الوشاح اسم السياف الذي يأمره الطاغية بقطع رؤوس الأحرار فيقطعها متبخترا فأصبح في شعر الزبيري ونثره وفي أدب الأحرار قبل قيام الجمهورية رمزا يطلق على الطاغية.

سيرجعون

...

يا أيها الرجال يا ضمير شعبنا العظيم

يا حاملي رؤوسكم على الأكف في تصميم

يا من تقاتلون في الجحيم

أنتم نهار الشمس في العيون...[169]

فانتشرت هذه القصيدة المباشرة، بما تحمل من لغة تقريرية بسيطة معبرة عن مشاعر الشباب والمثقفين والجنود والضباط المدافعين عن المدينة، انتشار النهار في الهشيم وأصبحت شعارات يرددها الجميع. وتلتها في الانتشار في أوساط الشباب والطلبة قصيدة "الأبطال والسبعون" والتي صدَّرها المقالح بإهداء "إلى الأحياء والأموات من جيل السبعين العظيم"

تراجعي أيتها الكلمات

تكسري أيتها الأقلام

أشرف منك صوت حر مات

وهو ينازل الظلام

ويحفظ الأطفال في عينيه يغمد الرايات

وددت لو كنت الطريق يعبرون فوقه إلى الجبل

لو كنت صخرة تحمي صدورهم من الأعداء

لو كنت لقمة أو شربة من ماء

لو كنت غيمة تمر فوقهم أو قطرة من طل

لو كنت واحدا منهم أموت أو أقتل

---

[169] عبدالعزيز المقالح، مارب يتكلم، ص. 103 . 106.

أولئك المناضلين

أولئك المقاتلين

من زرعوا الشمس على سمائنا

وثبتوا النجوم والأقمار

وثبتوا النهار

على طريق أيلول العظيم

أشعلوا الشباب أحرقوا الأعمار

صدوا جحافل القديم

أوقفوا مسير العار

فكانت الأعمدة النبيلة البيضاء

وكانت السبعون...[170]

ويمكن القول إن هذه القصائد المباشرة التي رافقت الشباب الجمهوري في معركته للدفاع عن الجمهورية قد حسمت موقع المقالح ونقلته من شاعر صوفي يعيش في الخارج إلى أهم شاعر حاضر في وجدان القراء الجمهوريين الجدد ووطدت، إلى غير رجعة، مكانة الشعر الجديد في الحياة الثقافية اليمنية.

ومنذ ذلك الوقت أصبح البردوني والمقالح قطبي الثقافة في اليمن، يتبنى الشباب الجديد خيارات المقالح الثقافية الحديثة والمعاصِرة ويحاول التقليديون أن يتخفوا وراء البردوني في الدفاع المستحيل عن الشعر العمودي عن غير رضى منه، بل عن نفور صادر عنه نحو هذه المحاولات البائسة، لأن خياراته الشعرية، سواء من حيث المضمون أم من حيث الشكل، كانت قد تجاوزت الأساليب التقليدية وجددت الصور والأخيلة وأدخلت الحوار ومالت إلى الصورة الكلية التي قد تشمل القصيدة كلها، وبحثت عن الصور المفردة المميزة والمبتكرة.

---

[170] نفسه، لا بد من صنعاء، ص. 11 . 13.

وشهدت هذه الفترة ظاهرة انحياز الجمهور، غير المطلع، للبردوني والمقالح دون اطلاع واسع على شعرهما ودون فهم لما يميز شعر كلٍ منهما ولظواهره الفنية والموضوعية.

محمد الشرفي

البحث عن التميُّز

كان مُحَّد الشرفي عند حدوث التغيير الجمهوري شابا شاعرا يتدفق حماسة للتغيير وللشعر، ولبناء اليمن المنتظر. وسرعان ما وجد نفسه يسير في تيار المعارضة الجمهورية، ترفعه القوى التقليدية على الأعناق في مظاهراتها ذات الأهداف التي لا تنسجم دائما مع طموحات الشاب الشاعر وتوقه للحرية والتقدم. وقادته كل هذه الملابسات في سنوات الحرب التي شنتها قوى القديم على الجمهورية إلى أن يصبح دبلوماسيا يعيش في الخارج بعيدا عن الصراع السياسي المحتدم داخل البلاد. وقد وفرت هذه السنوات من البعد عن المعترك السياسي المباشر فرصة للشاعر المبدع كي يتأمل المشهد كله، وأن يحاول أن يجد لنفسه طريقا خاصا في الشعر وفي الحياة يميِّزه بين تيارين شعريين أصبحا بسرعة يحتلان الفضاء الشعري كله، البردوني بتجديده للشعر العمودي عن طريق تجديد الصورة الشعرية وإدخال الحوار داخل القالب الشعري التقليدي من جهة، وعبدالعزيز المقالح الذي اختار منذ البداية التجديد الشامل للشعر شكلا ومضمونا والسير في طريق الشعر الجديد، وهو ما يطرحه بقوة في بيان الشعر أو مقدمة مجموعة مارب يتكلم الشعرية التي تجمعه مع رائد الشعر الجديد عبده عثمان، وهو ما سنتحدث عنه لاحقا.

يختار مُحَّد الشرفي أن يكون مؤسسا لتيار جديد في الشعر والنثر في اليمن، باختياره لقضية المرأة وللتعبير عن معاناتها وهي تتلفع بشرشف أسود يمنع عنها التنفس ويحولها إلى شيء مرذول ينبغي أن يُغطَّى ويُحجب ليتجنب الناس ضرره وسوئه، وعاهة ينبغي سترها عن الأعين. ينظر الشرفي إلى الشرشف الأسود الذي يلف المرأة باعتباره

رمزا لاحتقار المرأة وللتمييز ضدها ولفرض الجهل عليها ولاستبعادها من التعليم والعمل ومن المشاركة في الحياة العامة بكل تنوعاتها، ولإنكار مساواتها في الحقوق والواجبات، ورمزا لاضطهادها وجعلها عالة على الرجل، إن شاء تحمل مسئوليتها وساعدها على العيش وإن أراد هجرها وجعلها بلا عائل، بلا كرامة وبلا حياة. رمزا لجعلها ذليلة مهانة تابعة لإرادة الرجل في كل شيء، هو صاحب القرار، إن شاء رفعها وإن شاء خفضها. لا قيمة لها بدونه، ولا معنى لوجودها في ذاتها إلا لتستجيب لرغباته وتكمِّل وجوده. والشرشف عنده رمز لحرمان الوطن من جهود نصف سكانه من خلال حرمان النساء من المشاركة بجهودهن في بنائه وتطويره وإسعاد أبنائه وتوفير الحياة الكريمة لهم. ينظر إلى الشرشف باعتباره رمزا لمجموعة واسعة من القيم البالية التي ينبغي تغييرها إذا أريد للمجتمع اليمني أن يخرج من سجنه ومن فقره وتخلفه.

باختصار، رأى الشرفي في تغطية المرأة بالشرشف من أخمص قدميها حتى رأسها رمزا لعار كان وراء وأد البنات والحزن والحسرة حين تولد الأنثى، وسبي النساء للمبالغة في الانتقام من المهزومين، وحرمان المرأة من الميراث أو بيعها بالنقود عند الزواج وعدم منحها أي قدر من الاستقلال أو تحمل المسئولية، ولكل الظلم الواقع على المرأة تاريخيا، وإهدارا عبثيا لطاقات هائلة يحتاج المجتمع إليها ليتجاوز حالة الفقر والبؤس والتخلف التي يعيشها.

ولا ينتقد مُحَّد الشرفي الآخرين وينسى نفسه، بل يبدأ بنفسه بالنقد الشجاع والتقريع الصريح لفرض الشرشف على زوجته قبل أن يتأمل ويفكر ويكتشف هذا الظلم غير المعقول وغير المقبول الواقع على المرأة، فيقول في المقدمة التي كتبها سنة 1970 لمجموعته الشعرية "دموع الشراشف":

"تزوجت فتاة من القرية كانت تشارك أباها وأمها وأخواتها في أعمال الفلاحة والزراعة، فكان أول ما أسديته إليها وأنعمت به عليها هو (الشرشف). كانت تنظر إلى الشمس بحرية، وتشتَمُّ عبق الوديان وأزهارها وخمائلها بحرية، وكانت تصغي إلى

حفيف الأغصان وخرير الجداول بحرية. تنتقل من حقل إلى حقل ومن مزرعة إلى مزرعة كالعصفور بحرية. لكنني بكل (حرية) أول ما أنعمت به عليها هو (الشرشف) وظلام الجدران وسجن المدينة"[171].

ويواصل نقد من يتصورون أن الشرشف تطوُّر يفرضونه على نسائهم حين ينتقلون من بساطة الريف إلى "حضارة؟" المدينة، أو من الفقر إلى الغني فيكون الشرشف من علامات الرقي الاجتماعي، ويخص بالنقد من تثقفوا وتعلموا حتى في البلدان المتقدمة وتفلسفوا وتبنوا النظريات الحديثة وطالبوا بالحريات العامة وحقوق الانسان ولكنهم لم يتحرروا من الشرشف القابع في عقولهم.

ويدحض القول إن عفاف المرأة في الشرشف و"لا يدرون أن عفاف المرأة أخلاق وسلوك تكتسبها من بيتها ومدرستها ومن جيرانها وصواحبها وأن الشرشف لا دخل له في عفاف أو سقوط"، وأن الشرشف قد يكون ستارا يخفي ما يخافون منه ويكرهون[172]. بل إن الشرفي ينظر إلى الشرشف باعتباره رمزا أبعد مدًى للظلام والعبودية والاستبداد، ويدعو أبناء وطنه إلى "أن يفتحوا أعينهم للنور، وأن يُطبِقوا جفونهم عن الظلام، فما أكره أن نجد أنفسنا في القرن العشرين ونمارس فيه حياة القرون الوسطى، لا نحسن فكرا أو عملا، ولا يستفزنا تقدم أو بناء. نتعايش مع المرأة كأنها ليست منا وهي منا، ونعانيها وراء الجدران وخلف الشراشف بلوى وعارا، ندفنها في الزوايا جسدا وروحا، ونتمنى قدوم اليوم الذي نقذف بها إلى أحضان رجل، أي رجل، إلى مصير لم يكن لها فيه رأي أو إرادة"[173].

يطلق مُحَّد الشرفي في تلك المقدمة التي كتبت بشجاعة في وقت مبكر من عمر الجمهورية، وأبقاها بالحرف في بداية أعماله الكاملة (مما يعني أن الزمن لم يغير فيها

---

[171] محمد الشرفي، الأعمال الكاملة، ج1، ص. 20.

[172] نفسه، ص. 22.

[173] نفسه، 24.

حرفا واحدا) نداءً تاريخيا لإنصاف المرأة وإخراجها من سجن الزمن الممثل بالشرشف فيقول: من يراها "مقيدة العينين باللثام مغلولة الحركة والتنقل بأحزمة وأزرار الشراشف، وأخيرا من رأى بنت بلادي في المدرسة، صغار في عمر الزهور، كمجموعة من الغربان السجينة، يصغين إلى أساتذتهن ومربيهن من وراء حجاب ولثام وشرشف، ويلقين دروسهن وأناشيدهن من وراء حجاب ولثام وشرشف، صورة شائهة لتخلف العقليات وتحجُّر الإحساس، تحتجب الفتيات الكبار خوفا من الإغراء والسقوط – كما يقولون – فما ذنب الصغيرات من الخامسة إلى العاشرة؟[174]".

وقال في قصيدة "عتاب إلى شرشف" التي كتبها في شهر يوليو 1964:

وتمشـي كربـوة فحـم حـزين	**بشرشـفها الأسـود المسـتكين**
مكومـة فيـه ملفوفـة	**كما التف ليل الأسى بالسجون**
أرى امـرأة أم أرى كتلـة	**مـن الحـزن تعكـس غـدر السـنين**
تمـد خطاهـا كمـا ترتمـي	**علـى الليـل أشـباح خـوف لعـين**

ويعود في سبتمبر من السنة نفسها لموضوع الشرشف في قصيدة بعنوان "أشواق في شرشف" فيقول:

وتخطـر في "شرشـف" كـالغراب	**وتنسـاب كـالأفعوان المصـاب**
تلـون مشـيتها كـالظنون	**وتكتـب أحجيـة في الـتراب**

وفي أكتوبر من السنة نفسها يكتب قصيدة بعنوان "بوح شرشف" فيقول على لسان امرأة:

شرشـفي محنـة وشـكوى حنـين	**عاصـف وانتحـاب حسـن كئيـب**
يخنـق الموعـد الحنون على ثغـري	**ويطـوي ابتسـاميَ الخلُّـوبِ**

---

[174] نفسه، ص. 25.

قفـص مـن دجـى تكـدَّس فيـه   خلجـات الهـوى وخفـق القلـوبِ

وفي نوفمبر 1965 يكتب قصيدة بعنوان "دموع الشراشف" (وهو العنوان الذي أعطاه للمجموعة الشعرية كلها) يقول فيها على لسان امرأة ترتدي الشرشف:

لمن نبع سحري؟ لمن؟ للظلام؟   لشرشـــفي المعـــتم المغلـــقِ

أمــر بــه خيمــة مــن ســوادٍ   تقيِّـــدني ذلـــة الموثـــقِ

أحــس العيــون تكيــل الظنــون   وتســبح خلــف دجــى مُطــرِقِ

وتستفســر الــورد عــن وجنــتي   وعــن صــحوة الفجــر في مفرقــي

أنا جــدول مــن شــباب جــريح   تحطَّــم فــوق المــدى الضــيقِ

أنا زورقٌ في خضـــم الحيـــاة   يفـــتش في التيـــه عـــن زورقِ

أنا امــرأة في عروقـــي ســـؤالٌ   تضـــجُّ مـــتى يا مـــنىً نلتقـــي

ويرافق مُحَمَّد الشرفي خروج المرأة إلى العمل باعتبار العمل فعل تحرير للرجل والمرأة على السواء، ولكنه بالنسبة للمرأة في ظرفها التاريخي المظلم خطوة أولى على طريق التحرير الطويل. فهو يتعاطف معها فقيرة تضطر لبيع نفسها في الظلام، ويرافقها وهي تخرج طفلة إلى المدرسة لتتهجى أولى حروف الحرية ممثلا بالتعليم الذي لا حرية بدونه، ويحضر شعره معها وهي تدخل العمل، ويخفق قلبه معها وهو يراها عاملة ومعلمة وموظفة، إلخ..

ويوضح في مقدمة مجموعته الشعرية الثانية بعنوان "من أجلها" والتي كتبها سنة 1972 قوله: "وإذا كان في هذا الديوان أي التزام بغير النواحي الفنية والجمالية فهو الالتزام بقضية المرأة وضرورة فكها من أسر الحجاب وسجن العُقَد والتعقيدات المتخلفة. وليس من الضروري أن يرى القارئ (الشرشف) في كل قصيدة، فهناك أحيانا ما هو أخطر من (الشرشف) وهو الشرشف الداخلي، الشرشف النفسي، شرشف عُقَد الرجل العربي في أي مكان وعُقَدِه على المرأة ورأيه فيها". ويرى أن خلع الشرشف بداية طريق المرأة نحو تحرير نفسها وامتلاك وجودها. ويرى أن من الطبيعي

أن نتوقع تمسك قوى القديم بقيمها البالية، وهذا يقتضي أن يتمسك الجديد بقيمه الجديدة ويدافع عنها، وأن يتحلى بصلابة المبدأ وقوة الإيمان بقضاياه دون خوف أو تردد. فمن "ينتظر مساعدة القديم لخلق فكر جديد فقد أخطأ وانتظر المستحيل. ولا يكون التغيير بالاستسلام للواقع". ويرفض ما يقال في وجه كل جديد من أن "هذا ليس وقته"، وأن الزمن كفيل بالتغيير، لأن الإنسان هو من يغير الواقع والزمن مساعد للتغيير[175].

وفي قصيدة "القلق من أجلها" من مجموعة "من أجلها" يقول:

سيدتي المسكينة

المشنوقة في أذيال الرجل الغجري

على كل مدينة

سيدتي خلف "الشرشف" خلف الأسوار

المدفونة في قائمة الموتى

أو في بنك التجار

المصلوبة في دولاب الأم

كبعض الزينة

أو فوق رفوف الآباء

كبعض الآثار

سيدتي المحفوظة كالنقش السبئي

وراء الجدران جدار

...

الشرشف ملء دماغك

ملء الأعماق

---

[175] نفسه، ص. 197 . 201ز

الشرشف مأساتك

مات الإحساس به

ماتت كل الأشواق

كربيع الوديان تموتين

كالأغصان وكالأوراق

ماتت نبضات الحب الدافق

مات القلب الخفاق176

وهو في هذه القصيد يتجاوز الشكل التقليدي للقصيدة ويمنح المضمون الجديد شكله الجديد أيضا ويعبِّر عن التجديد في الرؤية والفكر باختيار التجديد في شكل هذا التعبير الفني.

ومن قصيدة "الحب لها والحب من أجلها" قوله:

تختبئين وراء الليل الدامي

في شرشفك الممتهنِ

تمشين على أنقاض الأجداد

وخلف عطور الدِّمَنِ177

---

[176] نفسه، ص. 211 . 215.

[177] نفسه، ص. 229.

محمد الشرفي والمسرح

القضية الثانية التي نذر مُحَمَّد الشرفي نفسه وشعره لها هي الكتابة للمسرح والسعي لتأسيسه في صنعاء. وقد بدأ بكتابة مسرحيات شعرية فريدة في الحركة الثقافية في اليمن، هي:

1. "في أرض الجنتين"
2. "حريق في صنعاء"
3. "الغائب يعود"
4. "الانتظار لن يطول".

لكنه واصل فيما بعد كتابة المسرحيات النثرية، فكتب المسرحيات التالية:

5. ولليمن حكاية أخرى
6. حارس الليالي
7. الكراهية بالمجان.

ولكتابة المسرحيات، شعرية ونثرية، في النشاط الثقافي في اليمن، أهمية تاريخية. إنها تعبير عن أن الحركة الثقافية لا تغتني ولا تكتمل بدون وجود المسرح كتابة وتمثيلا على الخشبة ومخرجين وممثلين وفنيين مساعدين.

ويعبر الشرفي عن هذا في المقدمة التي كتبها لمسرحية "حريق في صنعاء" حيث يشير إلى "ضرورة اهتمام الحكومة بالفن المسرحي وتشجيعه ورعايته والبدء في إقامة معهد فني خاص بالمسرح والتمثيل، وإرسال البعثات إلى خارج البلد للتدريب على الإخراج والتمثيل ودراسة الفن المسرحي، أصوله وقواعده"[178]. ويضيف: "لا يمكن أن

---

[178] محمد الشرفي، مقدمة مسرحية "حريق في صنعاء"، ص. 8.

تنهض بلادنا وتنطلق في ركاب الحياة الجديدة على أسس سليمة وقواعد ثابتة إلا من خلال نهضة ثقافية، وتوسع في المعاهد العلمية والفنية، واهتمام بالفكر والفن حتى نكشف لشعبنا اليمني ما فيه من طاقات وإمكانيات..."[179].

وقد تعاون في منتصف السبعينات مع وزارة الإعلام في عهد الوزير المستنير المتحمس للثقافة يحيى حسين العرشي، الذي أقنع الرئيس الحمدي بإنشاء منصب وكيل الوزارة لقطاع الثقافة، تولاه المثقف الشاعر اليساري زين السقاف، وعُيِّن في منصب مدير الإدارة العامة للمسرح والفنون الشاعر اليساري أيضا إسماعيل الوريث، واستقدم مخرجا مسرحيا مثقفا ومجربا هو الفلسطيني حسين الأسمر. وقد أُنشأت هذه الإدارة النشطة الفرقة الوطنية للمسرح، والفرقة الوطنية للموسيقى، والفرقة الوطنية للرقص الشعبي، وعكفت على تدريب هذه الفرق وتمرينها وإعطائها بعض الفرص للمشاركات الخارجية للاحتكاك والتأهيل والتشجيع.

وبدأت هذه الفرق تنشط وتتعاون فيما بينها في تقديم بعض العروض الاستعراضية على خشبة المسرح، وبدأ النشاط المسرحي ينهض ويقدم نصوصا لمحمد الشرفي وبعض النصوص المقتبسة مثل "حلاق بغداد" للكاتب العربي ألفرد فرج وغيرها. وهي الفترة التي نجح فيها مُحَمَّد الشرفي في بث حماسته للمسرح إلينا جميعا ووجدنا أنفسنا مهتمين بمتابعة النشاط المسرحي حضورا ونقدا ومتابعة صحفية. واهتم التلفزيون، الجديد على المشهد الإعلامي في صنعاء في تلك الفترة، بهذا النشاط، وحرص على تسجيله وتقديمه في فقراته ليشغل بعض وقت البث بهذه الأنشطة المحلية في وقت لم يكن التلفزيون فيه قد امتلك فقرات منوعات محلية.

وفي الفترة نفسها بدأ نشاط ثقافي مشابه في عدن بحيث تكونت فرق للمسرح والموسيقى والرقص الشعبي، بدأت تقدم استعراضات منوعة على خشبة المسرح وعلى شاشة التلفزيون. وهو اختيار تاريخي في حركة الثقافة في اليمن ما يزال مطروحا على

---

[179] نفسه، ص. 11. 12.

المثقفين اليمنيين الاهتمام به حتى اليوم. فلا يمكن أن توجد حركة ثقافية مزدهرة دون مشاركة المسرح في إغناء وجودنا وإنعاش حياتنا وتوسيع مداركنا وخيالاتنا.

وقد بدأ مُحَمَّد الشرفي ريادته المسرحية بتأسيس المسرح في حركة الثقافة في صنعاء من خلال كتابة المسرح الشعري.

فمسرحية "في أرض الجنتين" التي كتبت سنة 1964 نص مسرحي واقعي كلاسيكي كتب بشعر عمودي عند قيام الجمهورية ولم يطبع إلا في مطلع السبعينات. وشخصيات المسرحية الرئيسية: الطاغية أحمد حميدين، وولده الخليع مُحَمَّد البدر، ولي العهد، بثيابهم المحددة: العمامة والقمصان الفضفاضة والأجواخ والخناجر (الجنابي). أما الضباط المقدم الثلايا، قائد حركة 1955، والملازم اللقية والملازم مُحَمَّد العلفي، اللذان نفذا محاولة اغتيال الإمام في الحديدة سنة 1961 وبقية الضباط فيرتدون البدلة العسكرية، وهذه كلها شخصيات لها وجود حقيقي في الواقع، تكملها شخصيات أخرى خيالية ولكن مستمدة من الأحداث الواقعية، مثل محسنة، محظية الطاغية، والوزير، والنديم، والمنجِّم، وجَوارٍ وغلمان، وحاشية وعساكر، وضباط وشباب وطلبة متظاهرون ومجاميع من الشعب ترتدي ثيابا شعبية مهلهلة. أما زمن أحداث المسرحية فهو ما بين فشل الحركة الدستورية سنة 1948 وقيام الجمهورية في 26 سبتمبر 1962.

يبدأ الفصل الأول بمشهد في غرفة في قصر الطاغية مفروشة بالسجاد مثل الغرف المشابهة في بيوت أغنياء المدينة. تحيط بالجدران مساند ملونة. يجلس الطاغية في صدر المجلس، يحيط به حرسه ومساعدوه، خاشعون ينظرون إليه في انتظار ما يقول: يتنحنح الطاغية ويبدأ الحديث ويعلن امتلاكه للشعب وينافقه نديمه والشاعر، لكن الطاغية لا يرضى عن نفاق النديمين فيقول:

أحســـنت في وصـــفي قلـــيلا ولم　　　يبلـــغ سمـــائي مـــدحك الطـــافرُ

أنا هنـــا وحـــدي الكمـــال الـــذي　　　يعنـــو لـــه وجـــه الســـما النـــافرُ

أميت هـذا الشـعب، أحييـه، لا　　　يمنعـــني مـــاضٍ ولا حاضــــرُ

أرزقـه إن شـئت مـن بعـض مـا　　　يسـديه نحـوي جوعـه الفـاغرُ

ويـــــزرع الأرض وأجـــــني أنا　　　مـا يشـتهي منهـا فمـي الآمـرُ

ملأتـــــه خوفـــا وأرهبتــــــه　　　فهـــو لعرشـــي طـائع شـاكرُ

ويعلق الوزير على هذا بالقول:

شـــعبٌ جبـــانٌ جثتَـــهُ رحمـــةً　　　لـــولاك مـــا دار بـــه خـــاطرُ

ويتفق الوزير والشاعر والنديم في تأليه الإمام وذم الشعب.

ويهدد الطاغية شعبه بقطع ألسنة الجاحدين.

ثم تخرج الحاشية فيطلب الإمام من عسكري مقرب منه دخول الجواري والنساء والحريم وكؤوس الخمر. فتأتي النساء ويبدأ الرقص والغناء ويُقَدَّم الشراب على أنغام موسيقى محلية.

وتبدأ حركة الثلايا في 1955. يرتبك الطاغية ويبدأ في حشد أعوانه.

ويبدأ المشهد الثاني بظهور الطاغية على جواده يتحدى الشعب بعد أن هزم حركة التمرد. وفي الميدان يظهر الثلايا وأعوانه مكبلين بالقيود مربوطين بالحبال والحشد يهتف في الميدان، وأعوان الطاغية يطالبون الثلايا بالاعتراف بجرمه، لكنه يدافع عن نفسه ويرد على الطاغية بشجاعة ويفضح ظلمه واستبداده ويدافع عن الشعب المظلوم ويتوعد الطاغية بزوال حكمه المستبد في النهاية قائلا:

مهما خَدَعتَ الشعب لا بد أن　　　يطويـــك يومـــا زحفـــه الهـــادرُ

ويأمر الطاغية سيافه بقتل الثلايا.

ويبدأ المشهد الأول من الفصل الثاني بنفس ديكور الفصل الأول والطاغية يتبختر من جديد ويفخر بسحق الثوار، والنديم والشاعر يتملقونه ويعِدُونه بكشف أعدائه، لكن الوزير يحذر من أن الأمر لم ينته ولا بد من الحذر. ويأمر الطاغية باستدعاء المنجِّم الذي يحضر ويحذره بأن له عدوا يهدد عرشه. ويفتش المنجم في

كتاب التنجيم لمعرفة هذا العدو وينصح بالاستتار عن الشعب خلف الحجب لأن الشعب هو العدو. فيختفي الطاغية وراء الحجب كما نصحه المنجِّم ويعهد إلى محضيته محسنة بأن تتولى الحكم نيابة عنه. ويتقدم عالِمٌ لنصح الطاغية وانتقاده فيأمر بسجنه وقتله.

ويبدأ الفصل الثالث في ممر أحد المستشفيات حيث يدخل الطاغية مع بعض أعوانه وحرسه ويتعرض لطلقات رصاص يطلقها عليه اللقية والعلفي ويظنان أنه مات فيعلنان أنهما اقتصا للشعب من ظالمه. لكنه يتظاهر بالموت ويصاب فقط. ويرفض العلفي الاستسلام وينتحر. ويحاكمون اللقية في محكمة صورية تحاول استجوابه دون أن تحصل على اعترافاته. فيقرِّعهم الطاغية ويأمر السياف بقطع رأس اللقية. ويظل الطاغية يتألم ويطلب المورفين للتخفيف من آلامه.

ويبدأ الفصل الرابع في قاعة من قاعات قصر البشائر والخليع البدر يلهو مع حاشيته والمظاهرات في الشوارع وبعض المتظاهرين في السجون. ويموت الطاغية. ويحل الخليع مكانه وتقوم الثورة. وتنتهي المسرحية.

وفي المسرحية الشعرية الثانية بعنوان "حريق في صنعاء" التي كتبت في سنة 1969، يبدأ المشهد الأول من الفصل الأول بمجموعة من الناس يشاهدون عرضا سينمائيا، وشاب اسمه أحمد وشابة اسمها نجوى في واجهة خشبة المسرح يتحدثان أثناء العرض السينمائي، وفي الفيلم المعروض مشهد غرامي. يتحدث الشابان عن الفيلم والحب ويتحدثان عن ظرفهما الصعب حيث يلتقيان خلسة من وراء العائلة، ويتدخل رجل دين لإنكار ما يحدث، عروض سينمائية ورقص وغناء ولقاء محبين، ويرى أن هذا سبب عدم نزول الأمطار. ويتجادل رجل الدين الجاهل المتزمت مع أحمد، وتشارك نجوى في النقاش فيهددها رجل الدين بالضرب ويدعو لإحراق صالة السينما وإغلاق دور السينما.

ويبدأ المشهد الثاني بأحمد ونجوى يتناقشان حول أفعال رجل الدين الجاهل الذي حرض الناس بالباطل. والشعب يشكو الجوع:

آلاف الناس على الطرقات

أطفال وشيوخ ونساء

يمشون بذل وشقاء

وفي المشهد الثالث في ساحة القصر الجمهوري رجلان يئنان من الألم والجوع، من جفاف الأرض:

يجتاحنا الجوع ويقتلنا الظمأُ

لم نأكل منذ يومين اثنين

جفت أكباد الناس

ومددنا ومددنا الكفين

ولا مغيث. يحسان بالغربة. وتجتمع الحكومة وتطلب من الشعب المساعدة. ويمتشع شيخ قبيلة خنجره ويرقص رقصة شعبية ويبدي أسلحته الكثيرة ويتبع من له مال. تخلى عن زراعة الأرض واحترف الحرب.

المال هو السلم

والحرب هي المال

وطلبت الدولة عونا من الخارج من باب إرضاء الضمير.

وفي الفصل الثاني يبدأ المشهد في غرفة حديثة، تاجر ورجل دين في حديث. يشكو رجل الدين من فعل شاب متهور يدين التجار ويحصي المساعدات لفضح التلاعب بها، هارب من الشرطة خوفا من أن تعتقله. ويجتمع التجار ويطلبون من رجل الدين أن يخطب ويدين الشاب، وحين خطب اتهمه بدخول السينما، دار الفسق، ويرش على المرأة الأسيت عقابا لها على دخول السينما، ويعتبر الشاب

والفتاة أصل البلاء، ويقول إنهما ضيعا الدين. ويتشاور رجل الدين مع التاجر. ويساومون الشاب ويحاولون رشوته.

وفي المشهد الثاني يظهر الشاب والشابة يتناقشان، يقول لها إن المناطق الأخرى جاءت إليه تطلب نصيبها من المساعدات في حين أن المجاعة في تهامة، ولذلك فهي أولى بالمساعدة القليلة المتوفرة. يسلطون عليه سيارة لتصدمه ثم جاءوا في الليل لنهب المساعدات وحُرِمت تهامة مما تحتاج إليه بشكل عاجل، وأخذوا توقيعات الناس على أن الشاب خائن، وسلطوا عليه البوليس الذي اقتاده إلى السجن. واتهموه بالتحريض على الحكومة.

وفي الفصل الثالث، المشهد الأول، يظهر الشاب والشابة وراء القضبان. تخاطبه قائلة:

لا يكفي أنك في السجن هنا مسجون

وبأنك في ليل الآلام ودمعك مدفون

ويبدأ يفكر في خطبتها والزواج بها. ويقول:

لم يبق معي في الناس أحد

الكل هنا ضدي

التاجر، رجل الدين

البوليس وحتى الرجل المسكين

ويعرض التاجر للشاب المال رشوة ويساومه بأنه سيزوجه من الشابة التي يحبها، ويعطيه نقودا من أجل أن يتنازل عن مبدئه.

وفي المشهد الثاني يتعهد الشاب مقابل الخروج من السجن والزواج من حبيبته بألا يتحدث عن شيء وأن يسكت، لكن حين طلبوا منه أن يجدد إسلامه رفض. إلا أنه يستسلم في النهاية ويقبل. أما الشابة فترفض الزواج منه.

هكذا يدين مُحَمَّد الشرفي في هذه المسرحية تكالب قوى الفساد على تسميم الحياة، واستخدام الدين والرشوة وشراء الذمم للتضييق على الشباب المتطلِّع ونشر الفساد. ويصل غياب الضمير والمشاعر الإنسانية إلى حد الاستحواذ على المساعدات التي يقدمها المحسنون لإنقاذ الفقراء من خطر الموت جوعا.

أكتفي باستعراض هاتين المسرحيتين الشعريتين باعتبارهما تؤسسان للاتجاه المسرحي لدى مُحَمَّد الشرفي. ويعد ما تبقى من إنتاج مسرحي في إنتاجه الأدبي تطويرا لهذا الاتجاه، وتوطيدا لقناعة الكاتب بضرورة اقتحام الحركة الثقافية في اليمن لفن المسرح، وتعبيرا عن قناعاته بأن الثقافة في أي بلد تبقى ناقصة دون وجود المسرح كتابة وإخراجا وتمثيلا. ولأن الشرفي اعتبر الكتابة للمسرح رسالة حياة، جاءت بقية المسرحيات وطبعها تحقيقا لهذه الرسالة الثقافية التي اختارها لنفسه ولمشاركته المميزة في الحياة الثقافية اليمنية. وقد عُرِضت بعض هذه المسرحيات على خشبة المسرح مثل مسرحية "الانتظار لن يطول"، ومسرحية "حريق في صنعاء"، ومسرحية "حارس الليالي المتعبة". وتولت فرقة المسرح الوطني عرض المسرحيات الثلاث على خشبة المسرح. أما مسرحية "الكراهية بالمجان" فقد عرضت على شاشة تلفزيون صنعاء.

الفصل الثامن

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

محمد عبدالولي

القصة القصيرة

وتطوير النثر الأدبي في اليمن

كان من الطبيعي أن تبدأ القصة القصيرة كنوع أدبي جديد في الصحافة في مدينة عدن التي شهدت، باعتبارها مستعمرة بريطانية وميناء حر كبير يخدم منطقة اليمن والخليج وشرق إفريقيا وتمر به حركة التجارة العالمية، ازدهارا تجاريا واتعاشا تنمويا نتج عنه نشأة التجمعات السياسية والنقابية والصحف المعبرة عنها أو القريبة منها، وأولها صحيفة فتاة الجزيرة التي كان يحررها بعض الوجاهات الثقافية في عدن، وكانت لها صلات بالشخصيات المستنيرة والمنفتحة على الثقافة البريطانية. وحتى المحاولة البسيطة التي قام بها أحمد البراق في صنعاء لكتابة قصة بعنوان "سعيد" كانت مرتبطة بظهور مجلة "الحكمة" (القديمة للتمييز بينها وبين "الحكمة" الجديدة التي أصدرها اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين في أوائل سبعينات القرن العشرين)، حين أراد المستنيرون في صنعاء، الذين كان عددهم قليلا، أن يمارسوا تأثيرهم ويعبروا عن أنفسهم من خلال هذه المجلة. لكن الحكمة توقفت وانتهى أغلب كتابها إلى السجون والإعدام. وهكذا كانت مستعمرة عدن بمينائها النشيط وحركتها التجارية المواكبة لحاجات حركة المستعمرات البريطانية، وما نتج عن ذلك من مؤسسات حديثة

ونقابات وهيئات سياسية، وانفتاح على الليبرالية الغربية وعلى الثقافة الحديثة ونشوء الصحافة، بيئة مواتية لمحاولات كتابة القصة القصيرة والرواية.

وقد حاول كثيرون خوض تجربة كتابة القصة القصيرة، البعض كتب قصة واحدة أو عددا قليلا من القصص ثم توقف لأسباب مختلفة. والبعض نشر مجموعة قصصية واحدة. وظلت المحاولات متقطعة إلى أن جاء مُحَّد عبدالولي ليختار منذ وقت مبكِّرٍ أن يربط حياته كلها بكتابة القصة، وليواصل تطوير النثر الأدبي عن طريق فن القصة.

ولد مُحَّد عبد الولي في حي من أحياء العاصمة الإثيوبية أديس أبابا من أم حبشية وأب مهاجر يمني. ووجد نفسه منذ الطفولة الباكرة ممزقا بين لغة أمه، لغة البيئة التي ولد فيها وعاش طفولته الباكرة من جهة، وأب "فقيه" يعلم أطفال المهاجرين اليمنيين القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية حرصا على المحافظة على هويتهم الثقافية العربية الإسلامية من الضياع في ثقافة أخرى يتعلمونها في الكتب المدرسية وفي الحياة العامة الإثيوبية، من جهة أخرى. وهكذا وجد مُحَّد عبدالولي نفسه يتحدث لغتين في الوقت نفسه، لغة أمه الإثيوبية ولغة والده العربي اليمني، ويجد نفسه أيضا ممزقا بين الانتماء لمجتمعين، مجتمع المهاجرين اليمنيين المحافظ أخلاقيا والمجتمع الإثيوبي المنفتح نسبيا.

وكان والده أحد مجموعة المهاجرين اليمنيين التي كانت على تواصل مع حركة الأحرار اليمنيين المعارِضة لمملكة الاستبداد في اليمن، تجمع التبرعات للمعارضة، وتولَّى أحد أعضاء هذه المجموعة تمويل شراء مطبعة من مصر نُقلت إلى عدن لتطبع بها حركة الأحرار صحيفتها الشهيرة "صوت اليمن" بعد أن كانت تطبع في مطبعة صحيفة "فتاة الجزيرة". وحين فشلت الحركة الدستورية في اليمن طلب الإمام أحمد من السلطات الإثيوبية رسميا تسليم مجموعة من المناصرين لحركة الأحرار من بينهم والد مُحَّد

عبدالولي، بحجة أنهم شاركوا في قتل والده الإمام يحيى أو تواطأوا مع من قتلوه[180].
وقد قامت هذه المجموعة التي على صلة بالأحرار بإنشاء مدرسة الجالية اليمنية في أديس أبابا لتعليم أطفال المهاجرين اللغة العربية ومبادئ التربية الإسلامية حفاظا على هويتهم العربية الإسلامية، إلى جانب المواد العلمية الأخرى التي تدرَّس في المدارس الإثيوبية.

وإذا صحت الرواية التي تقول إن مُحَّد عبدالولي قد ولد سنة 1939، فإنه يكون قد بدأ تعليمه الأولي على أبيه ثم عاد إلى اليمن سنة 1946، وهي السنة التي أنشأت فيها حركة الأحرار المعارضة "الجمعية اليمانية الكبرى" في عدن، وكان والده من مناصريها في إثيوبيا. ولنا أن نتصور معاناة الطفل مُحَّد عبدالولي حين عاد إلى بلد لم يعرفه من قبل وليس له فيه زملاء طفولة ولعب، وبعيدا عن أمه، نبع الحنان الأول في حياة أي طفل. وكان سفره في السنة نفسها الني أُنشِئت فيها مدرسة الجالية اليمنية في إثيوبيا ولذلك لم يلتحق بها إلا بعد عودته من اليمن. فقد التحق بها سنة 1949، وعمره نحو عشر سنوات. وقد كان من الطلبة الناهين المتفوقين في المدرسة ولاقى التكريم كل سنة، وهو ما شجعه على مواصلة التعليم وعدم الانصراف إلى أي عمل يبعده عن الدراسة.

وفي سنة 1954 حصل من حركة الأحرار، التي نهضت من رمادها وشكلت الاتحاد اليمني، على منحه للدراسة في مصر ومعه مجموعة من الطلبة الذين سيكونون فيما بعد من العاملين للتحرر من ظلام القرون الذي يهيمن على اليمن، ونجوما في المجال الثقافي، مثل عمر الجاوي وأبو بكر السقاف وخالد فضل منصور وأبو بكر باذيب. ومن الملاحظ أن المنحة الدراسية التي حصلوا عليها كانت إلى الأزهر وأنهم أقاموا في مدينة البعوث الإسلامية في القاهرة، وهو ما يرضي والد مُحَّد عبدالولي، الفقيه الحريص على تنشئة ابنه تنشئة عربية إسلامية. لكن تأثير الأزهر عليه وعلى زملائه

[180] علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار ...

غير ملموس إلا إذا كان من حيث التمكن من اللغة العربية والإلمام بالثقافة العربية الإسلامية.

وحين وصل مُحَمَّد عبدالولي إلى مصر للدراسة كانت القاهرة في حالة غليان سياسي وثقافي. فهي السنة التي تحقق فيها جلاء القوات البريطانية من مصر وزوال آخر مظهر من مظاهر الاستعمار البريطاني لمصر. وهي أيضا السنة التي حُسِم فيها الصراع بين قيادة الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة 23 يوليو 1952 وأنهوا الملكية وأقاموا الجمهورية على أنقاضها، لصالح صعود نجم جمال عبدالناصر بدعوته إلى القومية العربية، وبمساهمته سنة 1955 في مؤتمر باندونج، في إندونوسيا، لتأسيس حركة عدم الانحياز إلى جانب الزعماء أحمد سوكارنو، رئيس اندونوسيا، وكوامي نكروما، رئيس غانا، وأحمد سيكوتوري، رئيس غينيا، وجواهر لال نهرو، رئيس وزراء الهند، وجوزيف بروز تيتو، رئيس يوغسلافيا، وحتى شو إن لاي، رئيس وزراء الصين، وبذلك أصبحت حركة عدم الانحياز حركة عالمية ذات وزن في الشئون الدولية. وتُوِّج هذا الصعود لمكانة مصر ولزعامة جمال عبدالناصر بتأميم قناة السويس سنة 1956 واستعادة مصر للسيادة عليها، ونجاح الدبلوماسية المصرية في التصدي للعدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على بور سعيد وانسحاب القوات المعتدية. وكان للاتحاد السوفيتي السابق ولحركة عدم الانحياز دور مهم في دعم صمود مصر وتصديها للعدوان.

وكان المتوقع أن يقع الطالب المراهق مُحَمَّد عبدالولي وزملاؤه إما تحت تأثير التيار الإسلامي بفعل دراسته في الأزهر أو تحت تأثير الحركة الناصرية التي كانت في أوج صعودها حتى حققت أكبر إنجازاتها بتوحيد مصر وسوريا وقيام "الجمهورية العربية المتحدة" سنة 1958، محققة حلم أجيال من القوميين العرب بوحدة أبناء الأمة العربية في دولة واحدة وتحت علم واحد على أمل تحقيق الازدهار الموعود لترفع الأمة

العربية رأسها بين أمم العالم، والأهم استعادة فلسطين وعودة شعبها الذي شُرِّد من دياره.

لكن الطالب مُحَمَّد عبدالولي وصحبه فاجأ الجميع بانتمائه لليسار، واقترابه من الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني في مصر المعروفة اختصارا ب-"حدتو"، وهي حركة يسارية سرية شارك ضباط منتمون إليها في تنظيم الضباط الأحرار الذي فجر الثورة في مصر، ومن أشهرهم خالد محيي الدين، ويوسف صديق (الذي اقتحم مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية قبل أن يصل زملاؤه الضباط الآخرون)، وأحمد حمروش، وغيرهم. إلا أن هذه الحركة وقفت مع مُحَمَّد نجيب، الذي اختاره الضباط الأحرار ليكون أول رئيس للجمهورية في مصر بعد الثورة، وعارضت حل الأحزاب وفرض الحكم العسكري، ورأت في ذلك نزعة نحو الحكم الفردي والدكتاتورية.

ومن حيث الدراسة، توجد أخبار تقول إن مُحَمَّد عبدالولي في الوقت الذي كانت منحته للدراسة في الأزهر وسكن في مدينة البعوث الإسلامية، قد درس في مدرسة المعادي الثانوية، وفي هذا شيء من التناقض. ولعل مُحَمَّد عبدالولي قد قبِل المنحة للدراسة في الأزهر ليسهل عليه الخروج من اليمن والحصول على منحة تمكنه من مواصلة الدراسة في الخارج، وحين وصل إلى مصر بدأ محاولة التحويل من الدراسة الأزهرية إلى الدراسة في المدارس النظامية، متأثرا بما كانت حركة الأحرار تطالب به من دراسة ما سمته "العلوم النافعة" التي تساعد اليمن في بناء الحاضر والمستقبل والتحرر من الجهل والفقر والمرض والتقدم صناعيا وزراعيا وفي جميع المجالات، وكانت تقول إن الدراسة الدينية قد تواصلت في اليمن بشكل من الأشكال طوال التاريخ الإسلامي ولكن البلاد حُرِمت من الانفتاح على العلوم الأخرى وآن الأوان للتعويض عما فات اليمنيين من تعليم حديث يواكب مسيرة العصر.

وقد كان قبول المنحة في تخصص معين والمحاولة منذ البداية لتغيير التخصص شائعا بين الطلبة اليمنيين، إذ كانت المنحة في أي تخصص جواز مرور للخروج من

سجن العزلة والحرمان من التعليم، والسعي بعد الخروج من اليمن لتحقيق الذات من خلال دراسة التخصص الذي يرغب الطالب في دراسته ويناسب إمكانياته ويستجيب لطموحاته.

والواقع أن انتماء مُحَّد عبدالولي لليسار في مصر قد أتاح له الانفتاح على الثقافة الحديثة. فقد كان أغلب المثقفين المصريين في منتصف خمسينات القرن العشرين، حين بدأ تفتحه السياسي وتكوينه الثقافي، من خريجي المدارس الفرنسية في مصر وعلى صلة بالثقافة العالمية، وبخاصة الفرنسية، ولهم حضور كبير في الشعر والقصة والمسرح والفن التشكيلي والنقد الأدبي والفني، وفي الصحافة، وبخاصة الصحافة الثقافية. واضطر الضباط الأحرار للاستعانة بالبارزين منهم في المؤسسات الصحفية والثقافية. ففي مجال الشعر الجديد ظهر صلاح عبدالصبور الذي نشر أول مجموعة شعرية من الشعر الجديد سنة 1957 بعنوان "الناس في بلادي"، وأحمد عبدالمعطي حجازي الذي نشر أول مجموعة شعرية له من الشعر الجديد بعنوان "مدينة بلا قلب" سنة 1959. وبالمثل كان هناك في المسرح ألفرد فرج، ونجيب سرور، وفي القصة القصيرة يوسف إدريس، ولويس عوض في النقد الأدبي والشعر الحر والترجمة، ومحمود أمين العالم وعبدالعظيم أنيس في النقد الأدبي وغيرهم.

وفي هذه الفترة برزت مجموعة من زملاء مُحَّد عبدالولي في الدراسة في القاهرة وفي حركة اليسار، مثل مُحَّد أنعم غالب، وعبده عثمان، وإبراهيم صادق في الشعر الجديد أيضا، وعمر الجاوي وأبوبكر السقاف في النثر الأدبي، وهي المجموعة التي تولت قيادة "مؤتمر الطلبة اليمنيين الدائم في مصر" وأصدرت بيانا ما يزال يعد وثيقة تاريخية تجاوزت غموض حركة الأحرار المعارِضة التي كانت على الرغم من إيمانها بوحدة اليمن ترى عدم الإفصاح علنا عن مطالبتها بوحدة اليمن ووحدة النضال لتحرير اليمن من الاستبداد في الشمال ومن الاستعمار في عدن والمحميات خوفا من أن تفقد حركة

الأحرار المعارضة منفذها الوحيد نحو الداخل لتسريب منشوراتها ورسائلها ومناضليها، وميدانها الوحيد للتواصل مع جماهيرها في مستعمرة عدن وفي الداخل.

ولم يكن لدى الطلبة اليساريين الذين كانوا يسعون للتميز عن حركة الأحرار كل هذا القدر من الحسابات التكتيكية ومن الضرورات العملية، وكانوا معنيين بتسجيل الموقف المبدئي الذي يتفق معه الغالبية الساحقة من اليمنيين، حتى من أعضاء حركة الأحرار المعارِضة وقياداتها. ولذلك ظل هذا البيان وثيقة تاريخية مهمة وتمسكت به المجموعة اليسارية التي كتبته وأصدرته وناضلت في سبيل تحقيقه، وكان عمر الجاوي أكثر من اعتبره رسالة حياته كلها حتى غادر الحياة دون أن يتخلى عن قناعاته الوحدوية على الرغم من التراجعات والانهيارات السياسية التي شهدتها البلاد.

وكان متوقعا أن يصل هذا الخيار السياسي الذي اتبعه مُحَمَّد عبدالولي وزملاؤه إلى الاصطدام بالمخابرات المصرية، وهو ما أدى إلى طردهم من مصر وحصولهم فيما بعد على منحة للدراسة في الاتحاد السوفيتي. لكنه لم يغادر مصر إلا بعد أن كان قد اكتسب تكوينا سياسيا وثقافيا متينا، وحدد خياراته الثقافية التي سترافقه طوال حياته، وعلى الأخص، كان قد اكتشف قدراته الأدبية والفنية، وقرر أن يكتب القصة القصيرة والرواية، وأن يسهم في تطوير النثر الأدبي والفني من خلال توطيد مكانة القصة القصيرة في حركة الأدب في اليمن. ومن يقرأ القصص التي كتبها في النصف الثاني من الخمسينات يجد أن الفن القصصي عنده كان قد تأسس واكتمل، وأن القصص التي نشرها فيما بعد حين أتيحت له فرص النشر، واختارها مما كتب من قصص حتى تلك الفترة، لم تكن المحاولات الأولى، ففيها من النضج ما يوحي بأن محاولات أخرى غيرها قد كتبت ولم ينشر منها إلا ما اقتنع بأنها في مستوى يستحق النشر.

ولم يغادر مصر إلا بعد أن كان قد قرأ في الأدب، سواء باللغة العربية أم باللغة الانجليزية، أم مما ترجم من الأدب العالمي إلى اللغة العربية. وكان قد تعرَّف على

قصص تشيخوف القصيرة، وما ترجم منها باللغتين العربية والانجليزية، وعلى الأدب الروسي من مكسيم جوركي، وتولستوي، ودستويفسكي، وتوجنيف، وعلى الموسيقى الكلاسيكية وعلى الأخص بتهوفن، وموزارت، وباخ، وتشيكوفسكي، وختشادوريان، ورحمانينوف وغيرهم.

ولذلك مع أن المنحة التي حصل عليها للدراسة في موسكو كانت في الهندسة المدنية، وجد نفسه منشدا مرة أخرى للتحويل للدراسة في معهد مكسيم جوركي للأدب على أمل دراسة الأدب الروسي في مصادره. لكن الإقامة في موسكو والدراسة في هذا المعهد لم تدم طويلا، كما أن لغة الأدب فوق اللغة وليس من السهل إجادتها بسرعة. ويتضح من استعراض القصص التي كتبها خلال تلك الفترة أنه قد ركز جهوده على إجادة لغة السرد وتصوير الشخصيات وتحسين رسم الحبكة القصصية وتطوير فنه الأدبي.

لقد كان بحق مغامرا كبيرا يعيش غربة وتمزقا بين انتمائين، إلى أثيوبيا مهد طفولته وبداية حياة المراهقة ومعها مشاعر أمه والثقافة التي تنتمي إليها، وأصله اليمني الذي كان على صلة متينة به من خلال ارتباط والده ليس فقط بأرض آبائه وأجداده وحضارتها العريقة، بل أيضا من خلال اختيارات والده السياسية المنتمية إلى الأحرار المعارضين للطغيان والاستبداد. لكنه في النهاية تماهى مع قضية شعبه المعذب، واندمج بمعاناة المهاجرين اليمنيين المشردين في كل أرض وتحت كل سماء، وتبنى التعبير عن معاناة اليمنيين في الداخل، واستولت اليمن ومعاناتها وبؤسها على تفكيره ومشاعره. وزاده وعيه اليساري إحساسا بهذه القضايا كلها. ودفعته روحه المغامرة إلى أن يجد نفسه منذ سن مبكر يحتضن قضايا عالمية كانت في صلب الثقافة اليسارية، مشاركا ليس فقط في الكفاح لتغيير وطنه إلى الأفضل، وإلى الوقوف بجانب قضية أمته العربية، بل أيضا أن يلقي بنفسه في معترك العمل لتغيير العالم، لا يكتفي بمعرفة العالم

الذي خرج من بلاده للتزود بالمعرفة والتعرف عليه، بل يطمح ويعمل لتغيير هذا العالم وبناء عالم جديد.

وكان التحدي الثقافي الآخر في حياته اختياره منذ سنين المراهقة أن يتبنى موضوع تأسيس وتعميق فن القصة القصيرة والرواية في الحركة الثقافية اليمنية، ليبني على غير مثال سابق تجربة قصصية جديدة تضعه في مصاف القصاصين العرب الرواد والقصاصين العالميين مثل تشيخوف. وهي بحق مهمة عسيرة وصعبة على من لديه تجربة طويلة في الإبداع القصصي ما بالك بشاب كان ما يزال في مقتبل العمر ويحمِّل نفسه مسئولية ثقافية يثقل بها كتفه الغض. وتجلت العبقرية القصصية والأدبية لمحمد عبدالولي منذ وقت مبكر في حياته، فأولى الصص التي رضي عنها واختار نشرها تعود إلى سنة 1958، حين كان سِنُّه لا يتجاوز تسعة عشر سنة، وهو سن مبكر بالنسبة لكتابة قصص ذات مستوى متقدم من حيث تقنية فن القصة القصيرة.

وقد اختار منذ البداية قضيتين رئيسيتين ليركز عليهما فنه القصصي، الغربة التي يعيشها واقعيا ونفسيا وقضية الأرض والمرأة ومعاناتهما معا. ومن هنا جاء تعاطفه وتعبيره عن قضايا المظلومين والمقهورين والفقراء ومسلوبي الحرية والمضطهدين، ودمج بين قضية المرأة وقضية الأرض، لأن الظلم الواقع عليهما يتساوى ويتداخل بحيث يمكن اعتبار المرأة رمزا للأرض واعتبار الأرض رمزا للمرأة وكفاحها من أجل الحرية والعدالة. فالمرأة تنجب أبناءها وتلقيهم في المنافي وتعاني من الوحدة والحرمان من الرجل الإبن والزوج، وتعاني الأرض من هجرة أبنائها فتتعرض للإهمال أو تلقي بالمسئولية على كاهل المرأة التي تضحِّي وحيدة من أجل الجميع.

الأرض يا سلمى

نُشِرت هذه المجموعة من القصص القصيرة سنة 1966، ووصلت في نهاية الستينات إلى أيدينا نحن المراهقين المحتاجين إلى مدد ثقافي نشعر أنه ينتمي إلينا وإلى مجتمعنا ويعالج قضايانا، فتلقيناها باندهاش ورغبة في القراءة والتفاعل مع ما تطرح من موضوعات. وإذا كنا في تلك الفترة لا نملك مؤهلات ثقافية تمكننا من تقدير هذه المجموعة القصصية حق قدرها، فإن مجرد كونها كتبت بقلم كاتب يمني جديد نسمع عنه لأول مرة قد كان مصدر اندهاشنا وفخرنا بأن الجدب الثقافي الذي نشعر أن مجتمعنا يعاني منه قد بدأ ينتج بشائر التفتح الأدبي والثقافي، وفي نوع أدبي كان ما يزال مجهولا وغير معروف بقدر معرفة الشعر المتربع على عرش الأدب وديوان العرب طوال القرون الماضية.

تتكون المجموعة من ثلاث عشرة قصة قصيرة، كتب مُحَمَّد عبدالولي ثلاثا منها سنة 1958 حين كان عمره تسعة عشر سنة، وهي "امرأة" و"اللطمة" و"الأرض يا سلمى"، واثنتان أخريان سنة 1959، هما "طريق الصين" و"الغول" التي على الرغم من عدم ذكر سنة كتابتها يشير عبدالعزيز المقالح إلى أنه قرأها سنة 1959 منشورة في صحيفة "الطليعة" الأسبوعية التي كان يحررها عبدالله باذيب وصدرت منها أعداد قليلة في تعز عقب محاكمته وطرده من مستعمرة عدن[181]. وتعود قصة "أبو رُبِّيه" إلى سنة 1961، في حين لم يذكر تاريخ كتابة بقية القصص السبع.

وإذا كان من المؤكد امتلاك مُحَمَّد عبدالولي، منذ كتابته للقصص الأولى، لفن كتابة القصة القصيرة ومعرفته لأسرار فنها ولتقنيتها ولغتها وأخيلتها ورسم شخصياتها،

---

[181] عبدالعزيز المقالح، قراءات في الأدب والفن، ص. 149.

وهذا ما تشهد عليه أولى القصص التي كتبها وهو بعد ما يزال مراهقا يمتلك موهبة كبيرة، يهمنا هنا تناول أولى القصص التي كتبها وهو بعد طالب في سنتي 1958 و1959 في القاهرة، وتلك التي كتبها في سنوات دراسته في موسكو، لنلمس مقدار تمرسه بفن القصة بمرور الزمن، واكتشافه لأسرار لغة القصة وتقنيتها الفنية، وتطور مسيرته الإبداعية ونضجها مع مزيد من الاطلاع والعمق في فهم هذا النوع الأدبي وتراكم التجربة وما ينتج عنه من نضج.

ولعل من المفيد البدء بالاقتراب من القصص السبع الأولى التي كتبها مُحَمَّد عبدالولي واقتنع بنشرها في مجموعته الأولى "الأرض يا سلمى" وأراد تقديم نفسه من خلالها باعتباره الكاتب الذي اختار أن يحضر في حركة الثقافة في اليمن من خلال هذا الفن دون غيره. لم يحاول، مثل غيره من الكتاب من زملائه، كتابة الشعر أو الاقتراب منه إلا من خلال استيحائه في صياغة القصص. لقد اختار منذ البداية أن يكون كاتب قصة ورواية فقط، وإن حاول كتابة المسرح كما في كتابته لمشهدين مسرحيين، الأول بعنوان "الشيخ بشر بن الحافي" والمشهد الآخر بلا عنوان، ونشرا في مجموع أعماله بعد وفاته بزمن طويل، لكنهما كما يبدو كانا من محاولات البحث عن تنويع إنتاجه الأدبي أو نثره الأدبي والفني. إلا أنه كما يبدو لم يعد إلى تلك المحاولة، وقرر أن يؤكد حضوره ككاتب قصة ورواية. ولأننا هنا بصدد تناول مشاركته في تطوير النثر الأدبي عن طريق كتابة القصة القصيرة، سنركز على مساهمته في هذا النوع الأدبي الذي وضع فيه لبنات أصيلة جعلته كاتبا مهما في تاريخ اليمن المعاصر.

أطول قصص مجموعة "الأرض يا سلمى" الثلاث عشرة بعنوان "على طريق أسمرا" حيث تستغرق عشر صفحات. وأقصرها بعنون "الدرس الأخير" ولا تتجاوز صفحتين ونصف، وليست مؤرخة إلا أنه يتذكر فيها أيام المراهقة في مدرسة الجالية اليمنية في أديس أبابا.

ولن أتجاوز في هذا التناول ابتداء المجموعة بقصة "امرأة" التي كتبها في سنة 1958 وعمره تسعة عشر عاما، وتصور مجموعة من المراهقين من أبناء المهاجرين اليمنيين في أديس أبابا يتسكعون في حواري اللهو والمتعة، يندهشون أمام مظاهر تصدم مشاعرهم وصبواتهم في سوق المتعة، أكبرهم في التاسعة عشرة من عمره، يتحدث عن النساء لكنه بسبب الحرمان يرتجف كلما سمع صوت امرأة، والآخر أصغر منه يرتجف أيضا ويحملق باندهاش وانجذاب نحو حوانيت اللذة، وثالثهم سمين ضخم سنه ست عشرة سنة يلهث وراء المجموعة ويتصبب عرقا بخليط من الصدمة والرغبة، وأصغرهم الراوي ذو الأربعة عشر ربيعا، ينظر في اتجاه الحانات في فضول لكن جسمه يرتجف حين يسمع قهقهات النساء وأنغام الموسيقى الصادرة من حاناتهن، ويرى ظلال أجسادهن.

"كنا نسير يجذبنا سكون الليل وظلام الأزقة التي نجتازها، وصوت أقدامنا وهي تغوص في الوحل الذي صنعته أمطار الصباح. كانت قهقهات السكارى وبائعات الهوى وأضواء المصابيح التي تنبعث من حانات الشراب تثير الدماء الحارة في عروقنا بالرغم من البرد الذي يخز الأجسام". هكذا يبدأ الوصف بتكثيف وتركيز وحيوية. وكان هؤلاء المراهقون يتخفون لتجنب أن يراهم من يعرفهم حتى لا تثار الشكوك حول أخلاقهم في الوسط اليمني المهاجر المحافظ. ويقابل بين حرارة الرغبة في أعماقهم وشدة برد المكان فتنبعث فيهم رعشة البرد وصوت الرغبة. وحين اقترب منهم شبح امرأة من بعيد لم يستطيعوا أن ينالوا منها شيئا. كان الأمر بالنسبة لهم مجرد مغامرة لم ينالوا منها سوى الحلم بملامسة جسد امرأة وذكرى التوق إليها وإلى ظلال شفتيها على شفاههم. وظلوا فيما بعد يحلمون بها لأنها، على الرغم من ملامسة التجربة، مجرد حلم بامرأة يتبادلون معها الحب والحنان.

والقصة الأخرى المؤرخة بسنة 1958 بعنوان "اللطمة" تصور معاناة طفل ابن مهاجر يمني، يدرس في مدرسة الجالية اليمنية ويعمل مع والده في دكان متواضع في أديس أبابا لبيع الأدوات المدرسية، يقترب منه رجل إثيوبي مصاب بالسل. يقف الطفل خائفا من عدوى السل ومن عقاب والده له باللطم، وحين تلقى اللطمة لم يأبه بها لأنه كان قد تعود على عقوبة الضرب لكنه يتخوف أكثر من إبلا غ والده بأن المدرسة تطلب من كل طالب شراء الزي المدرسي وإلا تعرض للعقاب. وفي صباح اليوم التالي يشعر الأب بالحنان ويمرر أصابعه بحنان فوق رأس الابن الذي امتلك حينذاك الشجاعة لإخبار والده بطلب المدرسة ويذهب معه لشراء المطلوب. وهي قصة تصور العلاقة بين أطفال المهاجرين اليمنيين وآبائهم والمستمدة من عادات المجتمع اليمني الذي جاؤوا منه، واستخدام الضرب بمناسبة ودون مناسبة لعقاب الطفل مما يجعله يخاف من والده ويعجز عن مصارحته بما يريد. لكن حنان الأبوة يتغلب في النهاية ويضع نهاية سعيدة للقصة المكفهرة وللعلاقة القائمة على الخوف.

إنها قصة تجمع بين تناقضات شخصية الأب المكدود تحت وطأة العمل واستغراقه في مضغ القات وتكشيرة وجهه وقسوة عقابه لابنه، ثم تبدر منه لحظات حنان يكون فيها أبا حنونا يعطف على ابنه ويستجيب لاحتياجاته.

يستمد مُحَّد عبدالولي المواد التي استخدمها في بناء القصتين السابقتين من تجربة بداية سن المراهقة في أديس أبابا. لم تكن تجربته بعد قد لامست الواقع اليمني إلا من خلال زيارة قصيرة في الطفولة أو من خلال مجتمع المهاجرين إلى الحبشة. ولذلك سيستمد مادة القصة التالية وأفكارها من حياة الغربة والاغتراب.

لكن القصة الثالثة المكتوبة سنة 1958 هي قصة "الأرض يا سلمى" التي تحمل المجموعة كلها عنوانها. وتصور معاناة المرأة الأرض أو الأرض المرأة من الغربة وترك الناس لبلادهم في عناية النساء هربا من الظلم والفقر والمعاناة، وبحثا عن لقمة عيش كريم. يطول انتظار سلمى لزوج غاب بعد أن ترك في أحشائها طفلا لم يره بعد.

تصور المرأة في البداية طفلة فَرِحة بالزواج تنتقل إلى بيت الزوجية، فتنتقل من الأعمال الشاقة في بيت والدها على أمل أنها ستجد الراحة والهدوء في بيت زوجها، فإذا بها تنتقل إلى أعمال شاقة في خدمة أسرة زوجها. تعمل في البيت وتساهم في العناية بالأرض، وتهتم بالحيوانات، وتجلب الماء، وتغسل الثياب. ويزداد عذابها بغياب زوجها بعد أن ترك في أحشائها طفلا. وتمضي السنوات دون أن يعود وتساورها الخشية من أن يكون قد تزوج وبنى حياة جديدة في الغربة وتركها للشقاء وتربية طفله الذي لم يره بعد. ويراودها الحب لرجل آخر يملأ حياتها لكنها لا يحق لها طلب الطلاق والتمتع بحياتها، وتخشى على طفلها من الضياع، لأن الرجال لا يسمحون لها بالتحرر من زوج هجرها وغاب دون اكتراث بحياتها التي تضيع في الشقاء وتعاني من العمل في الأرض والاهتمام بحياة أسرة زوجها وتربية طفله. وتخشى إذا طُلِّقت أن تبقى دون زواج مثل كثيرات غيرها بقين عازبات بعد طلاقهن. وحتى لو تزوجت سيتركها زوجها الجديد ويهاجر وستبقى وحيدة.

صوت يناجيها ويقول لها أن ليس لها من خيار سوى الاهتمام بالأرض، فهي قدرها وحياتها وخيارها الوحيد. "أرضك يا سلمى. ذرفت عليها الدم والجهد، ومنها تأكلين طوال الأعوام. ومنها يأكل ابنك ويترعرع فوق ثراها. وحتى زوجك حين يعود يأكل منها. وأنت، أنت من يُخرِج خيرات هذه الأرض.... أليست الأرض حياتك. وحياة ابنك الذي سيعرف عندما يكبر مدى الجهد الذي بذلته؟... وغاب الصوت وسلمى تنظر حواليها في ذهول ومياه الأمطار تتساقط في نغمات حالمة على الأرض فتنساب جداول إلى مدرجات الزراعة وتعانق جذور الزرع الأصفر وتهبه الحياة"[182].

تلخص هذه القصة نظرة مُحَّد عبدالولي إلى حياة اليمنيين، ومعاناتهم في الغربة وفي الوطن، ومعاناة المرأة وقد تركها الرجال لوحدها تعتني بالأرض وبأطفالهم وتشردوا في آفاق الأرض بحثا عن خلاص لهم من الفقر والظلم. ولا يرى لهم من مخرج سوى

[182] محمد عبدالولي، الأعمال الكاملة، ص. 58 . 59.

العناية بأرضهم واستخراج ثرواتها والعناية بها، فهي ملجأهم الوحيد والحل المتاح لوضع نهاية لتشردهم ولفقرهم ولتربية أطفالهم على العناية بها. الأرض هي الحل الوحيد المتاح لهم ومصدر الخير. والعمل فيها خير من التشرد والتمزق والمعاناة. على أرضهم يلتم شملهم ويحظى الأطفال بحنان آبائهم وتحظى النساء بالحب الذي حرمن منه وبالسعادة مع أزواجهن وأطفالهن ويضعن نهاية لسنوات الانتظار والحرمان والعذاب.

يختار الكاتب الجانب الذي يمحِّضُه كل تعاطفه: إنه الأرض والمرأة، وكلاهما رمز لوطن أُرغِم أبناؤه على تركه والتشرد بعيدا عنه مع أنه مصدر الخير والاستقرار والأذرع المفتوحة لاحتضان الجميع، لاستقبال فرح المطر يتدفق على حقول تنتظر أبناءها وتتوسل إليهم أن يعتنوا بها ويكسبوا لقمة عيشهم منها، وأن يبقوا على ثراها. ولعل هذا سبب أن مُحَمَّد عبدالولي أطلق عنوان هذه القصة على مجموعته القصصية الأولى. ففيها بدايات كتابته للقصة وفيها نظرته إلى الحياة والحب والغربة، وموقفه من المرأة ومن معاناتها.

ونتناول فيما يلي قصتين كتبتا عام 1959 الأولى بعنوان "الغول" والأخرى بعنوان "طريق الصين".

وكما أشير آنفا، يقول عبدالعزيز المقالح إن قصة "الغول" نُشِرت في صحيفة "الطليعة" التي صدرت منها أعداد أسبوعية في تعز سنة 1959، وهي السنة التي طُرِد فيها مُحَمَّد عبدالولي ورفاقه من مصر قبل أن يذهبوا في منحة للدراسة في موسكو. وفيها يروي حكاية أسطورية عن غول استوطن غارا في الجبل أخاف السكان، لا يدرون من أين أتى ولماذا وكيف؟ رأى الجميع أشلاء ضحاياه دون أن يشاهدوه، وأصبح ملك الجبل بلا منازع، يغزو القرى ويفترس الماشية ولا يقف في وجهه أحد. يستبيح كل شيء والناس مستسلمون له بلا مقاومة تذكر. وتزايدت الحكايات عن جبروته وقسوته، وهجر الناس الجبل خوفا منه.

لكن امرأة فقيرة وعادية اسمها هند لا يهتم بوجودها أحد ولها طفل يتيم يبلغ من العمر عشر سنوات، من زوجها الذي مات مهاجرا في البحار البعيدة وتركها وحيدة. باعت كل شيء لإنقاذ ابنها وأوشكت أن تبيع نفسها، لكن القرى لا تبيع الجمال في سوق البغاء. ورادوها حلم أن دواء ابنها قلب ذلك الغول المخيف. حزمت كل ما تملكه أم من قوة في دفاعها عن ابنها وتوجهت نحو باب المغارة لا تملك سوى شجاعتها وخوفها على ابنها، وصارعت الغول الرهيب بشجاعة. "كانت الشمس تشع بقوة، والأشجار تتراقص في طرب، والعصافير الصغيرة على الأغصان تغرد بشجو وهي ترى الانسان يتحدى قدره ويحطم الأسطورة التي صنعها بيده"[183]. وأصابت الدهشة حتى الغول المرعب نفسه، وحين سألها أجابته بصرحة متناهية بأنها ما جاءت إلا لتعود بقلبه دواء لابنها الوحيد. زاد غيضه وغضبه وحدثت معركة بين الطغيان المفترس وبين جنون رغبة الأم في إنقاذ طفلها. صرخت فيه: "من أنت حتى يخافك البشر؟ من أنت حتى نضع رقابنا تحت قدميك؟". وتواصل الصراع المستميت من أجل الحياة. وانهزم الغول، و"غنت الطبيعة أنشودة الخلاص، أنشودة الروعة، ورقص الجبل رقصة شعبية على أنغام هبوب الريح"[184]، وصدحت العصافير بأغاريدها ومدت الشمس يدها الذهبية تحيي انتصار هند، وهكذا انتصر الحب وحنان الأم على قسوة الغيلان.

تكاد قصة الغول أن تحكي قصة الوجود كله، تنظر إلى الإنسان الذي أوجد من يستعبده من القوى الخارقة للطبيعة، ومن الطغاة والمستبدين والغيلان، لكن الانسان بإرادته وحده وبقوة عزيمته يستطيع أن يثبت لنفسه وللغيلان من كل نوع أنه يستطيع التغلب عليها والتحرر من سطوتها وبناء حياته بنفسه على نحو يستجيب لحاجاته ولطموحاته وأشواقه.

---

[183] نفسه، ص. 15.

[184] نفسه، ص. 17.

أما قصة "طريق الصين" التي كتبت في السنة نفسها فتحكي قصة الشباب الصينيين الذي جاءوا من وراء البحار ليشقوا ويعبِّدوا الطريق الوحيد في مملكة الظلام في آخر أيامها لتربط بين البحر الأحمر وعاصمة البلاد، يكدون ويتعبون ويهدُّون الجبال الصماء ويسمحون لسكان البلاد بالتعرف على بعضهم البعض، لأهل الساحل أن يروا الجبال ولسكان الجبال الوعرة الشاهقة بأن يداعبوا أمواج البحر بأقدامهم وأطراف أصابعهم. يندهشون وهم يشاهدون الشباب الصينيين معلقين بالحبال يتسلقون قمم الجبال ويدكون الإكام والمرتفعات ويذللونها لتسير المركبات عليها ولا يسقطون من الشواهق ودون أن يخافوا من الارتفاعات، ويوفرون فرص العمل بأجر لشباب اعتادوا على العمل شبه المجاني في مزارع الاقطاعيين. ويستمعون إلى تفجير الصخور وتسخيرها لحاجة الانسان للانتقال السريع. وتنشأ أخوة في العمل بين شاب صيني وعامل يمني بعد أن جعلهما غبار تفجير الصخور والجبال والانهماك في تمهيد الطريق يتشابهان لا يستطيع أحد التفريق بينهما. غطاهما الغبار ووحَّدهما العمل لتذليل الصعاب التي تعترض إنجاز مهمة التوصيل بين بني الانسان. وكان لا بد أن ينزاح الجبل ويتم دكه وإسقاطه لتمضي الطريق وتُنجز المهمة التي يعملان لإنجازها. ولأول مرة يَعرِف علي التهامي أن الإنسان أقوى من الجبال وأن الانسان يستطيع دكها وكسر غرورها متى أراد. وتصبح الطريق التي سماها اليمنيون "طريق الصين" جسرا يربط بين الجبل والبحر، بين علي التهامي وليو الصيني برباط الصداقة، وبين صنعاء وبكين. لقد كان الطريق الوحيد الذي تعبَّد في أواخر أيام مملكة الظلام والعزلة، وضرب المثل لليمنيين على أن العزلة والانعزال وراء الجبال الوعرة والانفصال التام بين البحر والجبل أمر لا يمكن أن يظل إلى الأبد، وأن الانسان متى أراد وبذَل الجهود الضرورية أخضع هذه الجبال الوعرة شديدة الانحدار لإرادته الصلبة وقهرها. بقهر الجبال قرُبت المسافات بين البحر والجبل وقرُب الفرج وحلت الجمهورية خلال سنة، وأمكن نقل كل ما يوطد بنيانها ويمنع سقوطها.

وكُتِبت القصتان التاليتان المنشورتان في مجموعة "الأرض يا سلمى" سنة 1961، الأولى بعنوان "أبو رُبِّية" والثانية بعنوان "سوق السبت".

تتناول "أبو ربية" قصة رجل يمني مغترب يرسم صورا على الجدران، شاهده الراوي منذ ثلاث سنين في الميدان الصغير في أديس أبابا أمام الدكان، يسير بهدوء وينظر إلى الأرض، يدفع الحجارة بقدمه وفي عينيه تفكير. ولكن فيمَ يفكر؟ كان في الخامسة والثلاثين من العمر. يرسم صور الأشخاص الذين لا يحبهم على صورة حيوانات، ويشخبط على الأرض صورة عن جبال بلاده وأرضها وشمسها ووديانها. سكب في الصورة كل شجنه وشوقه لوطنه البعيد. وأخذ يحث الراوي، ابن اليمني المهاجر، على العودة إلى وطنه البعيد ويصور له جمال ذلك الوطن وعذوبة مياهه وجمال نسائه، منتقدا هرب اليمنيين من بلادهم خوفا من مواجهة الواقع، وتركها للطغاة. يذكِّر بحضارة بلاده القديمة قائلا إن أهلها تخلوا عنها وهاجروا إلى بلاد الآخرين، ملخصا الحكاية بالقول "بلادنا جنة بس تشتي رجال يبنوها". يواظب أبو ربية على رسم الأغنياء البخلاء في صور حيوانات ويسخر منهم واعدا نفسه أنه إذا عاد إلى اليمن سيكون غنيا. ويعبر عن ضيقه بغربته قائلا: "في اليمن، الواحد في بلاده. أما هنا نحن في بلاد الناس"[185]. وغاب أبو ربيه لأنه رُحِّل إلى اليمن بدعوى أنه مجنون.

وبعد خمس سنوات عاد الراوي إلى عدن ولمح أبو ربيه من بعيد. جرى وراءه لكنه اختفى في الزحام. كانت ثيابه ممزقة، وقدماه حافيتين. لأنه فنان رسام اعتبره الناس مجنونا. لا يرون أن انشغاله بالرسم عمل. فالرسم والفن لا يوفران للفنان لقمة العيش.

يصور مُحَّد عبدالولي منذ هذا الوقت المبكر شعوره بأن الغربة ليست حلا لمشاكل اليمنيين الذين يبحثون عن لقمة العيش في بلاد الآخرين وفي كل البحار

---

[185] نفسه، ص. 31.

معرضين أنفسهم للمخاطر والمعاناة والعذاب، كما يبدأ من الناحية الإنسانية تعاطفه مع المهمشين والمستبعدين والمعوقين نفسيا، وتعامله الفني البديع مع موضوع المرضى النفسيين ومن ليسوا على تصالح مع واقعهم الصعب القاسي المهين. وهو موضوع إنساني وفني سيستوحيه فيما بعد في أكثر من قصة، وبخاصة في مجموعة "عمنا صالح" التي سنأتي إليها لاحقا.

أما القصة الثانية التي تعود كتابتها إلى عام 1961 فهي بعوان "سوق السبت"، ويستوحيها من سفره على الطريق الوعر من عدن إلى قريته حين يضطر إلى أن يقطع بعض المسافات مشيا على الأقدام. يعتني برسم جمال الطبيعة المحيطة بالطريق الوعر الذي يسير عليه، ربما لأنها قرية يأتي إليها دون أن يعرفها حق المعرفة. يلتقط التفاصيل من حوله ببراعة: فالجو حار، والشمس ملتهبة، والماء بلا مذاق حسن، ووجوه المسافرين قلقة صفراء، وتتعطل السيارة فيبقى المسافرون ساعات في انتظار إصلاحها ليواصلوا المسير. جميع الركاب مهاجرون يحلمون بملاقاة زوجاتهم وأطفالهم. عبروا الوادي المتدفق بالسيول وساروا في سهل أخضر حتى دخلوا سوق السبت. يرصد الكاتب تفاصيل مشهد السوق: المساكن والحوانيت من الأكواخ البائسة، وأصوات الباعة والمشترين ترتفع عاليا، ونهيق الحمير، والرائحة العفنة، وصراخ الأطفال يتقاذفون بقايا الفواكه التالفة. والسوق يتسع، وبالقرب منه أكمة عليها نقطة حدود المحميات البريطانية، وتحته من جهة الشمال وادٍ ينحدر من جبال تتدفق منها مياه الأمطار والسيول نحو الجنوب، "كان الوادي صامتا كالموت وهو يحضن ضحاياه".

يتفرق ركاب السيارة في السوق ويبقى الراوي ليواصل رصد التفاصيل: طاحونة ضجيجها يصم الآذان، ومربط لحمير جلبت الحبوب للطاحونة، والمجزرة برائحتها العفنة، ورائحة الدم المخلوط بالأوساخ، وطنين الذباب، وصقور تهبط لتنقض على بقايا الذبائح، وأصوات بائعات الفواكه والخضروات في ثيابهن السود، وأصوات المشترين، ونداءات الباعة، وذباب يداعب عيون الناس وأفواههم. شمس الظهيرة

تكوي الرؤوس. والسوق يضج بالازدحام لأن غدا العيد. والحمير تصارع حبال تربطها وتشدها وتمنعها من الحركة. وامرأة تراقب باستمتاع صراع الحمير من أجل تحررها، قبل أن تفك رباطها وتتركها تتحرك بحرية. وأمام إغراء المرأة يهرب الراوي من السقيفة التي يجلس فيها ويدور في السوق كأنه مجنون. يصطدم بفوضى السوق ويبحث عن وسيلة ينتقل بها إلى قريته القريبة قبل حلول المساء. وحين وجد نفسه أمام المرأة التي هرب من إغرائها رآها تحمل كيسا من الطحين وتمشي بقدميها العاريتين عبر الوادي عائدة إلى منزلها.

تبرز في هذه القصة نزعة مُحَمَّد عبدالولي المسرحية، إذ يجعل القصة كلها مشهدا مسرحيا رسم فيه تفاصيل المكان، ورتبها في رؤية إخراجية يتكون منها مجمل القصة، ودور الشخوص وتحركاتها في المكان، والحوار الصريح أو الكامن فيما بينها، سواء بالكلمات أم بالنظر أم بالإشارات الضمنية أم بالإعراض عن بعضها البعض. يرسم كل هذا بكلمات رشيقة، وبلغة شاعرية جديدة، معبرة وبسيطة غير مقعرة وغير تقليدية.

تعطي هذه القصة صورة مكثفة ترسم بأسلوب شفاف تفاصيل السوق والتضاريس المحيطة به وحركة الناس والحيوان داخله، وتصور تفاصيل المشهد بروائحه وأوساخه وحشراته وطيوره الهابطة من الجو لتصطاد البقايا، وأصوات البائعين والمشترين وصوت الطاحون يعلو بضجيجه، وطنين الحشرات وهبوطها على وجوه المارة وعيونهم. تفاصيل دقيقة تلون المشهد كله والراوي مستغرق في تأملها والتعبير عنها، والمسافرون يعبرون هذا المشهد المتنوع في انتظار أن يعودوا إلى زوجاتهم وأطفالهم في القرى القريبة ليطفئوا لهيب شوقهم وحنينهم، ويشبعوا رغباتهم الدفينة التي تجمدت في عروقهم خلال سنوات الغياب.

وإذا تأملنا هذه القصص السبع التي كتبت في السنوات الأولى لاختيار مُحَمَّد عبدالولي أن يتكرس لتطوير النثر الأدبي في اليمن من خلال القصة القصيرة دون

غيرها، وجدناها بحق توحي بأن فنه قد ولد مكتملا منذ البداية. ليست قصص محاولات، فيها الفشل وفيها النجاح. إنها قصص ناجحة بامتياز منذ البداية. وإذا كان قد اختار نشرها لتقدمه إلى القراء، فهذا يعني أنه قد جرب وحاول واقتنع أنها تستحق النشر وإلا لما نشرها. وبذلك بلغ تطوير النثر القصصي عنده منذ هذه الفترة المبكِّرة مستوى يجعله مميزا بين من حاولوا كتابة القصة في اليمن ونجحوا أو أخفقوا. لقد قدمته هذه المجموعة القصصية خير تقديم. ولم يعد بعدها يخشى الفشل. فقد كان مقتنعا بفنه وبقدراته على كتابة القصة القصيرة والرواية، ولم يبق أمامه سوى إطلاق العنان لموهبته الكبيرة كي تتدفق وتنتج أجمل القصص. وهذا ما حدث.

إنها قصص ترسي أساسا متينا لميلاد كاتب فنان، وتوطد في الحياة الثقافية اليمنية تيارا جديدا في النثر الأدبي مغايرا تماما للموروث التقليدي الذي ساد الحياة الثقافية اليمنية قبل قيام الجمهورية. وينبغي أن نتذكر أن مُحَمَّد عبدالولي قد كتب هذه القصص واليمن تعيش في عهود الظلام وتعاني من العزلة بالمعنى المادي والمعنوي، والثقافي خصوصا، حتى عن أقرب البلدان العربية إليها، وعن تيار حركة التحرر العربية التي بلغت أوج اندفاعها بالوحدة المصرية السورية سنة 1958، السنة التي كتب فيها أولى القصص المنشورة في هذه المجموعة.

وليس غرض هذه السطور تناول جميع القصص المنشورة في مجموعة "الأرض يا سلمى". بل يقتصر العرض هنا على الاستدلال، من القصص التي كتبت قبل قيام الجمهورية، على المستوى الذي كان مُحَمَّد عبدالولي قد بلغه في تأسيس تيار النثر الأدبي والفني في تلك السنوات المبكرة من عمره ومن عمر الحركة الثقافية في اليمن، التي وجدت الفرصة بعد قيام الجمهورية لتتحرر من الجمود والعزلة، وتطمح لمعايشة الثقافة العربية في البلدان العربية الأخرى، وتتفاعل مع ثقافة عصرها، وتغادر عهود الظلام والعزلة والهامشية الثقافية على جميع المستويات وفي جميع الأنواع الأدبية.

ريحانة

على الرغم من أن مجموعة "ريحانة" القصصية لم تنشر إلا في أعمال مُحمَّد عبدالولي الكاملة الصادرة سنة 2012، أي بعد رحيله بتسع وثلاثين سنة، اخترت أن أضعها في الترتيب بعد مجموعة "الأرض يا سلمى"، لأن أغلب قصصها قد كتبت فعلا في ترتيب يلي تاريخ كتابة قصص "الأرض يا سلمى"، التي تحتوي على بدايات مُحمَّد عبدالولي في كتابة القصة القصيرة في سنتي 1958 و1959 حين كان ما يزال طالبا في القاهرة. أما أغلب قصص "ريحانة" فقد كتبت بعد ذلك مباشرة في أواخر سنة 1961 وبداية سنة 1962. وحسب التواريخ المثبتة في آخر كل قصة، تكون تلك القصص قد كتبت خلال شهرين فقط، بين ديسمبر 1961 ويناير 1962 باستثناء قصة "ريحانة" التي اختار جامع أعمال مُحمَّد عبدالولي أن يعطي عنوانها للمجموعة كلها، فلها قصة أخرى سنأتي إليها في آخر تناول هذه المجموعة.

ومن الواضح من نصوص هذه القصص أنها كتبت أثناء دراسة الكاتب في موسكو، فجميع شخوصها ومفرداتها مستمدة من البيئة الطلابية التي عاشها في تلك المدينة. كما يلاحَظ أيضا أنه وهو اليساري الذي طُرِد من مصر بسبب نشاطه السياسي وأصبح يعيش في عقر دار الأيديولوجيا اليسارية في ذلك الوقت، لا نعثر على أثر للأيديولوجيا وللدعاوى والشعارات اليسارية في هذه القصص. إنها قصص واقعية مستمدة من الحياة المنفتحة في موسكو، وبخاصة في التعامل مع المرأة ووسائل الحياة الجامعية. يحس القارئ أن الكاتب كان في تلك الأيام يعب من الحياة الاجتماعية والثقافية من حوله بقدر ما يستطيع، ويستوحيها في أعماله الإبداعية. وهي فترة كان فيها ما يزال في طور التكوين الأدبي بدلالة حرصه على الالتحاق

بمعهد جوركي للآداب. ولا يستبعد أن تكون كتابته لهذه القصص كلها خلال شهرين لأنها كانت جزءً من مشروع إبداعي أراد إنجازه وهو طالب في ذلك المعهد الشهير.

وأخذا بالتسلسل الزمني لكتابة القصص، سأبدأ هنا بتناول ثلاث منها ذكر في آخرها أنها كتبت في شهر ديسمبر 1961، وهي حسب ورودها في مجموعة "ريحانة" القصصية: "ميلا" و"عيون ميلا" و"في قاعة تشيكوفسكي".

تحكي قصة "ميلا" تجربة طالب أجنبي يعيش في مساكن الطلبة الجامعيين في موسكو، ينتظر مجيء صديقة له ليقضي معها السهرة في عطلة نهاية الأسبوع، وكان ما يزال يدرس اللغة الروسية لتحقيق حلم الالتحاق بمعهد جوركي للأدب، بعد أن أصبح قادرا على التفاهم باللغة الروسية ولكنه غير قادر على قراءة المجلات والكتب بهذه اللغة. لكن صديقته أرسلت له اعتذارا عن الحضور وأعطته موعدا آخر. قدمه زميل روسي لمن حضرن السهرة عنده. رقص وموسيقى وعشاء وشراب. لا يعرف أن يرقص ولكنه يحب مشاهدة الآخرين يرقصون. تعرف على طالبة فنون جميلة مهتمة بالأدب والثقافة. قرأت ألف ليلة وليلة وتحب الشرق وتتمنى زيارة الشرق ورسمه.

يرتاح الراوي للحوار معها لأنها تهتم بالفن وبالثقافة ويكشف لها أنه سبق له أن قرأ لمعظم الكلاسيكيين الروس باللغة العربية، مثل تشيخوف ودستويفسكي وآخرين، وأبدى إعجابه بدستويفسكي بالذات. وتكشف هذه القصة أن حلم الراوي بالدراسة الأكاديمية في معهد جوركي لم يتحقق كما يريد. لأنها كُتِبت في نهاية سنة 1961. ومن المعروف أنه غادر الاتحاد السوفيتي في السنة التالية بعد قيام الجمهورية في اليمن ولم يتح له الوقت الكافي لإجادة اللغة الروسية بما يمكنه من استيعاب النصوص الأدبية المعقدة بلغتها الأدبية غير المباشرة، ولم يبق في المعهد السنوات المطلوبة لإتمام الدراسة والتخرج.

أما القصة الثانية التي تشير إلى أنها كتبت في الشهر نفسه فهي بعنوان "عيون ميلا" وتبدو من عنوانها كما لو كانت الفصل الثاني من القصة السابقة، وفيها

يتحدث الراوي عن تعبه في تعلُّم اللغة الروسية، وكثرة الأسئلة التي توجهها له المعلِّمة، ويتذمر من الطوابير أمام المتاجر، ثم التقى بميلا، طالبة الفنون الجميلة المثقفة ذات العيون الزرق وتحدثا عن همنجواي، ومضى معها لمشاهدة اللوحات التي رَسَمت، وعرَّفته على زميلتها "جريتا" التي سيكتب عنها فيما بعد قصة باسمها. تحدثا عن بيكاسو، وعبرت له ميلا عن شوقها لزيارة باريس، وطلبت منه أن يأتي فيما بعد لترسم له صورة. وعاد إلى سكنه الجامعي لينام شاعرا بالوحدة.

إنها مجرد لقطة أراد الكاتب أن يسجلها لتصور جانبا من حياته الطلابية في موسكو، واهتماماته الصغيرة بعيدا عن القضايا الكبيرة التي شغلت قصصه السابقة قبل المجيء إلى موسكو. ولعل هذا قد كان سبب أن مُحَمَّد عبدالولي لم ينشرها في حياته واعتبرها لا تستحق النشر. وربما كان يدرب نفسه بهذه القصص على كتابة القصة من جديد في لحظة فارقة في حياته مليئة بالتيه، بين الماضي المفعم بالأحلام في سن المراهقة والحاضر الذي لم يجد نفسه فيه بعد، ولا تَبَيَّن طريقه تماما في مجتمع مختلف عما ألف من قبل، وثقافة جديدة، ومعارف جديدة، وأسئلة جديدة تعتمل في ذهنه في بداية مرحلة النضج وقد أصبح عمره اثنين وعشرين عاما. فكل تفكير بالواقع الذي تصور أنه سيتعامل معه في مملكة الظلام يصيبه بالإحباط، والواقع الجديد الذي أصبح يعيش فيه يطرح عليه الأسئلة الصعبة في حياته، ما ذا يريد، وإلى أين، وماذا يستطيع أن يحقق لفنه أولا ولنفسه ولمجتمعه.

وتأتي قصة "في قاعة تشيكوفسكي" في هذا السياق الذي صورته القصتان السابقتان، وتواصل نقل التجربة نفسها وتوسعها إلى مجال الاهتمام بالموسيقى الكلاسيكية.

ينتظر في محطة المترو وصول صديقته التي سبق أن ضربت له موعدا، ويطول انتظاره، يحس كأن أعين المارة تسخر منه وتعيِّره بأنها لن تأتي في موعدها وعليه الانصراف.

ولكنه التقى بميلا من جديد وذهب معها لحفلة موسيقية "في قاعة تشيكوفسكي" ليستمع إلى موسيقى ما يزال يتعود على سماعها، ويريد أن يعوِّد أذنه الموسيقية عليها وأن يسبح معها في عوالم الخيال. مضى يتناقش مع زميلته حول موسيقى بتهوفن وسيمفونياته وعن موسيقى رحمانينوف وعن الشاعر ماياكوفسكي، وتنتهي القصة بذكر معاناة الراوية من البرد والوحدة والحلم.

إنها قصة أخرى ترسم الهموم والأشواق التي انتابت الراوية في حياته الجديدة في موسكو وهو يحاول أن يتعرف على ناسها وأن ينفذ إلى ثقافتها التي يعرفها من الكتب وآن الأوان أن يعرفها من واقع الحياة ويتدرب على التعبير عنها في مقطوعات من النثر الأدبي.

ولعل من المفيد هنا إعطاء بعض الاهتمام للقصة التي بعنوان "الصيف والجراد والمطر" والتي تأخر نشرها لتضاف إلى مجموعة "ريحانة" بعد وفاة كاتبها. ومصدر الاهتمام بها أنه قسمها إلى خمسة أجزاء وكأنه يتمرن على كتابة الرواية. وتتناول الهجرة والغربة ولكن من زاوية نظرة المجتمع الريفي إلى المتعلمين الذين درسوا في الخارج، واعتنقوا أفكارا وقيما جديدة مغايرة لما اعتاد مجتمعهم المغلق عليه من تمسك بالأفكار التقليدية وبالعادات والتقاليد. فالمهاجر الجيد الذي يحظى باحترام مجتمعه هو ذلك الذي يعود بالنقود، محمَّلا بالمقتنيات والهدايا وليس بالشهادات والأفكار والقيم الجديدة ليحاول زحزحة مجتمعه المغلق عما ألفه خلال القرون. وحين يعود المتعلم يواجه رفض المجتمع وتحريض القوى التقليدية ضده. وتبقى الخرافة، ويظل الناس يعانون من الفقر والجفاف. "الفقيه يعرف تماما أن هذا الصيف حار. ولو استمر على هذا المنوال مدة شهر آخر لماتت النباتات الخضراء. ولمات أهل القرية في عام آخر من القحط. لقد صلى كثيرا ودعا بعد كل صلاة لتهب السماء ماءها العذب لبنتها الأرض. لكن السماء تبدو صافية، في وسطها شمس قوية في النهار وقمر حزين بكى

بجانب النجوم الكثيرة التي تلمع وتهوي إلى الأرض عندما تيأس من حياتها هناك في السماء"[186].

ومما يشير إلى أن هذه القصة محاولة لكتابة الرواية أن الكاتب على غير العادة يضع في نهايتها كلمة "تمت" بين مزدوجين كما فعل مع رواية يموتون "غرباء".

ثم آتي هنا إلى الملاحظات على قصة "ريحانة" التي وُضِع في نهايتها تاريخ غريب لكتابتها يذكُرُ اليوم والسنة دون ذكر الشهر (26 - 1962)، وهذا غير معتاد أولا. لكن الأهم أننا عند قراءتها نجد أن من المستحيل أن تكون قد كتبت في سنة 1962. فهل أخطأ الكاتب عند كتابة هذا التاريخ أم أن من جمع أعمال مُحَمَّد عبدالولي قد أخطأ القراءة أو النقل؟

ومن الواضح من مفردات القصة ومن الأحداث التي تصورها أنها تَمُتُّ بصلة إلى تجربة سجن القلعة في صنعاء الذي تعرَّف عليه مُحَمَّد عبدالولي سنة 1968 وظل فيه إلى سنة 1970. فهو يشير مثلا إلى "شارع الزبيري الذي تخترقه السيارات، أضواؤها تثير الفرحة في أعماقي"[187]. ومن المؤكد أن شارع الزبيري لم يكن موجودا سنة 1962 وكان ما يزال جزءً عاريا من طريق الحديدة - صنعاء يمتد من منطقة عَصِر إلى باب اليمن. كما أن تسمية "شارع الزبيري" تعود إلى مطلع السبعينات. ويمكن الإشارة إلى أمور أخرى من المستحيل أن تكون موجودة سنة 1962 كما ذكرها الكاتب في القصة، مثل السيارات الكثيرة حيث كانت السيارات في تلك الفترة المبكرة من حياة الجمهورية محدودة جدا بل ونادرة. وكذلك الحال بالنسبة للأضواء المتلألئة. وبالمثل، لم يكن جبل عيبان الذي يشير إليه الكاتب قد دخل في الخيال الشعبي لأن تحويله إلى أسطورة وطنية متداولة يعود إلى أدب مقاومة حصار صنعاء بين ديسمبر 1967 وفبراير 1968 الذي جعل منه رمزا لصمود المدينة وانتصار

---

[186] نفسه، ص. 461 . 462.

[187] نفسه، ص. 388.

الجمهورية. وحتى لغة القصة تكاد تتشابه مع قصص عمنا صالح. ولعل مُحَمَّد عبدالولي بعد أن كتب القصص التي تُصَوِّر الحياة في السجن، بعد إطلاق سراحه، قد اختار عند نشر مجموعة "عمنا صالح" أن يقتصر على نشر أربع منها واستثنى قصة "ريحانة" من النشر لأي سبب.

عمنا صالح

ومع أن من جَمَع أعمال مُحَمَّد عبدالولي قد وضع رواية يموتون غرباء بعد مجموعة "الأرض يا سلمى" القصصية من حيث الترتيب الزمني في الصدور، معتمدا تاريخ نشرها مسلسلة في صحيفة الشرارة في حضرموت التي كان يحررها صالح الدحان (صديق مُحَمَّد عبدالولي) وليس تاريخ نشرها في بيروت بعد وفاة مؤلفها سنة 1973، سنقتصر هنا على تناول إبداع مُحَمَّد عبدالولي في مجال القصة القصيرة، من حيث أنه قد بلغ فيها قمة إبداعية غير مسبوقة، وتفرغ لكتابتها، وثابر وواصل حتى النهاية، فأضاف إلى حركة الثقافة في اليمن تيارا أدبيا كان قبله ما يزال في طور المحاولة المتقطعة، الناجحة أحيانا والفاشلة في أحيان أخرى.

لذلك سأتناول هنا المجموعة القصصية التي بلغ فيها مُحَمَّد عبدالولي ذروة إبداعه، من حيث اختيار الموضوعات، ومن حيث التقنية الفنية، ومن حيث نضج المشاعر الإنسانية وتوطيد نبل التعامل مع بني الإنسان أيا كان لونهم أو آراؤهم أو مناطقهم أو مواقفهم السياسية. ولعل هذه المجموعة قد أسست لما يمكن أن نسميه أدب السجون، أو الأدب الذي يتناول العذابات المحضة التي تنزل بالبشر في معتقلاتهم، ونوع التعذيب الذي يتعرضون له، ونوع الجلادين الذي يمارسون التعذيب وكأنهم كتل بشرية لا مشاعر لديها ولا إحساس بضحاياهم، وما يصيب الضحايا من آلام وأمراض وعذاب وحرمان، ومن انتهاك لكرامة الإنسان ولقدسية الحياة الإنسانية.

فقد كرس مُحَمَّد عبدالولي أربع قصص من مجموع قصص المجموعة السبع لتناول نماذج من المساجين إما بلغ بهم العذاب والتعذيب حد الجنون وإما أدخلوا السجن لأنهم مجانين، فكان أول من استرعى الانتباه إلى هذه الظاهرة الوحشية التي تتعامل مع المجنون ليس كمريض نفسي يحتاج إلى مصحة لرعايته وعلاجه، بل كمجرم يستحق

عقوبة السجن دون ذنب اقترفه. فهل قرأ الكاتب عن مؤلف ميشيل فوكو بعنوان "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"[188] الذي نشر باللغة الفرنسية سنة 1961 وتناول المعاناة التي كان المجانين ضحيتها في ذلك العصر الكلاسيكي بحيث كانوا يعزلون في سجون ويعاملون معاملة لا تليق بالبشر وكأنهم مجرمون وليس مرضى نفسيين يستحقون الرعاية والعلاج؟ قد يكون قرأ باللغة العربية عن هذا الكتاب غير المسبوق في موضوعه أو باللغة الإنجليزية التي يجيدها أو بالروسية. لكن الأرجح أن هذه المشاعر الإنسانية النبيلة صادرة عن مُحَمَّد عبدالولي الإنسان الحساس العبقري المبدع، وعن قوة ملاحظته لما يجري من حوله في السجن باعتباره أحد الضحايا ويشارك المجانين في معاناة قسوة السجن دون ذنب. فهي مشاعر إنسانية نبيلة عُرِف بها الكاتب وصور بها المجانين في سجن وصفه بأنه مخصص للمعتقلين السياسيين والمجانين، بحساسية فنية مرهفة. وقد بلغ إبداعه في تصوير هؤلاء المساجين المجانين ذروة الإبداع الفني وقمة المشاعر الإنسانية، حتى أن أحد الظرفاء علق ساخرا بالقول "المسجون الوحيد الذي تمنيت ألا يخرج من السجن حتى يواصل إثراء حياتنا الثقافية بهذه الروائع الإبداعية هو مُحَمَّد الولي".

والواقع أن مُحَمَّد عبدالولي لم يتناول حياة السجن والمساجين عن بعد ودون معاناة ومعايشة. فهو قد وجد نفسه نزيل سجن القلعة يشارك المساجين حياتهم الصعبة، ومنهم مجانين أثاروا فضوله، وحركوا لديه نزعة التعاطف مع معاناتهم، واستدعوا ملكة الإبداع لتصويرهم في بيئة السجن. ويستغرب المرء سبب تكالب الجمهورية الثانية التي بدأت بالإطاحة بالرئيس عبدالله السلال سنة 1967 على مُحَمَّد عبدالولي، الكاتب المبدِع. صحيح أنه كان يساريا تحمس للجمهورية الأولى عند قيامها وقطع دراسته في موسكو وعاد ليشارك في البناء الجمهوري الجديد. لكنه لم

---

[188] كان هذا رسالة دكتوراه دولة قدمها ميشيل فوكو، الفيلسوف بعنوان .Folie et deraison Histoire de la folie a l’age classique

يكن له دور سياسي خطير يجعله عرضة للانتقام والسجن، ولم يكن من الشخصيات الكبيرة في عهد الجمهورية الأولى، ولم يتول من الوظائف سوى وظيفة ليست كبيرة في شركة الطيران أو في الدبلوماسية اليمنية. وما يزال سبب سجنه لغزا يحير كل من عاشوا تلك الفترة ومن درسوها.

تبدأ هذه المجموعة القصصية بالقصة التي اتخذها عنوانا للمجموعة كلها "عمنا صالح"، وهو شخصية نابضة تفيض بالحيوية والظُّرف، وتجسِّد معاناة السجن كلها، صبَّ فيها مُحَمَّد عبدالولي كل ما لديه من إبداع وظُرف ومشاعر إنسانية، وتعاطُف مع الضحايا، وقُدرَةٍ على الإبداع وتصوير الشخصيات.

ترسم قصة "عمنا صالح" شخصية تُقنِع القارئ بأنها من لحم ودم وأن المؤلف لم يكتب عنها إلا بعد أن أُعجِب بها وظل يتابع حركاتها وسكناتها معظم ساعات النهار. شخصية غريبة الأطوار تستحضر ماضيها في قيادة السيارة التي كان وجودها في صنعاء نادرا، وتقلده في تحركها كأنها تقود سيارة حقيقية داخل السجن. جميع المساجين في سجن القلعة المخصص للمعتقلين السياسيين وللمجانين يعرفون عمنا صالح، لأنه سجين منذ عشرين سنة. لحيته بيضاء كثة لم تعرف الحلاقة والتشذيب منذ دخل سجن القلعة. ومع أن المساجين والسجانين يسمُّونه "المجنون"، لا يدعوه الراوية إلا باسمه الحقيقي "صالح".

واقعة سجن المعتقلين السياسيين والمجانين في سجن واحد توحي بأن الجلادين يعتبرون المعارضة السياسية ضربا من الجنون، والجنون ضربا من المعارضة. كل شيء ممنوع ما عدا القات والسجائر والأكل والهواء، لا كتب ولا صحف أو مجلات ولا راديو يقضي بها السجين وقته الثقيل، لذلك يتوفر وقت لتأمل بعضهم بعضا والنقاش بين المجموعات المختلفة. ويبلغ ظُرف الكاتب أقصاها حين يتخيل أن المعتقلين السياسيين والمجانين قد اختاروا عمنا صالح عميدا للمساجين باعتباره أقدمهم كما يختار الدبلوماسيون أقدمهم ليكون عميدا للسلك الدبلوماسي، وأتاحوا له امتياز

الحصول على علبة حليب والمزيد من السجائر، يجمعها السجناء ليكافئوا عميدهم. وهو مثل بقية المساجين مكبل بقيود الحديد وتتم مراقبة التأكد من أن قيوده مُحكَمة خلال عرض يومي للمساجين في ساحة السجن، يحضره السجانون وعلى رأسهم مدير السجن.

كان عمنا صالح فيما مضى شابا وسيما فتيا بقامته القصيرة وجسده القوي، وظل يحمل بقايا هذه الشخصية الجذابة حتى بعد أن دخل السجن. وكان من القلائل الذين يقودون سيارة في شوارع صنعاء الضيقة المتربة تثير زوبعة من الغبار كلما مر. أحب حبا ممنوعا في مدينة تحَرِّم الحب، فقد أحب امرأة عيناها مثل سواد الليل، وشعرها طويل وغزير، وجمالها من النوع الآسِر. وقاده هذا الحب إلى السجن والبقاء دون أمل في الخروج. وله صديق سجين صامت يشاع أنه أردني يتفضل عليه بطلب سجائر و"بردقان" وحليب ويعطيه، دون أن يعرف أحد من هو وما قصته، وكل واحد يحكي عنه قصة مختلفة عن الأخرى.

يدعو عمنا صالح بقية المجانين إلى غرفته ويعد لهم حفلة شاي صباحية وأخرى مسائية. قرر الراوي أن يلتحق بإحدى حفلات الشاي في غرفة عمنا صالح، في جناح المجانين من السجن. وجد في غرفته أغرب كمية علب صفيح فارغة، يقضي معها أغلب وقته، يرتبها وينظِّم بعضها فوق بعض حتى تصير في شكل أهرامات. غرفته سوداء من كثرة ما اوقد فيها من أوراق ومن حطب قليل لإعداد الشاي للمجانين.

وعندما يخيم المساء في السجن وتنطفئ أنوار الكهرباء الساعة العاشرة مساء يُسمَع صوت الأردني يرتفع بأغنية بدوية لا يعرف كلماتها أحد سواه. وحين يتوقف صوت الأردني تبدأ جلبة علب الصفيح الفارغة عند عمنا صالح ولا يهدأ إلا حين يرتفع صوته بالأذان، ويقفز من أول الأذان إلى آخرة. "عندها يخيم الصمت رتيبا ثقيلا على جميع غرف المساجين ولا يسمع المرء عندها حتى حفيف النسمات. يمسك

كل سجين أنفاسه، حتى المرضى المصابون بذات الصدر يحبسون السعال ويتوقف حتى شخير النائمين لأن الجميع يتوقعون سماع شيء ما" بعد أذان عمنا صالح[189].

فإذا صدرت عنه كلمات ترحيب يصبح الحزن أكثر ثُقلا والكآبة أعمق، لأن ذلك يعني أن معتقلين جددا سيصِلون إلى السجن، وإن قال كلمات وداع فإن ذلك يعني أن مساجين سيُفرج عنهم. وقد تحقق ذلك أكثر من مرة، وأصبحت مصداقية عمنا صالح تزيد يوما بعد يوم باعتباره عراف السجن، ينتظر الجميع متى سيودعهم ومتى سيستعيدون حريتهم.

القصة الثانية من قصص الرعب في سجن القلعة هي قصة "ذئب الحلة"، وهي قصة شخصيتها الرئيسية رجل "كان يوما من البشر" ومسَخَه السجن إلى مرتبة أدنى من الحيوان. بدأت ملامحه تتحول تدريجيا. له نظرة شاردة قلقة، يفتح فمه بطريقة تدل على بلاهة، لينعزل في غرفته. يقبع في زنزانة تحت الأرض منفردا، وسط الحشرات المختلفة. جسده المنتفخ معفر بتراب الزنزانة. لا يتحدث بكلمات مفهومة. يصرخ صرخات غير إنسانية تجعل الجميع يهربون منه. قصة سجنه مصدر تكهنات لكنها تظل مجهولة. قيل إنه قد قُبِض عليه وهو يحمل رسائل الأعداء، وقيل إنه اعترف تحت التعذيب بجريمته، وقيل لم يعترف. وقيل إنه لا يعرف شيئا عن المهمة التي اتُّهِم بها. وقيل كان راعيا في السابعة عشرة من العمر حينما اعتقل وأودع السجن. لكنه حينما رآه الراوي كان قد فقد ما نسب إليه من ملامح وأصبح حيوانا يزحف على أربع. ويقال إنه فقد شكله الانساني تدريجيا. نسوه بمرور الزمن. ولم يعد هناك من يهتم بمتابعة قضيته والمطالبة بالإفراج عنه. ربما كان أبلها. يتجنبه الجميع. قال أحدهم "قدمت له قطعة خبز فرماها في الأرض وتبول فوقها ثم أكل القطعة". وقال آخر "قدمت له قطعة لحم فمرغها في التراب وجلس يلعب بها أكثر من ساعة ثم بدأ

---

[189] نفسه، ص. 164 . 165.

يأكلها"[190]. قيدُه يدمي قدميه. قدَّمَت لجنة المساجين السياسيين طلبا لإدارة السجن لنقله إلى المستشفى باعتباره سجينا سياسيا.

تسلل مجنون إلى زنزانته فقام السجانون بضرب المجنون المتسلل ضربا مبرحا ورفع ذئب الحلة صوته بكلمات غير مفهومة وعوى كالذئب. وحاول المجنون أن يتسلل ثانية إلى زنزانة ذئب الحلة فهوى ومات، وقيل تعرض للضرب حتى مات. واحتاج دفنه إلى انتظار الإفراج عنه. احتج المعتقلون السياسيون على تأخير الدفن، واعترضوا على عدم السماح له بالخروج حيا أو ميتا. سمعوا في الليل عمنا صالح ينطق بكلمات وداع، وتوقعوا الإفراج عن سجين، لكنه كان خروج جثة إلى القبر.

وانعزل ذئب الحلة أسبوعا خرج بعدها وقد أصبح هيكلا عظميا لم يبق من شكله القديم سوى عينان بارزتان سوداوان لا تعبران عن شيء. وكان المساجين يعطفون عليه وإن كانوا يخافون منه. وأخيرا ارتفع صوت عمنا صالح يودعه بعد أن تعفن جسده، ولم يسمحوا بإطلاقه وإرساله إلى القبر إلا عند غروب الشمس. "وخيم حزن كئيب على السجن استمر أسبوعا، ثم نسى سكان سجن القلعة أن إنسانا كان هناك وقد تحول بفعل الزمن إلى حشرة غير ضارة"[191].

القصة الثالثة من قصص السجن في مجموعة "عمنا صالح" قصة بعنوان "السيد ماجد" وتحكي قصة سجين ينظر إلى معتقلين جدد يدخلون السجن ويشاهد العسكر وهم يدقون قيود الحديد على أقدامهم، ويَعدُّهم حتى يعجز عن عدِّهم. وحين انتهى دق القيود سأل أحد المساجين الجدد إن كان ما يزال هناك من كثرتهم بشر خارج السجن. عشرات المعتقلين الجدد يحملون فراشهم وما تيسر من ثياب. راح الشخصية الرئيسية في هذه القصة يسير وسط المساجين بقميص ممزق قذر وقدمين عاريتين، "يحاول أن يبتسم وكأنه يشجع القادمين الجدد". زملاؤهم المساجين القدامى

---

[190] نفسه، ص. 172.

[191] نفسه، 177.

يستقبلونهم ويسألونهم عما حدث لهم. كلهم شباب. تعرفوا على بعضهم البعض. وماجد المجنون يتردد بين المساجين القدامى والجدد ويدخن سجائر يطلبها من المساجين، يرتمي عند أحد أركان ساحة السجن "ويدخِّن بتلذذ وانسجام ويرسل حلقات الدخان عالية وتغيب معها عيناه. كان ماجد أهدأ مجنون في القلعة. ولهذا فهو طليق، ويقال إنه المجنون الذي لا يثور إلا نادرا، وهو كثيرا ما يغني، كلما راح يدخِّن سيجارته أغنية قديمة نسى معظم كلماتها ولكنه يدندن بشكل حزين"[192]. ويظل يطرح الأسئلة على المساجين وكلهم شباب: هل لا يزال في المدينة خارج السجن أناسا طليقين؟ يطرح أسئلة لا ينتظر إجابة عليها.

ويعود الراوي ليشرح قصة ماجد وسبب سجنه. وكالعادة يوجد لكل سجين أكثر من رواية كلها غير موثوقة لأن صاحبها مجنون ولا سبيل لمعرفة الحقيقة. يقال إن ماجد أحب فتاة وتزوجها واكتشف أنها تخونه، ولشدة حبه لها لم يستطع تركها حتى فقد عقله. وتقول رواية أخرى إنه كان شابا طموحا وأراد أن ينافس على السلطة واتصل بالمعارضة وجالسهم فسجن وعذِّب حتى فقد عقله، وأُلقِي به في السجن قبل عشرين عاما. وأحيانا يعود إليه عقله فيثور ويمزق ثيابه ويصبح عدوانيا شرسا. لا أحد يأتي لزيارته ليكون مصدرا موثوقا لمعرفة حقيقته وسبب ما حل به. ويقول بعضهم إنه لا يتحدث عمن يزوره كمن يتعمد جعل قصته أكثر غموضا. ما هو واضح من سلوكه أنه أصبح يركز همه على الاستيلاء على القات من أي شخص ليتأسى به وينسى همومه. وقيل إن والدته تأتي لزيارته وأن أسرته توفر له بعض ما يحتاج إليه من ثياب وغذاء. وقالوا إنه كان يأتي إليه بعض الوجهاء والمشايخ وأنه كان أنيقا يحب الثياب ناصعة البياض، وأن القات سبب جنونه، وأنه أُطلِق من السجن وتسلمته أمه وفرحت بإطلاقه لكنها أعادته بعد أن اعتدى عليها ولم ينقذها منه إلا تدخل الجيران. لكن هذه الروايات ظلت إشاعات لا يوجد ما يؤكد أية واحدة منها أو ينفيها.

---

[192] نفسه، ص. 179 . 180.

وهكذا ظل بالنسبة للمساجين لغزا محيرا، ولا يقول السجانون عنه سوى أنه مجنون ولا يضيفون شيئا.

ويروي راوي القصة أنه في ذات مرة تعالى صوت السجانين يأمرون المساجين أن يعود كل منهم إلى مكانه، وتعالى صليل قيود مساجين يسرعون إلى أماكنهم بسرعة لتجنب الضرب والعقاب، وانزوى ماجد في جانب من ساحة السجن لأن العسكر لا يهتمون كثيرا بوجود مجنون بالقرب منهم ولا يخافون أن يفشي أسرارهم. "وأطفئت الأنوار وساد ظلام دامس" واستولى الرعب على السجناء وحل الخوف. "وترامت الأسئلة بكثرة من كل غرفة من غرف السجن. وحاول البعض أن ينظر من خلال شقوق النوافذ رغم الظلام، إلا أن أحجارا كثيرة بدأت ترتطم بالنوافذ... كانت الساحة مظلمة إظلاما تاما، ... وكان الخوف يعمي ما تبقى من إدراك عندهم. ومضت لحظات أخرى خالها المساجين عصورا من الزمن. مضى الوقت بطيئا بُطئا قاتلا، وكان البعض يتوقع أسوأ الأمور"[193]. وبدأوا يسمعون دق القيود على أقدام معتقلين جدد. وصوت القيود عند حركة المعتقلين والعسكر يسحبونهم نحو زنزانات تحت الأرض. ودارت التساؤلات فيما بين المساجين القدامى عن عدد المعتقلين الجدد ومن هم. وفي الصباح حاولوا الاقتراب من الزنازين الواقعة تحت الأرض ليقتربوا من زملائهم الجدد ويعرفوا شيئا عنهم لكن العسكر منعوا الحركة بالقرب من المساجين الجدد. ولم يبق سوى ماجد قادرا على الاقتراب من تلك الزنازين الأرضية الموحشة، وسَمِعَ صوت مسجون تحت الأرض يطلب سجائر فمضى وطلب من الآخرين سجائر كثيرة وتسلل خلسة وتمرغ بالأرض ليسرِّب السجائر إلى المعتقلين الجدد.

تسجل هذه القصة عن طريق رسم شخصية ماجد المجنون اللطيف تواصل الاعتقالات وكثرتهم وكيف يرسفون في أغلال الحديد بلغة قصصية بديعة، ترصد تفاصيل السجن، والعذاب الذي يلاقيه المعتقلون الجدد والقدامى، وكيف يعاملهم

---

[193] نفسه، ص. 183 . 184.

السجانون. إنها قطعة فنية أخرى من قصص السجن التي تضمنتها مجموعة "عمنا صالح".

والقصة الرابعة من القصص التي تصور حياة السجن بعنوان "ليلة حزينة أخرى" شخصياتها شبه واقعية تكاد تسمي شخصيات سياسية اعتُقِلت مع محمّد عبدالولي في القلعة عام 1968 وظلت في السجن حتى أوائل سبعينات القرن العشرين، مثل عبدالعزيز، والرهينة، وعبدالوهاب، وأحمد، والمغترب، وعبدالله، ويحيى، إلخ..

تتحدث القصة عن ليلة من ليالي السجن التي تشبه بعضها بعضا "انطفأت الأنوار فجأة، ولم تتجاوز الساعة العاشرة بعد، انطلقت لعنات وأضيئت عيدان كبريت، ومضى كل إلى محلة. كنا عشرة في غرفة صغيرة مرتفعة الجدران. كان الليل حزينا. هبت ريح من الخارج، وانطلق صوت الحارس يردد أغنية حب، وضحك حارس آخر، من مكان حراسته، وسمعنا صوت عصى تضرب علبة فارغة، وتصطدم عصا بجدار السجن، ربما كان (الحارس الذي يغني) ثملا كعادته، لكنه يغني بصوت مبحوح"[194].

هكذا تبدأ القصة برسم الجو العام لما سيدور من أحداث في السجن في اللحظات التي تصورها. كعادة محمّد عبدالولي، يصور المشاهد وكأنه بصدد رسم مشهد مسرحي، يهتم بالتفاصيل ويجمع بينها في مشهد نابض بالحركة وبالتوتر.

بقية المشهد، سجين يتأوه بسبب تضرر عموده الفقري، وكتن وبق تتساقط كالمظلات لتنهش دماء المساجين، وسعال. ويتسلل أحد المسجين إلى النافذة فيصرخ فيه السجان ويرميه بحجر تسقط على صلعته، وتُغلَق النافذة لتجنب تساقط الحجارة عليهم، ويطلب أحدهم من الراوي أن يقص عليهم قصة من قصصه، وسجين يضطر للتبول في علبة فارغة بسبب منعهم من الوصول إلى المرحاض في الليل، ويزداد دخان السجائر في الغرفة حتى يكاد يخنق الأنفاس، ويستعصي النوم على بعضهم، وسجين

---

[194] نفسه، ص. 189.

يدندن بأغنية حبيبة إلى نفسه في صوت حزين، وكلما غنى اختلط الحزن بالبكاء. "كل العيون التي لم تنم تمزق الظلام وتنغرس في عبدالله (الذي يغني) وتشاركه الأغنية. الحرمان العنيف الذي يواجهون منذ أشهر يجعل للكلمات قوة سحرية. كل شيء ممنوع هنا ما عدا الهواء والماء. وحتى الهواء لا يسمح به إلا في النهار، أما الليل فكل شيء مغلق حتى النافذة"[195]. ويمضي الكاتب في وصف معاناة المعتقلين على نغمات الأغنية الحزينة والبكاء الصامت في الظلام. وأخيرا لف الصمت المكان، ولم يعد يسمع سوى أنفاس المساجين. جمعهم الحزن في ذكريات متشابهة، وغرق كل منهم في ذكرياته الحميمة. وفجأة سمعوا صوت عمنا صالح يؤذن أذانه المتقطع المعتاد، وانتظر المساجين ما سيعلن بعدها، فإذا به يرحب بمعتقلين يتنبأ بقدومهم. وصاح أحدهم: سيصل سجناء جدد، ولف الغرفة الصمت من جديد والحزن على ما سيحل بالقادمين إلى السجن من عذاب.

إنها قصة أخرى من قصص السجن المتشابهة في الحزن والمعاناة، وليلة حزينة أخرى، ومساجين آخرين يساقون إلى سجن القلعة، وتنبؤ جديد يعلنه العم صالح يزيد المساجين حزنا إلى حزنهم، وغما إلى غمهم، وخوفا من القادم المجهول، وغرقا في ذكرياتهم الحميمة.

والقصة الأخيرة التي وقع الاختيار على تناولها في هذا الاستعراض لمجموعة "عمنا صالح" هي قصة "لا جديد" التي لا أجد مبررا لإعادة نشرها مرة أخرى في مجموعة "ريحانة" التي نشرت عند طباعة أعمال مُحَمَّد عبدالولي الكاملة. والمؤكد أن نشرها في الكتاب نفسه مرتين قد كان سهوا.

تتناول هذه القصة الغربة من وجهة نظر امرأة تركها زوجها لتهتم بطفله الصغير الذي تركه في أحشائها وهاجر، ولتزرع الأرض وتعتني بالبقرة، وتدفع الضرائب الجائرة

---

[195] نفسه، ص. 192.

للسطلة الظالمة. لكن الأمطار شحت وأخذ الجفاف بتلابيب الاخضرار وضاعف معاناة المرأة وعذابها.

تسمع أن الجمَّال (البريد الأهلي في بلد لا خدمة بريد فيها) يصل من عدن، المستعمرة البريطانية التي يخرج إليها المهاجرون وينفذون منها إلى عالم الاغتراب والتشرد تحت كل سماء.

مضى وقت طويل لم تستلم من زوجها لا رسالة ولا نقود. تعلقت أنظارها ببيت الجمال عله يحمل لها أي بشرى. كانت قد أهملت نفسها ونست أن تتزين منذ زمن. وكانت قد كتبت لزوجها الذي يعمل في البحر تبشره بقدوم طفلهما الذي يشبهه، فأرسل لها ثيابا. وكان كلما مر بميناء أرسل لها بعض النقود والثياب. لكن أخباره انقطعت. قالوا لها إنه في بلاد بعيدة يعمل في جبال الفحم، كتبت له مرات لكن رسائلها تضيع لأن هناك كما قالوا لها حربا في البعيد وأن البواخر التي يعمل فيها المهاجرون اليمنيون تغرق.

وجاءها خبر أن الجمال يحمل لها رسالة. مضت بسرعة إليه واستلمتها. كان يَعُدُّ لها النقود المرسلة وهي تسأل: متى سيعود؟ "في قلبها تمزَّق شريان، وفوق وجهها نَمَت سنين لم تعشها، وطفلها ابن السنتين ينظر باستغراب. وأذنه تسمع كل طرقات قلبها الولهان. ويده تشعر بالحرارة التي يقذفها الجسد المنهار"[196].

استلمت كومة صغيرة من النقود. ثروة كبيرة ولكن ما ذا تفعل بها؟ نصيب الشيخ والعاقل والسلطة الجائرة منها أكثر من نصيبها هي وطفلها. تحسدها نساء المهاجرين الذين لم يرسلوا شيئا. كانت قد عانت كثيرا من شح النقود وتأخر وصول ما يرسل زوجها. واستلمت إلى جانب النقود بعض المحتاجات للبيت وثيابا لها ولطفلها، ولكنها تحتاج إليه هو وليس فقط إلى هداياه. وتمضي السنين دون أن

---

[196] نفسه، ص. 169.

يصلها منه شيء. انقطعت أخباره وتمزقت الرسالة التي استلمتها من كثرة التقبيل وحرارة الشوق.

موضوع هذه القصة أثير إلى نفس مُحَمَّد عبدالولي، يصب فيها وفي غيرها الأحاسيس التي تلامس مأساة المهاجرين وضياعهم في كل مكان من الأرض الواسعة. ويعبر فيها الكاتب عن تعاطفه الدائم مع المرأة، والمرأة الريفية على وجه الخصوص، لأنها تتحمل العبء الأكبر من مأساة شتات اليمنيين بحثا عن لقمة العيش وهربا من الظلم. تعتني بالأرض وتزرعها وتتحمل ظلم السلطات وفسادها بحيث لا تُبقِي لها من ثمر الأرض سوى الفتات، وتربي الأطفال وترعاهم في غياب آبائهم، وتعاني من الوحدة والحرمان، وتعيش حياة العزلة والمعاناة.

يعود الكاتب هنا إلى الغربة ولكن من زاوية معاناة المرأة وحرمانها وعذابها. وكما يقول عنوان القصة، لا جديد فيها سوى التوكيد على موضوعات تتكرر في قصص مُحَمَّد عبدالولي، وهي ترسم تفاصيل حياة يلفها صراع الناس وتشردهم في الآفاق بحثا عن لقمة عيش غادرة تقف فيها المخاطر والموت في كل منعطف، ونسوة يتحملن ما ينتج عن الغربة من تخلٍ عن الأحبة والأطفال والأرض.

وأخيرا، يمكن القول في ختام تناول هذه المجموعة القصصية التي رسمت معاناة المعتقلين من السياسيين والمجانين، أن مُحَمَّد عبدالولي إذا كان قد تعرض لاضطهاد الجمهورية الثانية وسِجنِها وظلمِها مع أنه لم يكن سياسيا يُخشى منه وله أتباع كثيرون يمكن أن يكون لهم تأثير سياسي ملموس، فإنه قد كال لسجانيه الصاع صاعين من خلال تسجيل تفاصيل ما تئن منه الحياة في السجن، وخلدها في صفحات الأدب الرفيع الباقي مدى الزمن. كان على ثقة من أن التاريخ سينساهم في حين ستبقى قصصه تذكِّر القراء دائما بأن أديبا مبدِعا قد تعرض للاضطهاد وكُبِّل بالقيود في سجن موحش قذر لمدة سنوات. كشف ظلمهم وعرَّى قسوتهم في حين سجل حضوره في التاريخ إنسانا مبدعا يتعاطف مع المقموعين والمشردين والهامشيين

والضحايا. لو عرف السجانون أنه سيعريهم ويكشف قسوتهم وتعذيبهم لضحاياهم على هذا النحو لتورعوا عن توحشهم وإيذائهم لهؤلاء الضحايا، ولأنصفوا الإنسانية السجينة والمعذبة داخل ذواتهم. والواقع أن مُحَّد عبدالولي قد نجح كمبدع في تحويل ألمه وحزنه ومعاناته إلى تحف فنية خالدة مدى الزمن.

شـيء اسـمه الحـنين

إنها مجموعة قصصية نشرها مُحَّد عبدالولي في السنة التي سبقت وفاته، وكان بعض قصصها قد نشر في الصحافة. وتُعدُّ مع مجموعة عمنا صالح من القصص التي كَتَب أغلبها ونشرها في الفترة التي تلت خروجه من سجن القلعة في صنعاء منهكا محبطا، ولكنه تمالك نفسه ونهض واستقر رأيه على أن يقاوم الإحباط عن طريق الانشغال بالثقافة، فقرر أن يتفرغ للكتابة والاهتمام بتنمية الثقافة، وأسس في تعز دار نشر أسماه "الدار الحديثة للطباعة والنشر"، واستقدم لهذا الغرض مطبعة من عدن كان يملكها أحد ناشري الصحافة في مرحلة اتجهت فيها السلطة في عدن نحو احتكار الإصدار الصحفي ولم يعد للصحافة الأهلية أي مكان. وهي فترة تعاون فيها مُحَّد عبدالولي مع عبدالعزيز المقالح الذي كان يقيم في القاهرة، وتولت "الدار الحديثة للطباعة والنشر" إصدار المجموعتين الشعريتين "مارب يتكلم" و"لا بد من صنعاء"، وكذلك مسرحية مُحَّد الشرفي "حريق في صنعاء".

وتحمل القصة الأولى في مجموعة "شيء اسمه الحنين" القصصية عنوان "وكانت جميلة"، وفيها شحنة من الرمز العام عن الثورة والجمهورية والأرض والإنسان والأحلام المحبطة بعد الفترة التي قضاها في السجن وتعرض للاضطهاد وانتهاك الحرية والحق في النشاط السياسي.

تبدأ بلغة مُحَّد عبدالولي المسرحية في رسم تفاصيل المشهد "كانت الشمس تخترق السحب وتبدو لنا من خلفها رائعة، والغيوم تتهارب من فوق الجبال، وتبدو القمم رائعة. الساعة كانت قد تعدت الثامنة صباحا والجبل أخضر. فالشهر في نهاية صيف وبداية خريف. الأشجار خضراء، والتلال أكثر خضرة. وبدت في أول الشارع... ثوبها كان مثلها شابا، وعلى قدميها حذاء... وعلى رأسها سلة صغيرة

وخلفها امرأتان تحملان سلالا أكبر وتسيران في خطوات متناغمة... تتبعان خطواتها"[197].

هكذا يبدأ المشهد كله، المشهد الطبيعي يفيض بالخضرة والجمال، والمرأة الشابة تنزل من الجبل تحمل الغذاء للمدينة وخلفها شابات جميلات يحطن بها ويرافقنها في رحلة البشرى للمدينة بيوم سعيد.

يحكي قصتها على لسان راوٍ بائع كتب، يهوى القراءة والتأمل الفلسفي في الظواهر والأشياء من حوله. كانت الشابة جميلة وأكثر من رائعة، عمرها نحو ستة عشر ربيعا. في بداية تجربتها مع المدينة نظر الناس إليها بدهشة، والتفوا حولها يشترون ما تجلب لهم من قات وفواكه وخضروات بأي ثمن. لا يتردد أحد ولا يساومها أحد. كل من وقف أمامها اندهش بجمالها وجرأتها وثقتها بنفسها. لكنهم لا يعرفون اسمها ولا من أي قرية جاءت. يقولون إن أمها كانت مثلها جميلة سنة 1948، وأن الناس أحبوها وارتجفوا لمرأى جمالها ولكنها ماتت قبل الأوان بعد أن ولدت طفلتها الجميلة.

ترددت الشابة على الراوي صاحب المكتبة، ووجدت عنده التفهم والسلوى والاحترام. الكل يدافع عنها والكل يهواها لكنها لا ترتاح سوى لبائع الكتب. أول من أحبها ضابط لكنه بعد فترة وجيزة وُجِد مقتولا دون أن يعرف أحد من قتله. يقول الراوي:

"أصبحنا نحبها جميعا وكل حب يختلف عن الآخر. هناك من يريدها زوجة، وآخر يريدها عشيقة، وثالث يريدها من أجل مالها، وهكذا". وجاء تاجر غريب وتزوج بها ونهى الراوي عن الاهتمام بالكتب ونصحه بأن يختار له مهنة أخرى. "قلت لها: في مثل هذا ليوم من العام الماضي نزلتِ من الجبل. ضحكت وقالت: ألا زلت

---

[197] نفسه، ص. 230.

مكانك تدور في الماضي. العالم حولك يتحرك وأنت مع الورق والكتب والذكريات. قلت لها: أشعر أن قلبي مخزن للحب. والذكريات ليست سوى جزء منه[198]".

وأخيرا تزوجت من غني صاحب متجر كبير. لكنها لم تلبث [199]عنده سوى شهور قليلة وعادت إلى الشارع الذي أحبها وأحبته. وقيل إنها رفضت الزواج من آخرين. وانتشرت حولها الإشاعات. "أصبحتُ أرقبها. قالت لي ذات يوم: هل لا زلت تكتب تاريخي؟

قلت لها: بدقائقه.

قالت: ولكنك لا تعرف الحقيقة.

قلت: الحقيقة دائما لا تقال لأنها لا تُرى.

قالت: إذًا ما ذا تسجِّل؟

قلت: عواطف الناس نحوك، عواطفهم الصادقة وعواطفهم الكاذبة.

قالت: وهل تكفي؟

قلت: أحيانا".

وهكذا يتفلسف الراوي معها بعد أن اعتادت على قراءة الكتب التي يهدي لها، وتعودت معه على تجاوز التفكير السطحي والبعد عن الاهتمام بالجسد وبالمظاهر.

"قالت مرة: كم عمري عندك؟

قلت: الزمن كله.

قالت: هل أنا خالدة؟

قلت: بالنسبة لي نعم.

قالت: وبالنسبة للآخرين؟

---

[198] نفسه، ص. 234.

[199] نفسه، ص. 236.

قلت: عمرك سنوات... عند البعض أنت بعمر الزهور، وعند البعض الآخر بعمر ما يمتلكه من نقود. وعند البعض بقدر جمالك الذي يذوي، وعند غيرهم عمرك مثل قاتك. صباحا أخضر ومساء غيره"[200].

سألته إن كان يحبها، ففاجأها بالقول إنه لا يدري. لكن الزمن يمضي وهي تزداد شحوبا وحزنا وكآبة، وإن حاولت أن تحتفظ معه بمرحها وطفولتها. وتزداد الإشاعات والثرثرة حولها. وتزوجت من جديد. ولكنها عادت إلى الراوي وإلى المدينة حزينة تترقرق الدموع من مقلتيها لأن البعض اعتدى على حقوقها. وزاد الفقر في المدينة، وغلت أسعار ما تجلب من الجبل، وانخفض سعر النقود وحل الخوف. وعوقب صاحب الكتب بالسجن لأنه اتهم بحبها. داومت على المجيء ببضاعتها إلى الشارع والناس يشترون منها دون أن ينظروا في عينيها ويمضون كالأشباح. وأصبحت زياراتها للشارع متقطعة. وحين تحضر لا تعطي أحدا فرصة الحديث معها. وبدأت تفقد سحرها القديم.

"ومرت ذات يوم وقالت دون أن تجلس: هل نسِيتَني؟

قلت: وهل أنسى عمري؟

قالت: ألا تزال تحلم كما كنت في الكتب؟

قلت: أليس الحلم أفضل من الواقع؟ ومضت"[201].

وبعد مرور عام عادت وكانت جميلة. وسألها إن كانت قد وجدت في شارعه من يفتح قلبها؟ أجابت بأن قلبها ما يزال شابا. وأن فارسا مجهولا شق طريقه إلى قلبها لكنه ضاع في صفحة من صفحات الكتب التي كان الراوي يعطيها.

---

[200] نفسه، ص. 237.

[201] نفسه، ص. 243 . 244.

إنها من القصص القليلة التي كتبها مُحَمَّد عبدالولي للتعامل مع موضوعات داخلية لا علاقة لها بالمهاجرين والغربة خارج الوطن أو عن معاناة من ظلوا داخل البلاد من الفراق ينتظرون عودة الحبيب أو مراسيله وهداياه وخيره.

وهكذا يمكن لهذه القصة أن تُقرأ على أكثر من مستوى. إذ يقدم مُحَمَّد عبدالولي بعض مفاتيح الرمز الذي ترمز إليه حين يقول إن أمها كانت جميلة مثلها عام 1948، عام الحركة الدستورية، وأن الناس أحبوا أمها كما أحبوها، وأن أول من استولى على قلبها أحد الضباط، وأن من تزوجها لفترة قصيرة تاجر غير يمني، وأن كلا يحبها على طريقته ويريدها لنفسه لكنه لا يعرفها كما يعرفها رفيق الكتب والمكتبات، وأن الراوي صاحب الكتب الذي يحبها حبا رومانسيا قد دخل من أجلها السجن وخرج ليواصل حبه الرومانسي معها ويتمسك بها مدى الزمن. ألا يشير هذا الرمز إلى الجمهورية وإلى الأحلام الجميلة التي ارتبطت بها وبدأت تخيب بسرعة دون أن يتخلى عنها أصحاب الكتب والنظريات الذين أدخلهم حبها السجون والمعتقلات وأصابهم بالخيبات والإحباطات؟

ومن حيث اللغة، يعطي الكاتب لنفسه، بعد أن تمرن على كتابة القصة القصيرة وامتلك فنه وامتلأ ثقة بنفسه، الحرية لكي يصف ويتفلسف ويتأمل ولا يلتزم بتقنية محددة لكتابة القصة. يريد أن يعبر عن نفسه وعما يعتمل في أحاسيسه من مشاعر وكفى. وبذلك تكاد تكون قصة "وكانت جميلة" من ذرى ما بلغ مُحَمَّد عبدالولي من فن ومن أدب رفيع.

أما القصة الثانية في هذه المجموعة فهي بعنوان "ليته لم يعد"، وفيها يعود مُحَمَّد عبدالولي إلى موضوعاته الأثيرة، الغربة في الخارج ومعاناة من في الداخل من تأثيرات هذه الغربة الإجبارية بحثا عن فرص عمل وعن عيش كريم.

ترددت الأصوات في الجبل أن رجالا قادمون يحملون نعشا لشبح لم يمت بعد. والقرية تعيش حالة قحط، الريح جافة، والأرض عطشى. ومع ذلك يواصل الرجال والنساء بذل الجهود علَّ المطر ينزل لتجود الأرض بالخير.

يهاجر الرجال ويعودون نعوشا محمولة.

الأم وطفلاها الاثنان يعملون في الجبل وينتظرون عودة الأب. سمعوا أن أباهم في الطريق. عادت المرأة بسرعة لتستقبل زوجها العائد. لا يتذكر الطفلان وجه أبيهم. حين هاجر الأب كان أكبرهما صغيرا لا يدرك وكان الأصغر ما يزال في بطن أمه. أعدَّت الزوجة قهوة لزوجها العائد. أرادت أن تعد له عشاءً مناسبا. لكنه مريض محمول على جنازة. وضعوه في غرفة النوم. تركوه لها كي تعتني به هيكلا عظميا ممددا على السرير، لا يملك شيئا. صرف كل ما كسب من النقود على علاج لم يأت بنتيجة.

ترددت الزوجة على الأولياء والصالحين. لا مستشفيات هنا ولا أطباء ولا عيادات. ووزعت نقودا وحبوبا وسمنا على من يقرأ القرآن عله ينهض من عثرته. لكنه ظل مشلولا على السرير لا يتحرك. "عيناه تزوجتا بالسقف. ورأسه يتحرك ولكنه لم يمت"[202].

ونأتي هنا لتناول القصة التي أعطى عنوانها لهذه المجموعة القصصية، وهي "شيء اسمه الحنين"، وفيها بعد فلسفي مميز أراد الكاتب من إطلاق عنوانها على المجموعة أن يلفت النظر إلى فكرته العميقة عن الوطن وعن الحنين الميتافيزيقي إليه الذي يجعل كل من تركه يرتبط به ويحن إليه على الرغم من الفرص التي قد تتاح له في بلدان المهجر، ومن المضايقات والصعوبات التي قد يتعرض لها في وطنه. تدور أحداث القصة خلال حوار بين الراوي وصديقه داخل سيارة تقطع الطريق من صنعاء

---

[202] نفسه، ص. 248.

في شرق البلاد إلى تهامة غرب البلاد، وهو ما يسمح لهما بتأمل طبيعة البلاد وتضاريسها ومواردها وما يمكن أن تعطي من خيرات وثروات متنوعة.

قال الصديق المتذمِّر: "هذه البلاد تقتل في الانسان حاسة التفكير، تُبَلِّد الحس، وتنهي مع مرور الزمن نشاط خلايا المخ القابلة للتفكير. إننا نتجمد، نتبلد، نموت كل يوم"[203]. وتواصل السيارة انحناءاتها وتتلوَّى في الطريق الجبلي، والمطر ينهمر، ومسَّاحة السيارة تحرك المياه المنهمرة على زجاج السيارة لتسمح بمواصلة السير. ويشكو الصديق المتذمر من أنه عاد من الدراسة في الخارج وضيع الفرص التي كانت مفتوحة أمامه للبقاء في الخارج، وعاد ليضيع عمره. ويتخوف إذا عاد للهجرة من جديد من أن الفرص لن تكون متاحة كما كانت.

يرد عليه الراوي قائلا: "ما ذا نفعل نحن المساكين الذين حُكِم علينا بالبقاء هنا ربما إلى الأبد، إذا كنت أنت الانسان الغير مرتبط بشيء لا عائلة، ولا أطفال، وأمامك المستقبل كاملا، فأنت شاب صحيح الجسم، ستجد أمامك أمريكا كما تركتها وربما أكثر نضجا وأكثر شبابا"[204]. لكنه يواصل التذمر ويقول إن ما حوله يشير إلى أن الناس هنا يعيشون في كتاب تاريخي قديم، وأنهم ليسوا في عالم اليوم. يئس حتى من الوطن والحرية والمستقبل والضمير وكل القيم التي رفعها يوما ودعا إليها. أصابه الإحباط وخيبة الأمل في كل شيء في بلد لا يتحرك إلى الأمام. كفر بوطن ليس له فيه شبر يؤويه. "الوطن هو ذلك الذي تستطيع أن تغيِّر فيه. أن تستنبت فيه أشجارا جديدة. أن تمنحه ويمنحك الحب.... الوطن حيث تعمل وتكدح وتفكر ".

وينتقد المجموعة اليسارية التي انتمى إليها قائلا: "عندما دخلت مع مجموعة اكتشفت أنني أعيش وأعمل وسط مجموعة من المجانين. اليساريون عندهم كلمات لا

---

[203] نفسه، ص. 260.

[204] نفسه، ص. 261.

يعرفون تفسير معناها"[205]. ويصور حال التناقض بين الواقع الصعب وأفكار يسارية اعتنقها في الخارج وعجز عن أن يكيفها للواقع الصعب الذي وجد نفسه يعمل فيه ويعيش داخل الوطن. التعامل مع الأفكار والمبادئ سهل لكن الإبداع في معرفة الواقع وتكييف النظريات لتتناسب مع صعوباته وخصوصياته صعب.

وأخيرا، ينصفه الراوي، ويقول إنه عمل بصمت، واستخرج المياه من الأرض، واستزرع الأراضي بصمت، وعمل أكثر من الآخرين، وها هو اليوم يهِم حزينا بالعودة إلى البلاد التي انتقدها وناضل ضدها. شاهد دمعة حزن تترقرق على خده. كان يتألم بصمت. إنه لا يهاجر من أجل لقمة العيش مثل بقية المهاجرين إلى بلدان الجوار، لأنه متعلم ومتخصص ويحصل على راتب محترم. يهاجر بحثا عن ذاته. لكنها في كل الأحوال هجرة وغربة عن الوطن. وحين أفصح أنه لن يعود إلى هذي البلاد لأنها قهرته بثباتها وعدم استجابتها لصوت التغيير، قال له الراوي: في داخل كل منا "شيء اسمه الحنين" يشدنا إلى الوطن حتى لو كنا في الجنة.

يعود الكاتب في هذه القصة لموضوع الغربة ولكن من زاوية وجودية غير تلك التي تدفع الناس للهرب من الظلم والفقر بحثا عن لقمة عيش كريم. إنه هنا يتناول الغربة داخل الوطن حيث لا يجد المرء له مكانا يحقق فيه ذاته في وطنه، والغربة داخل الذات حيث يحس اليساري والمثقف أنه غير مفهوم، وأنه يصرخ في وادٍ سحيق لا يسمعه أحد، ولا يأبه لوجوده ولما يقترح لتطوير بلده أحد، وتلاقي قِيَمُه ومُثُلُه الرفض وفي أحسن الأحوال التجاهل.

وفي قصة "سينما طَفِّي لَصِّي"[206] تظهر روح مُحَّد عبدالولي الساخرة، فهي مقطوعة سريالية بديعة مرسومة بلغة سهلة يفهمها الجميع. يرمز فيها لليمن بصالة سيناماَ في مدينة صغيرة وضيقة وقذرة. والناس متشابهون. تَعرِضُ صالة السينما

[205] نفسه، ص. 163.

[206] "لَصِّي" النور تعني باللهجة اليمنية "اشعِل" النور.

الوحيدة لأول مرة فيلما أجنبيا ليشاهده جمهور اعتاد على مشاهدة أفلام قديمة تقليدية ولا يعرف لغة الفيلم الأجنبية، والفيلم غير مترجم وغير مدبلج، والجمهور غير معتاد على مثل هذه الأفلام. وبسبب الفراغ والملل يُقبِل الجمهور على أي عرض حتى لو كان غير مناسب وغير مفهوم. صالة السينما مقسمة إلى بلكون فيها أناس متعلمون وأغنياء وعلِّية القوم، ثيابهم نظيفة، وأحاديثهم خافتة، وصالة يحتلها سكان الأزقة والحارات الشعبية، فقراء، ثيابهم رثة، وأطفال غير مؤدبين. يتأخر عرض الفيلم كثيرا ويبدأ الصفير من الصالة. وبعد قليل من الصبر والهدوء تتجاوب البلكون، ويبدأ الدق على الكراسي وضرب الأرض بالأقدام، ولا تستجيب إدارة السينما لاحتجاجات الجمهور ولا تهتم بها. انطفأت الأنوار وخفتت الأصوات. وبدأت عروض متفرقة من الدعاية لبضائع لا يستهلكها المشاهدون. وتعود الأضواء من جديد. وتندفع أصوات موسيقية صاخبة ومزعجة، وتعلو أصوات الباعة داخل الصالة يعلنون عما يبيعون، سندوتشات ومشروبات باردة وساخنة وبطاطس مقلية أو مسلوقة، وسجائر. يخرج بعض المشاهدين خارج الصالة ويبقى البعض. يعود الصفير والصراخ والضرب على الأرض وعلى الكراسي لأن عرض الفيلم تأخر. ويزيد الصفير وتعلو الأصوات والزعيق والضحكات. وتنطفئ الأنوار ويبدأ الفيلم. ولكن بدلا من أن يبدأ بأسماء الممثلين والمخرج ومؤلف الموسيقى يبدأ بصراخ وبخيول تركض ومعارك لا يعرف المشاهدون بين من ومن، وتتدفق دماء وتتدحرج رؤوس، يبدأ من منتصف الفيلم وليس من أوله. وتضاء الأنوار في السينما من جديد لإصلاح الخلل. وبدأ النقاش بين المشاهدين: قال البعض الأفلام الأجنبية تبدأ هكذا من وسط الفيلم وليس من بدايته، وقال آخرون إن هذا خطأ من الإدارة التي لم تعرف كيف تعرض الفيلم بصورة سليمة.

وانطفأت الأنوار من جديد وظهرت على الشاشة أسماء لكنها كانت نهاية الفيلم وليس بدايته. وحدث صراخ واحتجاج. وأضيئت الأنوار وأصلح الخطأ.

وأطفئت الأنوار وظهرت الصور واضحة ولكن دون صوت. وعلا من جديد الصفير والصراخ والضرب على الكراسي وبدأ قلع بعض الكراسي في الصالة. الجمهور يصرخ مطالبا بالصوت. وأضيئت الأنوار وأعيد إصلاح الخلل، وظهر الصوت ولكن بصورة غير مطابقة للصور. الصورة في واد والصوت في واد آخر. وتم إصلاح الخلل ولكن اكتشف المشاهدون أنه لا وجود لترجمة ولا لدبلجة، وعلا الصراخ، وزاد الاحتجاج، وبعض المشاهدين يطالب بالهدوء ليسمع الصوت. ولكن حتى لو توفر الهدوء، لا أحد يعرف لغة الفيلم. تارة يظهر الصوت دون صور، وتارة تظهر الصور دون صوت. وأحيانا تظهر الصور مقلوبة، أو الصوت متأخر عن حركة شفاه الممثلين. وهكذا تستمر الفوضى والاضطراب. إدارة غبية عرضت فيلما غير مناسب للمشاهدين، وعاجزة عن عرضه بشكل صحيح، وغير مبالية باحتجاجات المشاهدين، وجمهور يواصل المشاهدة لفيلم لا يفهم لغته ويحتج مطالبا بمواصلة عرض لا معنى له. ولا أحد يفهم الآخر أو يهتم بالآخر أو يهتم بالمعنى وبالغاية وبالمنطق البديهي لسير الأشياء.

القصة مقطوعة سريالية ساخرة عن أحداث تتتالى لتخفف من ملل جمهور فوضوي عابث وإدارة عاجزة ولا مبالية، كل هذا بلغة بسيطة ومعبرة، وجمال عفوي وتعبيرات واقعية وعميقة تدعو للضحك والتأمل معا.

ليس من باب الصدفة أن أجعل تناول هذه القصة خاتمة لتناول مسيرة مُحَمَّد عبدالولي الفنية، فهي بحق تكاد تمثِّل عصارة فكره بعد تجربته الغنية في التعامل مع الواقع اليمني والعربي والعالمي. لقد كان فنانا عبقريا حاول منذ وقت مبكر في حياته أن يساهم في تغيير أحوال وطنه، وأن يساعد في تطوره وفي إخراجه من هامشيته وتخلفه، ولكنه اصطدم بركام من التخلف العاجز عن التفاعل مع عالمه وتغيير أوضاعه الموروثة، وصُنع واقع أفضل يليق بالإنسان اليمني. وإذا بالكاتب الفنان يصطدم بالعقبات الكثيرة ويدفع من معاناته وحياته ثمنا باهظا لتفتحه ولرفضه للظلم والاستبداد، ولرقة مشاعره، ولتعاطفه مع المعذبين في وطنه. وانتهى به الأمر يتأمل

صالة "سينما طفي لصِّي" عبثية لا تتحرك ولا تستجيب لدعوات العقل والمنطق والضرورة، يحاول أن ينأى بنفسه عن هذا العبث فيقع في قبضة قدر أشد عبثا لا يترك له لحظة من الحياة لمواصلة تأمل مشهد الدمار المستديم، فترتاح روحه إلى الأبد.

لقد كانت حياة مُحَّد عبدالولي وتجربته أكبر مثال على أن الامتزاج الجميل بين الأجناس واللغات والثقافات والتجارب، بروح واعية منفتحة متسامحة، وصهر كل ذلك بموهبة فذة وقدرة على النفاذ إلى ما وراء قشور الظاهر للنفاذ إلى الإعماق الإنسانية، كلها كفيلة بصنع فن بديع، وإنتاج قيم نبيلة، وخلق معاني حضارية متسامية تبقى خالدة مدى الزمن.

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

الفصل التاسع

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

بيان الشعر الجديد في اليمن

ليس من باب المبالغة القول إن المقدمة التي كتبها عبدالعزيز المقالح بتاريخ 9 سبتمبر 1971 لمجموعة "مارب يتكلم" الشعرية، التي تجمعه مع الشاعر الرائد في الشعر الحر عبده عثمان، قد كانت وثيقة يمنية ثقافية تاريخية فارقة في تطور الشعر في اليمن. فقد عرضت بحماسة واقتناع ووعي كل الحجج التي دارت خلال الصراع بين القديم والجديد في الثقافة العربية ونقلتها إلى الحركة الثقافية في اليمن، وزودت كل من يتعاطف مع تطور فن الشعر أو يتفهمه بأدوات نقدية جديدة وبدفاع مجيد يستطيع أن يستند إليه في الدعوة إلى التغيير في فن الشعر في اليمن لمواكبة التغييرات التي بدأت البلاد تشهدها وبخاصة في المجال السياسي، بالانتقال من نظام العزلة والانغلاق والتخلف إلى النظام الجمهوري بوعوده للتغيير والتطوير. وترافق كل ذلك مع وصول اليسار في عدن إلى الحكم وما أطلق في حينه من آمال عراض ووعود حالمة.

ولا شك أن حركة الشعر في اليمن قبل هذا البيان الأدبي المتحمس، وهذا العرض لضرورة أن يتجاوز الشعر في اليمن القيود التي كبلته وجعلته عاجزا عن مواكبة ما يجري من تجديد في الشعر العربي، قد اختلفت بعد صدور هذا البيان عما كانت عليه فيما مضى، وأن حركة التجديد الشعري قد فرضت نفسها بعد ذلك كمسلمة من مسلمات الحياة الثقافية في اليمن. فقد وجد الشعراء الذين كان فنهم ومكانتهم الشعرية قد تكونا قبل ذلك أن عليهم أن يتحركوا وأن يفعلوا شيئا، وألا يراوحوا في مكانهم. ويُنقَل عن الشاعر عبدالله البردوني أنه فكر بإحداث نقلة في أشكال الشعر التي كان قد أصبح راسخا فيها، لكنه وجد أنها ستكون مغامرة غير محسوبة قد لا تنجح النجاح الذي يجعله في صدارة الشعراء اليمنيين، وقد تؤدي إلى زعزعة الأسلوب

الذي تمكن فيه من إثبات وجوده في طليعة الشعراء اليمنيين في عصر الجمهورية، واستولت عليه الخشية من ألا ينجح في أن يكون رائدا في هذا المجال. ولذلك استقر رأيه وحسم أمره بأن يُركز جهوده على التجديد في المضامين وفي الصور الشعرية والأخيلة وفي الموسيقى الداخلية والحوار والمساجلة في سياق القصيدة، وظل في الوقت نفسه متابعا للتطورات الجديدة في الشعر العربي ومتعاطفا مع حركة التجديد متفاعلا معها في كتاباته، وكان ينفر من الشعراء العموديين قليلي الموهبة الذين يحاولون تغطية قلة زادهم في فن الشعر باستخدام حضوره البهي لمهاجمة الشعر الجديد وشعراءه ونفيِ كونه ينتمي إلى الشعر العربي. ويتناقل الناس عنه في هذا الخصوص كثيرا من التعليقات الساخرة التي تتعامل مع هذه الحالة، مثل قوله لأحد الشعراء العموديين غير الموهوبين "فيك خصلة من خصال النبي وردت في قوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له)".

أما الشعراء الشباب فقد اعتمدوا هذا الشكل الشعري الجديد وغامر كثير منهم بكتابة القصيدة الحرة وفقا لمفاهيم هذا البيان ولثقافتهم التي استمدوها من متابعة حركة الشعر العربي الجديد، فنجح بعضهم وأخفق البعض الآخر، لكن الشعر الحر فرض نفسه، وبدأ الشعر العمودي بالانزواء في مقايل الشعراء القدامى، الذين كانوا قد تمكنوا وبنوا تجاربهم قبل ذلك بكثير وبدأُوا بالتراجع والانزواء.

وليس صدفة اختيار إطلاق عنوان "مارب يتكلم" على المجموعة الشعرية الأولى المشتركة بين المقالح وأحد رواد التجديد الشعري في اليمن، بل كان اختيارا موفقا، لأنها تشير إلى أن اليمن الذي يرمز له بمأرب قد خرجت من الموت ومن الإهمال والصمت والحلم الغامض بأن تصل يوما ما إلى مصاف الدول العربية حتى المتخلفة منها، وقفزت فوق حواجز العزلة، وبدأت بالمشاركة في حركة الثقافة العربية الجديدة.

"وأخيرا تكسَّر الصمت، وتكلَّم مارب، وخرج اليمن من ظلام القرون الوسطى، أشعث الرأس، دامي القدمين، خرج بعد صمت طويل ليقول كلمته الشاعرة"[207].

ومضت المقدمة – البيان، أو الوثيقة التاريخية، في بسط نظرة متكاملة إلى حركة التجديد في الشعر العربي، ومنها حركة الشعر الجديد في اليمن. "وحتى نحن في اليمن حيث كنا إلى سنوات معدودة، ولا نزال للأسف، المثال القريب للتخلف المادي والفكري والفني، ... كان لا بد للشعر في اليمن، وهو كما ذكرنا سالفا وفي كل مكان القاسم المشترك الأعظم مع الموسيقى، كان لا بد أن يحصد ثمار هذا التغيير البسيط الذي طرأ على الموسيقى، وأن يفيد من التطورات الهائلة التي لحقت بفن الشعر خارج اليمن، حيث وجد الشعر نفسه في أكثر الأقطار العربية أمام تحدٍ سافر من بقية الفنون التي تجاوزته في رحلتها المتقدمة بعد أن كان لعصور خلت قد تخطاها بمسافات طويلة[208]".

ومضت المقدمة في تأصيل حركة الشعر الجديد بمتابعة ما دار من مناقشات ومن جدل حول أشكال الشعر ومضامينه، وهو جدل كانت الثقافة العربية قد حسمته منذ نحو عشر سنوات، أي منذ مطلع الستينات، لكن المقدمة تشعر أن الوسط الثقافي اليمني لم يخضه بعد، وأنه قد آن الأوان لخوضه بقوة ووضع نهاية لتخلف حركة الشعر في اليمن عن مثيلتها العربية. فقد دارت عجلة الزمن في البلدان العربية غير اليمن "وسارت بالشعر وبالناس، وأصبح الشعر الجديد نغمة محببة مألوفة من نغمات العصر. وبعد أن كان مصير الشعر الجديد معلقا في الفضاء، أصبح مصير الشعر التقليدي العمودي هو المعلق في غير ما فضاء، وصار هذا الأخير يعاني من

---

[207] عبدالعزيز المقالح، مقدمة مارب يتكلم، ص. 5.

[208] نفسه، ً. 7 . 9.

عزلة النشر ومن إهمال الجمهور القارئ ما لم يكن يعاني مثله الشعر الجديد في السنوات الأولى لظهوره"[209].

ويبرر كتابته لهذه المقدمة بالقول "وإذا كان الأدباء والنقاد في أجزاء كثيرة من الوطن العربي قد نفضوا من زمن أقلامهم عن هذا الموضوع كما سبق وأن أشرت، فإننا نحن الذين خرجنا حديثا من عصر الإمام، وربما كان جيران لنا خرجوا بدورهم من عصر الناقة كذلك، ما زلنا وما زالوا بحاجة إلى استرجاع ما قيل، وتذكر ما دار من مناقشات حادة وهادئة حول مسيرة الشعر الجديد، لكي نبدأ حياتنا الأدبية إن استطعنا من حيث انتهى أشقاؤنا لا من حيث ابتدأ هؤلاء الأشقاء. ولعلنا نحن في اليمن، حيث لم نفرغ من شيء وربما لم نبدأ بعد شيئا، لعلنا أحوج الجميع إلى استذكار واسترجاع جوانب ولو صغيرة من معارك الحياة الأدبية في السنوات العشرين الماضية ليس في مجال الشعر وحده، بل وفي بقية المجالات الأدبية الأخرى كالقصة والمسرحية والرواية"[210].

ومضى يستعرض مفهومه للتجديد في الشعر باعتباره صدًى لإيقاع العصر وأثرا بارزا للبصمات الفكرية في القرن العشرين على مشاعر العرب، وعلى مشاعر المثقفين ووجدانهم. ويحدد ما تعنيه الحداثة الشعرية، فهي لا تقتصر على الشكل الخارجي للتعبير الشعري، ولا التحرر في نظم التفعيلات والعلاقة فيما بينها، "وإنما في حداثة الرؤية" واستلهام أخلاقيات وجماليات العصر الذي يعيش فيه الشاعر ويتفاعل مع حركته ويصغي لنبضه وتجدده.

ويتابع محاولات التجديد في الشعر العمودي في عصر ازدهاره خلال القرون الأولى من الحضارة العربية الإسلامية حتى "لفظ أنفاسه" في أواخر القرن الخامس الهجري. وكيف أن شعراء كلاسيكيين مستحدثين مثل أحمد شوقي وحافظ إبراهيم

---

[209] نفسه، ص. 9.

[210] نفسه، ص. 10.

وبشارة الخوري ومعروف الرصافي أرادوا استرجاع روح الشعر العربي في عصور ازدهاره القديم ليعيدوا نسمات الماضي وروائحه المحببة. ثم يمر على محاولات عباس محمود العقاد، في بدايات تطلعه الثقافي، انتقاد هؤلاء والدعوة إلى تجاوزهم وتبيين ما يعتور قصائدهم من تفكك ورتابة موسيقية، وإلى تجاوز جمود الشكل والمضمون، لكن العقاد نفسه أصبح في أخريات حياته أكبر أعداء الشعر الجديد، فقد تجاوزه الزمن وتجاوزه التجديد ولم يعد قادرا على التفاعل مع حركة الشعر الجديد الذي لم يعد يقف عند حدود ما يرسمه العقاد وأمثاله. وسرد المقالح توكيدا لدعوته مجموعة شهادات ووثائق مؤيدة لحركة الشعر الجديد، مثل طه حسين الذي قال: "فلينشئوا شعرا حرا أو مقيدا، جديدا أو حديثا، ولكن ليكن هذا الشعر شائقا رائقا، ويومئذ لن يجدوا منا إلا تشجيعا أي تشجيع، وترحيبا أي ترحيب، ودفاعا عنهم إن احتاجوا إلى الدفاع"[211].

ونقل عن الناقد عبدالقادر القط حماسته للشعر الجديد، وعن أستاذ الأدب مُحَمَّد النويهي مؤلف كتاب "قضية الشعر الجديد" رأيه القائل إن الشكل القديم يبتلع المضمون الجديد، وإن المضمون الجديد لا يمكن التعبير عنه تعبيرا تاما إلا في شكل جديد. لأن قدم الشكل لا بد أن يضيّع قدرا من جدة المضمون، واعتبار أن "الشكل التقليدي عندنا قد بلغ من قدمه أنه لم يعد يقتصر على أن يهدد بعض جدة المضمون الجديد، بل هو يهدرها كلها. فقد فتح (الانطلاق الشكلي) الطريق واسعا أمام الشعراء الجدد إلى انطلاق مضمون فكري وعاطفي لم يشهد الشعر العربي له نظيرا من مئات السنين، فتح أمامهم سُبُلا جديدة للتفكير والشعور ما كان ممكنا وُلُوجها في نطاق الحدود الضيقة الجامدة للشكل التقليدي، كما مكنهم من درجة عالية من الترابط العضوي بين الشكل ومضمونه"[212]. كما يتحدث عن ثراء الشعر الجديد

---

[211] نفسه، ص. 17.

[212] نفسه، ص. 18 . 19.

وإضافاته الجديدة. ويقتبس من لويس عوض قوله إن "أكثر شعر أتباع القديم ماسخ حتى بالمقاييس المحلية"[213].

ويؤصِّل المقالح لمشاركة اليمن في ريادة الشعر الحر ويعيدها إلى علي أحمد باكثير، وهو تأصيل قد يجد البعض صعوبة في قبوله، لأن باكثير عاش منذ الثلاثينات في مصر وكان يعد من كتابها وأدبائها، وأن تجربته قد كانت من باب اهتمامه بالمسرح، وبخاصة من حيث تسهيل ترجمة شكسبير شعرا. فقد بدأ بمحاولة ترجمة شعر شكسبير شعرا لكنه وجد ما ترجمه نظما تقليديا متكلفا وغير مستساغ وساذجا، فلجأ إلى الترجمة بشعر مرسل مقبول ومستساغ. ولم يواصل الانهماك في الشعر الجديد ولم يتابع التجريب في مجال تجديد الشعر. وفي الأخير تراجع عن اندفاعات مرحلة الشباب ورحل وهو كاتب تقليدي شديد البعد عن الحداثة.

وانتقل المقالح بعد ذلك إلى الرئد الحقيقي للشعر الجديد في اليمن وهو عبده عثمان، شريكه في مجموعة "مارب يتكلم" الشعرية. ومع أن شاعرا آخر بدأ محاولاته الأولى في الشعر الحر مع عبده عثمان، هو زميله في الدراسة في مصر وفي قيادة "المؤتمر الدائم للطلبة اليمنيين" وفي الانتماء مبكرا إلى اليسار، هو إبراهيم صادق، لم يرد له أي ذكر في هذه المقدمة البيان التاريخي المؤصل لمسيرة الشعر الجديد في الحركة الثقافية اليمنية. وكذلك الحال بالنسبة لمحمد أنعم غالب الذي يعترف له المقالح، في مقدمته لمجموعتي إبراهيم صادق الشعريتين، بالأسبقية.

ومعروف أن إبراهيم صادق حتى قبل أن يغادر اليمن سنة 1947 للدراسة في الخارج كان، وهو ما يزال طفلا أو مراهقا، متفوقا وفصيحا ومعروفا بين زملاء المدرسة في الحديدة. يقول عنه زميله في الدراسة "وكان إبراهيم صادق معروفا بذكائه ولباقته وموهبته، وكان دائما يفوز بالمركز الأول في الدراسة كما كان يخطب دائما باسم

---

[213] نفسه، ص. 20.

الطلبة"[214]. وهو ما يؤكده زميل آخر له في الدراسة في لبنان حيث يقول عنه "كان إبراهيم من أذكى الطلبة اليمنيين وخاصة في مادة اللغة العربية وكان شاعرا وأديبا"[215].

وتدل مجموعتاه الشعريتان على أنه بدأ الشعر في وقت مبكر في حياته. ولأننا نتناول هنا موضوع الشعر الجديد، نجده قد حاول منذ وقت مبكر وهو بعد طالبا في مصر سنة 1951 كتابة شعر لا يتقيد بشروط عمود الشعر العربي. كما في نشيد "أنا يمني":

وطني جهل وأمراض وفقر

ومشانيق وسجان وقبر

...

وطني شعب عراة

وسلاطين طغاة

كل سلطان إله

لا يرى ربا سواه

صائحا يا أيها التاريخ سجل:

أنا يمني

وطني العاري ينادي وينادي

مستغيثا كل ذي عقل نظيف

صائحا عرضي وأرضي وبلادي

ضائعا في ألف سلطان وسيف

إن أمي تحتضر

وأبي يشكو رَدَاه

---

[214] حسن مكي، أيام وذكريات، ص. 34.

[215] محمد عبدالعزيز سلام، ذكريات وأحداث يمنية، ص. 47.

فإلام ننتظر

ألِيُفنِينا الطغاة؟[216]

---

[216] إبراهيم طاهر، عودة بلقيس، ص. 56 . 57.

أو كما في قصيدة "من مذكرات عامل يمني" التي ذكر في آخرها في المجموعة الشعرية أنها كتبت أيضا سنة 1951:

لا تفزعي

واغرورقت عيناه وانسابت بخديه الدموع

ومضى زمانا لا يعي

والذكريات تمر في عينيه آلاما وجوع

لا تفزعي

واستبسلي، زوجاه، إني تارك هذي الربوع

ما دام في أرضي إمام

يمتص عين الرضع والمرضعات

ويزيح في عنف بصيصا للشموع

لا تفزعي

لم يبق لي شيء هنا ما ذا معي

أرضي تلاشت في الضرائب

بيتي بقايا من خرائب

أرضي؟ لقد كانت لنا أرض بوادينا الظليل

ب-"الجاح" حيث الموج يجري

تحت أقدام النخيل

وكذلك في قصيدة "غدا، غدا سنلتقي" التي ذُكِر أنها كتبت سنة 1952، وفيها يقول:

غدا، غدا سنلتقي

يا أيها الليل انجلي

أيتها الشمس اشرقي

يا أيها الليل الثقيل الظل يا لون الغراب

حيرتني، أقلقتني

علقتني بين السحاب

حقا أموعدها غدا أم أن موعدها سراب؟

حقا غدا سنلتقي؟

أم أنني ذاك الشقي

يا أيها الليل انجلي

أيتها الشمس اشرقي

إلا أن محاولته الأهم كانت في قصيدة "عودة بلقيس" التي يذكر انه كتبها سنة 1955، بعد زيارة قام بها إلى صنعاء المعزولة الغريبة بعد أن عاش طالبا في بيروت والقاهرة ومر عبر مستعمرة عدن، وشاهد الفارق الشاسع بين المدن العربية التي تحاول أن تنهض وصنعاء الغارقة في الظلام المادي والمعنوي، وفيها يقول:

في ليل مطموس الأنجم

ضاعت صنعاء

كرضيع يستبكي أمه

بينا تفريه بلا رحمة

وتوارى في قبر لحمه

لم لا؟

لم لا تطفي نجمه

والنور عدو للأئمة

فلتطمس كسفاح أمه

كيلا يرى نور جسمه

...

غرقت صنعاء

غرقت في أمواج الظلمة

لم تطف غير مآذنها

فبدت كالأشباح الضخمة

أشباح مفزعة تسعى

تمشي تمشي معنا

وتطاردنا

بدروب ضيقة فزعى

تتلوى علينا كالأفعى ونصارعها وتصارعنا

ونخوض البحر بأنفسنا

أربعة ليس لنا زورق

والموج جياع

والبر سباع

والخوف ضياع

...

ولعل من المهم الإشارة إلى أنه قد كان لإبراهيم صادق ومُحَمَّد أنعم غالب السبق بين الشعراء اليمنيين في الإحساس بضرورة تحرير الشعر في اليمن من قيود تقاليد الماضي وتبنِّي الأسلوب الجديد في الإبداع الشعري. وظل الجدل حول أيهما الأسبق إلى كتابة القصيدة الجديدة قائما، ومن ثم أيهما رائد الشعر الجديد بين الشعراء اليمنيين. وينقل المقالح عن بدر شاكر السياب، أحد رواد الشعر الجديد البارزين في الثقافة العربية رأيا يمكن أن يكون أساسا مهما للاستناد إليه في بت هذه القضية. فهو يرى أن الريادة "كالأصالة تماما تتمثل في الجودة والإبداع وليست في السبق

الزمني أو في اكتشاف أساليب الخروج على الأقدمين"[217]. ولا شك أن إبراهيم صادق قد كان شاعرا منذ وقت مبكر في حياته، وكتب الشعر العمودي وتمرس على الثقافة الشعرية قبل أن يكتشف أثناء دراسته في لبنان ومصر الأسلوب الجديد في كتابة الشعر. وقد كان زميلا لمحمد أنعم غالب في الدراسة في القاهرة وفي معايشة الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي، وبخاصة في مصر، وكانا يعيشان الهم السياسي والثقافي معا والمعاناة نفسها. لكن مُحَمَّد أنعم كان مقلا في الشعر. ولم ينشر له قبل مجموعته الشعرية صغيرة الحجم والتي نشرت مؤخرا سوى قصيدته الشهيرة "الغريب" التي تتحدث عن معاناة المغتربين اليمنيين، وبخاصة أنه من منطقة يمنية سماها زميله مُحَمَّد عبدالولي "منطقة الطيور المهاجرة".

ومع أن إبراهيم صادق كان مقلا في الشعر أيضا، وترك آثارا شعرية قليلة لم تطبع إلا في وقت متأخر، فإن هواه طوال حياته قد ظل مع الشعر الجديد، وظل يحاول كتابة القصيدة الجديدة، وكان يعدُّ شاعرا بين الشعراء وأديبا مرهف الإحساس. وكان له حضور في الأناشيد الوطنية التي لُحِّنت في أول عهد الجمهورية مثل: "أنا يمني" التي أنشدها الفنان إبراهيم طاهر، وأنشودة "أنا الشعب" التي أنشدها في أول العصر الجمهوري مُحَمَّد مرشد ناجي، وأغنية "يا طير كم أحسدك" التي غناها أيضا مُحَمَّد مرشد ناجي. وهكذا فقد كانت موهبته الشعرية متعددة الوجوه وكان حضوره الثقافي كبيرا وإن انزوى في مدينة الحديدة منذ عودته من الدراسة في الخارج، وهو ما لم يسلِّط الأضواء عليه، ولم يتح له مزيدا من الاحتكاك ومن الحضور الثقافي اللذين عادة ما يكونان من نصيب أدباء العاصمة. كما أنه بطبعه الحاد وانفعاله السريع لم يكن ممن ينسج علاقات واسعه تسهل انتشاره والترويج له.

كما أن مسيرته الشعرية لم تتواصل وتتفاعل حين أقام في الحديدة مع ما شهد الشعر الجديد في اليمن وفي المنطقة العربية من قفزات بالقدر الذي كان عليه حين

---

[217] انظر مقدمة عبدالعزيز المقالح لمجموعة إبراهيم صادق "أغاني للشعب"، ص. 77.

كان طالبا يعيش في القاهرة. وقد يكون السبب أنه حين خاض تجربة الشعر الجديد كان قد تكون شعريا فلم تحدث القطيعة الكاملة مع شعره القديم ومع أساليبه القديمة. يتضح ذلك من خلال عنايته بلغته واختيار اللغة الأجزل والأكثر تراثية وقاموسية. ثم أضافت السياسة قيدا آخر جعله يحرص كل الحرص على مهمة التوصيل والوضوح على حساب البحث عن الصور المبتكرة والصياغات الفنية، والاهتمام بالتثوير والتعبير عن القضايا الاجتماعية التي تشغل الشاعر، مما جعل صوره الشعرية مباشرة وتقريرية، وهو ما أشار إليه زميله في الدراسة في القاهرة وفي الانتماء إلى اليسار عمر الجاوي في المقدمة القصيرة التي كتبها لما نُشِر من شعر إبراهيم صادق[218].

ومن يقرأ شعر عبده عثمان المنشور في مجموعة "مارب يتكلم" المشتركة مع المقالح وفي مجموعته الأخرى بعنوان "فلسطين في السجن" يدرك أنه من حيث المستوى الفني والتمكن من أساليب الشعر الجديد قد كان الرائد الحقيقي المؤهل للشعر الجديد في اليمن. فبعض قصائده الجديدة تعود إلى سنة 1957 وسنة 1958، وهي قصائد ناضجة لا تدل على أنها المحاولات الأولى لكتابة هذا النوع من الشعر الجديد. مثل قوله في قصيدة "عودة ذي يزن" التي تعود إلى سنة 1957، وهي السنة نفسها التي كان فيها الشعر الجديد في مصر ما يزال يكافح ليجد لنفسه مكانا في الثقافة السائدة وفي الذائقة الشعرية العربية والتغلب على المألوف شعريا طوال القرون الماضية:

يا من تغادر القبور

يا شعبي الذي يثور

لا بد أن يعود ذو يزن

وثائرون يهتفون في عدن

ومارب وحضرموت لليمن

---

[218] انظر مقدمة الجاوي لمجموعة "عودة بلقيس وأغاني للشعب"، ص. 7.

غدا ترى سنابك الخيول

مجنونة تدوس أبرهه

وتختفي إلى الأبد

عيون ليله المشوهه

العائدون في الطريق

طريقهم إلى معابد القمر

عليه تنثر النساء والصغار

ما أنبتت صنعاء من زهر

...

أو في قصيدة أسئلة عن ذي نواس التي تعود هي الأخرى إلى نفس العام 1957:

ما أقسى أن نحيا غرباء

كالأيتام بلا أحضان

أزهار في قلب الصحراء

مصباح تغرقه الظلمة

لا تملك غير الدمع المر

والوقفة عند الأسوار

ويطل سؤال

ويغيب سؤال

أين الفارس يا موج البحر

أين القوم وأين الخيل

أين الفجر وأين حدود الليل

....

أما المقالح فتعود أقدم قصائده المؤرخة إلى سنة 1961 وهي بعنوان "على أبواب شهيد"، كتبها في وداع الشهيد عبدالله اللقية، أحد الثلاثة الذين اتهموا بمحاولة اغتيال الطاغية أحمد حميدالدين في مستشفى الحديدة سنة 1961، أي قبل التغيير الجمهوري بسنة واحدة فقط، وفيها يقول:

أتسمح لي أن أمر ببابك؟

أتقبلني لحظة في رحابك؟

لألثم حيث هوى السيف

أقبس بعض الشعاع

لأقرأ بين يديك اعتذاري

لأحرق في الكلمات الحزينة عاري

لأشعر، لو لحظة، أنني آدمي

وأني بظلك صرت الشجاع

فإني جبان تخليت عنك غداة الوداع

تركتك للموت

للقاتلين

...

وحتى في القصيدة المؤرخة بسنة 1962، بعنوان "لو..."، حين كان ما يزال مشدودا إلى أوزان بحور الشعر العربي وحاول التحرر من قيود الشكل القديم ولكن على نحو مضبوط ومتزن، كانت المضامين الجديدة قد بدأت تؤثر بصورة ملحوظة على خياله وعلى صوره الشعرية ورؤاه الثقافية، كأنما كتب القصيدة أحد صعاليك القرن العشرين الذين يقسِّمون جسومهم في جسوم كثيرة كما قال الشاعر الصعلوك القديم عروة بن الورد، ويأخذ من المتخمين ليغيث الجياع، في رؤية مستمدة من ثقافة الزمن الجديد.

فمنها:

لو أنني شمشونها الجبار في ليل الضياع

وزعت كل الأرض بين الكادحين على المشاع

ألقيت ما جمع القساة المتخمون إلى الجياع

وكتبت للمستضعفين وثيقة العدل الجماعي

...

يا أصدقائي في التشرد والمجاعة والصلاة

لا تيأسوا من يومنا

يوم الجياع السمر آتي

أقسمت أن أحدو خطاكم في الطريق إلى الغداة

شعري لكم

عمري لكم

إني وهبت لكم حياتي

ولم تأت نهاية الستينات وبداية السبعينات حتى كان المقالح عن جدارة قد أخذ مكانه في أعلى ربوة الشعر الجديد تنظيرا ونقدا أدبيا وإبداعا شعريا. ومنذ تلك اللحظة بدأ الشعر الجديد مرحلة جديدة مختلفة تماما عما مضى، لها ما قبلها وما بعدها. وقد أشرت آنفا إلى مقدمته لمجموعة "مارب يتكلم" وكيف وضعت خاتمة للنقاش حول مكانة الشعر الحر في الحركة الثقافية في اليمن. ولم يعد أحد يجادل ويرفض الاعتراف بهذا الشعر أو يرفض أن يفتح له الباب إلى جنة الشعر. أصبح الجدل والنقاش حول ما إذا كان ما يكتب شعرا جديدا أو حرا أم لا. وهذا نقاش مشروع ومطلوب ولن يتوقف في كل عصر.

وقد بدأ المقالح التطبيق العملي لهذه الرؤية الشعرية الجديدة في إبداعه الشعري، ليشكل القدوة والمثال الذي يحاول الشعراء الآخرون أن ينسجوا على منواله، وهو

إبداع أثبت عمليا أن المقالح يمتلك الموهبة الكبيرة التي تمكنه من أن يكون ربان سفينة الشعر الجديد الذي بشر به في بيانه الشعري التاريخي. ومن ذلك قوله في قصيدة "مقتطفات من خطاب نوح بعد الطوفان":

قلت لكم من قبل أن يثور ماء البحر

قبل أن تعربد الأمواج

وقبل أن يغيب وجه الأرض

قلت الداء والعلاج

لم تحفلوا

لم تسمعوا

كنتم هناك في الغيوم، في الأبراج

أرجلكم ممدودة إلى السحاب

رؤوسكم مغروزة في الوحل والتراب

قرَّبت مشفقا سفينتي

أنفقت عمري أجمع الأعواد والأخشاب

قطعت وجه الليل والنهار

أقرأ في "الكتاب"

أشد مسمارا إلى مسمار

لكن صوتي ضاع

سفينتي تاهت بها الأمواج

فأبحرت خالية إلا من الأحزان والملاَّح

بكيت

شدني العذاب والألم

حين رأيتكم رأيت السفح والقمم

وقبضة الإعصار

أحزنني أن أشهد الأطفال

أن أشهد النساء

غارقة تضرع في ابتهال

تلعنكم

تبصق في وجوهكم يا أيها الرجال

يا أيها الأنذال

أحزنني أن تختفي البيوت والأشجار

أن تختفي الآثار

أن تغرق القباب

أن يغرق الشيوخ والشباب

أن تغمر المياه الزرع والمدائن

أن تغمر المآذِن

أحزنني أن ألمح البطون فوق الماء

مبقورة شوهاء

أحزنني، عميت، لم أعد أرى

شيئا من الناس، من القرى

تلاشت الألوان والأسماء

وأطبق الدجى

وغام وجه الأرض والسماء

...

وهكذا تتواصل القصيدة الأسطورة في مشاهد مسرحية مروِّعة تسحق الجمهور الضال الخانع المستكين، كارثة بعد كارثة، وخرابا تلو خراب، ومآسي وأحزانا لا نهاية لها. وهم مخدرون ضائعون مضيَّعون، صم بكم عمي، لا يستمعون لناصح، ولا لمن يرشدهم إلى طريق الخروج من مأساتهم ومن ضلالهم، ولا أمل في إنقاذهم وبث الأمل فيهم إلا أن يستفيقوا ويحسوا بما هم فيه من ضلال ويرفعوا رؤوسهم ولو قليلا فوق مياه الطوفان ويهزوا رؤوسهم ويحاولوا النهوض، ما لم فقد قضي الأمر:

فكان هذا الهول والأحزان

كانت الهزات

لا سفن البحر ولا الفضاء

تنقذكم من قبضة القضاء

فقد طغى الطوفان

وكان يا ما كان

ومنها:

وقفت تائه المسار

واريت حبي مثخنا

أطعمته طحالب البحار

أسقيته عصير الصمت

لم يزل إليكِ ضامئا

يفتش الأمواج والقواقع

تمر حوله الأيام تختفي

وهو هناك في المكان راكع

أنلتقي؟

ما أوجع السؤال

يعصرني

يحفر في الأعماق والعيون

دوائر الظنون

يورق الأشجار والظلال

....

وفي قصيدة "أيوب المعاصر" التي تعود إلى نفس العام وإلى نفس الشهر (لأن الشاعر أشار إلى أن القصيدتين قد كتبتا في باريس وفي إحداهما في شهر يوليو)، يستوحي فيهما الأساطير ويبني القصيدة من حجارتها. يقول:

أيوب

على طريقكم مصلوب

أمال رأسه

ألقى به على صدر مهشم منخوب

تجفل منه النظرات

تجفل القلوب

حاول أن يسكب دمعة أمامكم

كي تمنحوه بعض العطف والرثاء

تحسس الجفون

فتش أغوار العيون

محاولاته تحطمت

تبددت هباء

لا دمعة أجدت

ولم تعصر من الجفون ماء

....

ولم يكتف المقالح بالمقدمة الطويلة التي وضعها لمجموعة "مارب يتكلم"، بل كان وراء نشر ثلاث مجموعات شعرية كلها من الشعر الجديد باستثناء قصائد قليلة إن لم تكن جديدة من حيث الشكل فإنها جديدة من حيث المضمون ومن حيث الموسيقى والصور الشعرية والأخيلة، هي "فلسطين في السجن" لعبده عثمان، و"مارب يتكلم" مشترك بين عبده عثمان والمقالح و"لا بد من صنعاء" للمقالح نفسه.

بل إن افتتاح هذه الدعوة إلى التجديد في الشعر في اليمن بنشر مجموعة شعرية مشتركة مع عبده عثمان لها دلالة تجديد عميقة، فهي اعتراف وتكريس لما بدأه عبده عثمان منذ منتصف الخمسينات حين كان ما يزال طالبا يساريا من قادة "المؤتمر الدائم للطلبة اليمنيين في مصر"، وتفاعله مع التجديد الشعري الذي بدأه طلبة يساريون مصريون، ومشاركته في المعركة النبيلة التي خاضوها في تلك الفترة حتى نجح الشعر الجديد في فرض نفسه في الساحة الثقافية المصرية والعربية.

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

الفصـل العـاشـر

لكل محبي البروفيسور علي محمد زيد
تقدم لكم صفحة شخصية من ريمة
اول نسخة إلكترونية pdf
لكتابه الثقافة الجمهورية في اليمن
تحياتي: محمد غالب السعيدي

الإسهام الأهلي في تجاوز الركود الثقافي

ظلت الحركة الثقافية تعاني من الركود بعد قيام الجمهورية وانشغال الجميع بالدفاع عنها خلال سنوات الستينات. ولم يُعطَ للثقافة اهتمامٌ خاص. وظل المثقفون القليلون ممن تكونوا في الداخل فيما قبل الجمهورية يبحثون عن طريق خاص وعن بيئة مناسبة تسمح لهم بالعثور على أنفسهم، واختطاط طريقهم، وامتلاك القدرة على التفاعل مع الواقع الجمهوري الجديد، في حين لم يكن المثقفون القليلون الذين تكونوا في الخارج قد وجدوا بعد مكانا في الوضع الجمهوري الجديد. وكان الصراع السياسي والكفاح من أجل تثبيت الجمهورية والخوف عليها من السقوط تحت حوافر الضغوط والتحديات الهائلة يستغرق كل المشاعر وكل الجهود. وكانت الثقافة آخر اهتمامات السلطات الرسمية الغارقة في مواجهة الحرب الضروس والمعارضة القوية التي أبدتها القوى التقليدية في الداخل، والتي جعلت الجمهوريين يصطرعون فيما بينهم منذ الشهر الأول من عمر الجمهورية ولا يتوقفون للحظة للحوار مع بعضهم البعض، وتحديد أولويات تجمعهم معا للتصدص للحرب الشرسة على الجمهورية الوليدة ومواجهة التحديات الكثيرة وتحقيق الاستقرار والبدء بعملية التنمية المنتظرة.

وهكذا كان صدور أية مطبوعة ثقافية في عهد الجمهورية الأولى يعد حدثا ثقافيا مهما. وبثَّ صدور كتب تنطق باسم الثقافة الجمهورية الجديدة الفرحة في قلوب القراء الذين كان عددهم ما يزال محدودا. فاستقبلوا بفرح مجموعة مُحَمَّد عبدالولي القصصية "الأرض يا سلمى" أو كتاب "نظرة في تطور المجتمع اليمني" لسلطان أحمد عمر، على سبيل المثال، لأن هذه الإصدارات استجابت لحاجة القراء إلى منتج ثقافي يمني جديد يسد بعضا من الفراغ الذي يلمسه الجميع. كما أوضحت المجموعة

القصصية "عمنا صالح" لمحمد عبدالولي أيضا أن طريق المبدعين لم تكن مفروشة بالورود وأن السجن أو التشريد قد ينتظرهم عند مفترق الطريق.

وقد أيقن مُحَمَّد عبدالولي أن طريقه محفوف بالمخاطر. فقرر أن ينذر نفسه، منذ خروجه من السجن سنة 1970، للبدء بتأسيس الجهد الأهلي للمساهمة في تطوير الثقافة، وبخاصة من خلال إصدار الكتب. فاشترى مطبعة كان يمتلكها أحد أصحاب الصحف الأهلية في عدن وأسس في تعز دار نشر أسماه "الدار الحديثة للطباعة والنشر" وبدأ بإصدار الكتب. ومن بواكير إصداراته مجموعتان شعريتان رائدتان في مجال الشعر الحديث أو الشعر الحر، تستدرك بهما حركة الشعر في اليمن تأخرها عن مواكبة الشعر الحر في الثقافة العربية، الأولى مشتركة لعبده عثمان وعبدالعزيز المقالح، بعنون "مارب يتكلم"، أقدَمُ قصيدة مؤرخة فيها كتبها عبده عثمان سنة 1957 بعنوان "أسئلة عن ذي نواس"، والثانية في العام نفسه بعنوان "عودة ذي يزن". والمجموعة الشعرية الأخرى لعبدالعزيز المقالح بعنوان "لا بد من صنعاء"، وتم طبع هاتين المجموعتين الشعريتين سنة 1971. كما طبع مسرحية مُحَمَّد الشرفي "حريق في صنعاء".

وفي الفترة نفسها أصدر المثقف اليساري الآخر يحيى عبدالرحمن الإرياني صحيفة أسبوعية في تعز تحمل تسمية "الحقيقة"، كانت تصدر عن هم ثقافي دفين وعن شعور بأن النشاط الثقافي في اليمن ينبغي أن يبدأ بالإقلاع بعد أن تحقق شيء من الاستقرار بعد المصالحة بين اليمن وجيرانها، تلك المصالحة التي وضعت نهاية لحرب الدفاع عن الجمهورية. فقد كانت استراتيجية الجيران الذين دعموا القوى الملكية لشن حرب هدفها إسقاط الجمهورية قد تغيرت بسبب تغير الظروف السياسية والاستراتيجية في اليمن حين كانت القوى التقليدية العربية في شبه الجزيرة العربية قد وجدت أن المعركة بين الملكيين والجمهوريين قد أصبحت من الماضي، وأن طبيعة الصراع في اليمن قد تغيرت بعد انتصار الجمهورية في الشمال ونيل الاستقلال في الجنوب. وكانت الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل التي تسلمت الحكم في

الجنوب بُعيد الاستقلال تحمل في داخلها بذور مشروع يساري مغاير للأوضاع التقليدية في الشمال وفي شبه الجزيرة العربية، مما استدعى أن تغيِّر القوى التقليدية العربية، وبخاصة في الخليج، استراتيجية المواجهة في اليمن وتعطي الأولوية لمواجهة المشروع اليساري في عدن، واعتبرت أن النظام في صنعاء يمكن أن يكون حليفا لها في معركتها الجديدة ضد اليسار العربي، وبخاصة في جنوب اليمن.

فاستغلت القيادة السياسية للجمهورية الثانية هذا الوضع الجديد ووظفته لصالح حصول المواطن اليمني على امتيازات تجعله مساويا للمواطن السعودي في حق العمل وممارسة التجارة، فكان هذا مقدمة للطفرة الي شهدتها تحويلات المغتربين اليمنيين بعد ارتفاع أسعار النفط عقب حرب 1973 بين العرب وإسرائيل.

شعر بعض المثقفين اليمنيين أن الجانب الثقافي كان الجانب المنسي من هموم التنمية الاقتصادية والاجتماعية في تلك الفترة. من هنا جاءت محاولات مُحَّد عبدالولي إنشاء دار نشر في تعز ويحيى عبدالرحمن الإرياني إصدار صحيفة سياسية ثقافية تعطي الأولوية للإنتاج الثقافي، وهي الصحيفة التي قرأتُ فيها لأول مرة موضوعا مهما لأبوبكر السقاف بعنوان "ملاحظات حول المركزية الأوربية في الفلسفة" وأحسست وأنا في بداية تطلعي للقراء والمعرفة أنني أقرأ لأول مرة لكاتب يمني مختلف يملك مؤهلات ثقافية غير معتادة لدى غيره من المثقفين اليمنيين.

لكن للأسف لم تترك القوى التقليدية اليمنية لهذه الصحيفة فرصة مواصلة الصدور. فقد استغلت كون صاحب الصحيفة ابن رئيس المجلس الجمهوري وضغطت على والده لإيقاف الصحيفة بحجة أن الرئيس الإرياني، الذي كان معروفا بكونه رجل دين مستنير، يشجع ابنه لنشر أفكار علمانية ويسارية، وهكذا فقد فضل الرئيس الإرياني، تجنبا للاعتراضات والإحراجات، إبعاد ابنه ليكون مستشارا ثقافيا في موسكو ومن ثم توقفت الصحيفة.

وفي الوقت نفسه، لم تُصدِر الدار الحديثة للطباعة والنشر إلا بعض الكتب واضطر مُحَّمد عبدالولي تحت ضغط القوى التقليدية داخل السلطة وخارجها إلى مغادرة الشمال إلى عدن والعمل في السلك الدبلوماسي قبل أن يفارق الحياة في سقوط طائرة وعمره نحو أربعة وثلاثين سنة.

مجلة الكلمة

كانت وطأة هذا الفراغ الثقافي ثقيلة على نفوس المثقفين اليمنيين في تلك الفترة. وكان الجميع يلمس هذا النقص ويتمنى زواله، لأنه أصبح أحد الهموم التي تورق المثقفين والمتعلمين. وكان الجميع ينتظرون البدء بأية مبادرة تحرك المياه الراكدة وتتجاوب مع الرغبات المشروعة، وتستجيب للحاجة الماسة إلى البدء بالإنتاج الثقافي.

ومن هنا بادر مثقف يساري[219] هو مُحَّد عبدالجبار سلام بإصدار مجلة أهلية في الحديدة سماها "الكلمة"، متأثرا بالمجلات المصرية مثل الكاتب والطليعة اللتين كانتا ميدانا لممارسة المثقفين المصريين لحقهم في الكتابة والاهتمام بالشأن الثقافي العربي وبالترجمة. ومراعاة للظروف الواقعية الصعبة التي تصدر فيها المجلة اختارت لنفسها شعارا عاما هو "مجلة شهرية جامعة"، لتسهيل الحصول على مواد مكتوبة ولتوسيع دائرة القراء ليسهموا في تمويل صدروها المنتظم. ومع كون مُحَّد عبد الجبار صاحب امتياز إصدار المجلة، تولى عبدالباري طاهر منذ العدد الخامس إدارة التحرير وساهم في تحمل مسئوليتها والإشراف عليها. وظهرت في البداية متواضعة من حيث الحجم والإخراج.

---

[219] بدأ محمد عبدالجبار سلام حياته السياسية بعد قيام الجمهورية ناشطا سياسيا في حركة القوميين العرب، وفي أواخر ستينات القرن العشرين اقترب من بعض العناصر اليسارية في الحديدة التي بدأت بتجمع بسيط أسمته "حزب العمال والفلاحين"، ولكنها بتأثير من شخصية عمر الجاوي القوية الجذابة أسست "حزب العمل" الذي اندمج في النصف الثاني من السبعينات بحزب الوحدة الشعبية، فرع الحزب الاشتراكي اليمني في الشمال. وقد انتفت الحاجة لتسمية "حزب الوحدة الشعبية" بتحقيق الوحدة اليمنية في 22 مايو 1990 وعمل الحزب الاشتراكي على مستوى اليمن كلها. لكن محمد عبدالجبار، كما يبدو، ابتعد عن العمل الحزبي في الثمانينات وإن ظل بصورة عامة قريبا من اليسار.

وقد صدر العدد الأول منها في شهر ديسمبر 1971، وبدأت تستكتب من استطاعت من الشعراء والنقاد والكتاب والصحفيين اليمنيين. وبمساعدة من عمر الجاوي تم شراء مطبعة من عدن تعمل بالرص اليدوي، تملكها "الجبهة الوطنية المتحدة" ورئيسها مُحَمَّد عبده نعمان الحكيمي (الذي وقف عند الاستقلال إلى جانب "جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل" في صراعها المسلح مع "الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل" وخسر المعركة واستقر في الشمال مع من نزح من معارضي الجبهة القومية).

ويعلن العدد الأول من المجلة الطموح الكبير لأن يكون لها أثرٌ "في درءِ الموت، ولأننا مؤمنون أن معركتنا الاجتماعية في جوهرها لا تخرج عن كونها مواجهة حقيقية مع الموت المتمثِّل... (في) التخلف، الجهل، الجوع، القهر، إلى آخر ما في قائمة الواقع" من تحديات. ويُعتقد أن عمر الجاوي هو من كتب هذه الافتتاحية، لأن المجموعة اليسارية التي تقف وراء إصدار المجلة كانت تهتدي بأفكاره.

وفي ذروة الطموح بدأ مُحَمَّد عبدالجبار بإصدار صحيفة أسبوعية باسم "الخضراء"، وهي تسمية تجدد بطريقة غير مباشرة محاولة أحمد مُحَمَّد نعمان في نهاية الثلاثينات إصدار صحيفة في القاهرة، وتتشابه مع حرص عمر الجاوي على تسمية المجلة الصادرة باسم اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين "الحكمة" تجديدا للحكمة القديمة التي أصدرها المستنيرون في صنعاء في أواخر ثلاثينات القرن العشرين.

لكن بعد صدور أعداد قليلة اتضح أن ليس بالإمكان نجاح هذه صحيفة "الخضراء" الأسبوعية في وسط محدود مثل الحديدة، ولا حتى في البلاد بشكل عام، إذا لم تكن مدعومة من الحكومة، فتوقفت الصحيفة بعد فترة وجيزة من إصدارها. وبسبب ندرة الكتابة المحلية وقلة ما يتم ترجمته من مواد وجَدَت مجلة "الكلمة" صعوبة في الانتظام بالصدور مع أنها أعلنت منذ البداية أنها ستكون مجلة شهرية.

ومن الطبيعي أن استمرار صحيفة مثل "الكلمة" يعتمد ليس فقط على استمرار تغذيتها بالمادة المكتوبة التي تتفق مع ما تريد من مستوى ثقافي تقدم نفسها به للقراء، بل أيضا على القدرة على تمويل نفسها بنفسها. فهي على كل حال مشروع ثقافي تجاري غامَرَ بإصداره صحفي مهتم بالشأن الثقافي ولا يمتلك ثروة يستطيع أن يوظفها لاستمرار المجلة ويكتفي بالسمعة الحسنة لصاحب المشروع، كما كان الحال مع بعض الأسر في الخليج، وبخاصة في الكويت، التي كانت تُصدِر صحفا تنفق عليها ولا تهتم بموضوع الربح والخسارة.

وقد تسامحت المجلة مع نشر الإعلانات التجارية على الرغم من أن الصحف والمجلات اليسارية كانت تعتمد مبدأ عدم اللجوء إلى نشر الإعلانات للترويج للمواد الاستهلاكية وللشركات الرأسمالية. ومع ذلك كانت الإعلانات التي نشرتها محدودة وكان سوق الإعلان ذاته محدودا وخاضع للتوجهات السياسية والأيديولوجية للمعلنين، وأحيانا يكون وسيلة للتدجين وللتأثير على سياسة التحرير. وقد كان تأثير الإعلانات على تمويل المجلة ضئيلا. وكان عليها أن تحصل على اشتراكات كافية من الأفراد والمؤسسات تسمح لها بمواصلة الصدور وتغطية تكاليف الإصدار. لكن ذلك لم يكفها فسخَّر الناشر المطبعة التي اشتراها وأسس "مطبعة دليل اليمن للطباعة والنشر" لطبع مواد تجارية مطلوبة في السوق لتوفير دخل يسمح بقدر الإمكان بتغطية النفقات. ولحسن حظ الصحيفة، كان جميع كتابها متطوعين يكتبون دون مقابل. واكتفت بعدد قليل من العاملين، وتولَّى رئيس تحريرها مسئولية الإدارة والبحث عن اشتراكات من الأفراد والمؤسسات التجارية والعامة. وساعده مدير التحرير في متابعة جمع المواد وطبعها.

لكن بمرور الأيام عجزت "الكلمة" عن الاستمرار، وبخاصة مع سفر رئيس التحرير إلى الخارج للتأهيل العالي في مجال الصحافة.

وحين كان إبراهيم المقحفي طالبا في كلية الإعلام في القاهرة أراد أن يصدر مجلة أدبية في وقت كانت فيه "الكلمة" متوقفة، فنصحه بعض المثقفين بأن يتفق مع صاحب امتيازها للحصول على حق إصدارها باعتبارها مجلة ثقافية موجودة وكان لها حضور نسبي، وبخاصة في أوساط المثقفين اليمنيين. وقد عمل المقحفي بهذا الاقتراح وبادر للاتفاق مع ناشر "الكلمة" على إصدارها مع المحافظة على اسم مُحَّد عبدالجبار باعتباره صاحب الامتياز وأن يكون المقحفي رئيس التحرير، وتغيَّر شعارها من "مجلة شهرية جامعة" إلى "مجلة المثقفين اليمنيين" بهدف كسب تعاون المثقفين اليمنيين في الكتابة للمجلة. وهكذا عادت المجلة سنة 1974 بهيئة تحرير مكونة من زبدة المثقفين اليمنيين في تلك الفترة وهم كالتالي:

د. أبو بكر السقاف الذي كان حينذاك أستاذا مميزا للفلسفة في جامعة صنعاء،

وعبدالعزيز المقالح الذي كان منذ تلك الفترة قد بدأ يحتل مكانة تزداد أهميتها في الوسط الثقافي اليمني والعربي،

وعمر الجاوي الذي كان حينذاك رئيس تحرير مجلة "الحكمة" الصادرة عن اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، وأمين عام الاتحاد.

وصالح الدحان، الصحفي متعدد المواهب الذي بدأ حياته الصحفية في مستعمرة عدن في الخمسينات ونشر هناك في سنة 1957 مجموعته القصصية الوحيدة بعنوان "أنت شيوعي".

وعبدالودود سيف، الشاعر الموهوب الذي ساهم في تعميق مسيرة الشعر الحر في اليمن وكان في تلك الفترة قد أصبح صحفيا يمنيا بارزا وناقدا أدبيا مؤهلا،

وأحمد قاسم دماج المثقف العضوي والشاعر الذي سيصبح فيما بعد رئيسا لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين لعدة دورات انتخاب،

وعبدالباري طاهر، المثقف البارز والناقد الأدبي والصحفي الأشهر الذي سيتولى منصب نقيب الصحفيين اليمنيين لعدة دورات.

ومُحَمَّد عبدالجبار، نفسه، الصحفي الذي احتفظ بكونه صاحب امتياز إصدار المجلة.

والواقع أننا لو بحثنا عن هيئة تحرير لأية مجلة ثقافية يمنية في تلك الفترة فلن نجد أفضل ولا أكفأ من هذه الأسماء.

ومن استعراض أعداد المجلة بعد هذا الترتيب لصدورها الثاني، يتضح أن مشكلة توفير المواد الثقافية التي تكفل انتظام صدور المجلة والمحافظة على مستواها الثقافي ظلت قائمة. وقد لجأ إبراهيم القحفي إلى التعويض عن هذا النقص عن طريق الاستعانة بمواد لكتاب مصريين وبما يترجمه بعض المصريين من مواد، بعضها تقدم مفاهيم أدبية وفنية مترجمة يمكن للمثقفين اليمنيين، وبخاصة لطلبة الجامعة الذين بدأت أهميتهم في تلك الفترة تزداد، أن يستفيدوا منها في تثقيف أنفسهم وفي دراساتهم وكتاباتهم.

وظلت مشكلة تمويل الصدور قائمة. ولم يكن بالإمكان الاعتماد على الإعلانات والاشتراكات، لأن الإعلانات محدودة ومحكومة سياسيا، ولأن اشتراكات الأفراد كانت قليلة، وكان المثقفون اليمنيون، وأغلبهم فقراء، يكتفون بتزويد المجلة بما يكتبون مجانا. وكان اشتراك المؤسسات العامة محدودا ومحكوما سياسيا ووسيلة للتطويع والترويض. وفي النهاية واجهت المجلة نفس المعضلة التي واجهتها عندما كان يصدرها مُحَمَّد عبدالجبار وتوقفت عن الصدور.

وإلى جانب إصدارها وضعت في هذه الفترة مشروعا لإصدار الكتب وسد بعض الفراغ الكبير في مجال الصناعات الثقافية، فطبعت بعض الكتب الجديدة أو أعادت طبع بعض الكتب الصادرة فيما مضى؟

وهكذا أراد إبراهيم المقحفي ل-"الكلمة" في فترة الصعود أن تتطور إلى دار نشر، فبدأ بإصدار سلسلة من الكتب بعنوان "كتاب الكلمة"، مستعينا ببعض المتحمسين لهذه السلسة في المؤسسات العامة مثل جامعة صنعاء ووزارة الإعلام والمساهمة في شراء مئات من النسخ من كل كتاب يطبعه بسعر تشجيعي لمساعدته

على استمرار الصدور. وهذا حل مباشر ييسر اتخاذ القرار. لكن شراء النسخ الكثيرة بسعر تشجيعي يتحول مع مرور الأيام إلى لغم وإلى نوع من المصادرة بحيث لا تحقق المطبوعة المعنية ما تصبو إليه من الوصول إلى أيدي قراء مهتمين لتحقق الفائدة المرجوة ونشر القراءة وخلق جمهور واسع للكتاب.

وقد كان بعض المثقفين المسئولين عن مؤسسات عامة يحاولون إقناع من يصدر كتابا بألا يسمح بتجميد عدد كبير من النسخ في مخازن الوزارات والمؤسسات العامة، لأنها ستكون في حكم التالف ولن يلتفت لها أحد، إذ لا يدخل هذا في صلب عمل تلك المؤسسات، ومن الأفضل للكاتب أن يبقى الكتاب في متناول القراء ولو لفترة طويلة خير من سجنه في مخازن مغلقة لا يخرج منها أبدا. لكن البعض يفضل استرجاع تكاليف الطبع على حساب الانتشار. وهذه معضلة لا يحلها إلا اتساع سوق الكتاب وكثرة الإقبال عليه وزيادة التوزيع ليحصل الكاتب على ما يعوضه عما يخسر من تكاليف الطبع، وعندما يتسع التوزيع ويزداد طلب القراء على الكتاب ستقوم دور النشر بمهمة التمويل ومكافأة الكُتَّاب والمترجمين، ولن يحتاج الكاتب والمترجم إلى أسعار تشجيعية من مؤسسات تقوم بما يشبه مصادرة الكتاب وإخفائه عمليا.

وقد صدر من سلسلة كتاب الكلمة خلال النصف الثاني من السبعينات نحو عشرين عنوانا أغلبها إحياءٌ لكتب تراثية إما لم تطبع أو طبعت في الماضي ونفدت نسخها المطبوعة. وكان نحو نصفها كتابات جديدة لكن أغلبها يتناول التراث أيضا في حين أن الدراسات الحديثة والإبداعات قليلة، وغاب عنها تماما الإبداعات الشعرية والقصصية والفنية الجديدة[220]. وهذا يعكس حالة القحط الثقافي الذي كان

---

[220] نورد هنا قائمة بمطبوعات كتاب الكلمة، والكثير منها إعادة طبع بعد أن نفدت الطبعات السابقة:

. إبراهيم المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية

. أبوبكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية،

. نفسه، كتابات

ما يزال يفرض نفسه على تاريخ اليمن المعاصر على الرغم من المحاولات هنا وهناك لكي تتجاوز الحركة الثقافية اليمنية السير البطيء نحو ازدهار الإبداع والإنتاج الأدبي والفني، والثقافي عموما.

لكن مُحَّد عبدالجبار، باعتباره صاحب الامتياز، استعاد إصدار المجلة سنة 1979 لتصدر فصلية (كل ثلاثة أشهر) بهيئة تحرير مكونة من أبو بكر السقاف وعبدالعزيز المقالح وأحمد قاسم دماج، وصالح الدحان، وعبدالودود سيف، وعبدالباري طاهر، وكاتب هذه السطور، مبقيا على إبراهيم المقحفي عضوا في هيئة التحرير. وعلى الرغم من بدايتها القوية من حيث المواد المنشورة، تجددت مشكلة التمويل التي تواجه كل إصدار ثقافي. وقد حاول مُحَّد عبدالجبار التوسع في نشر الإعلانات في

. أحمد حبيب رسول، دراسات في الجغرافية الاقتصادية والبشرية لليمن (الشطر الشمالي)

. الأشرف الرسولي، طرفة الأصحاب

. حمزة لقمان، تاريخ القبائل اليمنية

. عبدالحميد إبراهيم، تاريخ القصة اليمنية

. عبدالرحمن الآنسي، ترجيع الأطيار، تحقيق القاضي عبدالرحمن الإرياني

عبدالله الثور، هذه هي اليمن

. عبدالله الشماحي، اليمن . الإنسان والحضارة

. علي محمد زيد، معتزلة اليمن . دولة الهادي وفكره

. علي محمد عبده، حكايات وقصص من تاريخ اليمن

. عيسى بن لطف الله شرف الدين، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح

. كلودي فايان، كنت طبيبة في اليمن

. لطف الله جحاف، درر نحور العين

. محمد بن أحمد الشلي، السناء الباهر في أخبار القرن العاشر

. نفسه، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر

. محمد محمود دحومة، دراسات في الشعر والمسرح اليمني

. محمد يحيى الحداد، التاريخ العام لليمن

. نشوان بن سعيد الحميري، ملوك حمير وأقيال اليمن

. نفسه، منتخبات في أخبار اليمن

المجلة، وهو قرار يعكس توجها سياسيا جديدا مفارقا للبداية التي استندت إليها المجلة في بداية إصدارها. ومن الطبيعي أن أكثر الإعلانات كانت من مؤسسات عامة تسيطر عليها الدولة أو من منشآت خاصة تسير في الاتجاه السياسي للحكومة، وهذا ما حدد طبيعة الإعلانات وجعل المجلة تبتعد عن بعض قرائها السابقين وعن بعض المشاركين الأساسيين الذين عايشوها وتحمسوا لها منذ بداياتها. وهو ما اضطرها في النهاية إلى عدم انتظام الصدور حتى توقفت تماما.

مجلة "الحكمة" الجديدة

تُعدُّ مجلة ""الحكمة، الصادرة عن اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، الأداة الثقافية المعبِّرة عن الاتحاد والحاضرة في النفوس وفي الأذهان إذا غاب الاتحاد لأي سبب أو في فترات سباته. ولعل هذه المجلة من أهم إنجازات الاتحاد خلال ما يزيد على أربعة عقود، لأنها نجحت في أن تكون صوت الوطن العالي في الأزمات الكثيرة التي عصفت به، وظلت قادرة على التحليق فوق عوامل الفرقة والارتداد عن هموم الإنسان اليمني، ورفع راية اليمن الحلم المتجاوز لعلامات الانحطاط التي تعيد إحياء التعصب القبلي والعنصري والمناطقي وتبث الكراهية وتنأى باليمنيين عن التضامن الإنساني فيما بينهم لبناء حاضرهم ومستقبلهم. لقد عبرت عن أنبل ما في اليمن من مشاعر ومن تسامي فوق الصغائر، وتجاوز ما يشد البلاد نحو الانحطاط والغياب. ولذلك ستظل الحكمة معلما بارزا من معالم الثقافة الجمهورية والإبداع الإنساني النبيل، يتذكر اليمنيون ما أنجزت، وما أطلقت من دعوات، وما أعلت من قيم إنسانية يحتاجون إليها في لحظات التيه ليتجنبوا الغرق في استدامة التخلف.

ومن المهم الإشارة إلى الدور الكبير الذي قام به المثقف التقدمي عمر الجاوي في إعادة إصدار "الحكمة"، وحرصه على أن تكون امتدادا لما بدأه المستنيرون الأول، وفاء لهم، وتكملة لمسيرة التغيير التي تمنوها وحاولوا البدء بها ودفعوا في سبيلها أرواحهم. فقد كان الجاوي، بما عرف عنه من نشاط وحيوية وجاذبية شخصية، وما يمتلك من تفتح ثقافي عميق، محركا لنشأة اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين وإصدار الحكمة، مما جعل الاتحاد حامل لواء التحديث والتنمية والدفاع عن حقوق الإنسان حتى تحققت الوحدة وما رافقها من تعددية سياسية وصحفية ودعوة إلى تحقيق

الديمقراطية والمواطنة المتساوية. وهو دور سيظل الاتحاد يفخر به، ولا قيمة ثقافية للاتحاد بدون هذا الدور الحضاري الإنساني النبيل.

وإلى جانب كون "الحكمة" صوت الاتحاد، أراد الجاوي الذي تولى رئاسة تحريرها خلال فترة طويلة، أن يجعلها صوت المثقفين الحضاري النبيل، ونجح في أن يبث من خلالها صوت التنوير، وأن يحمل معه الرؤية التي تضمنها بيان "المؤتمر الدائم للطلبة اليمنيين في مصر" الصادر سنة 1956. وهو بيان يدعو إلى تظافر جهود اليمنيين للعمل من أجل تحرير أنفسهم من الإمامة في الشمال ومن الاستعمار البريطاني في الجنوب والعمل لتحقيق وحدة اندماجية تشمل اليمن كلها على أساس من المساواة والحرية والعدالة لجميع اليمنيين بلا استثناء. وظل الجاوي متمسكا بهذا المفهوم الوحدوي الناتج عن اندماج شطري اليمن حتى النهاية، وشارك في جميع لجان الوحدة وفي كل النشاطات الوحدوية وفي تخفيف أجواء التوتر بين الشطرين حتى تحققت الوحدة فعلا في 22 مايو 1990.

ولم يكن اختيار اسم "الحكمة" صدفة، بل يرمز إلى مواصلة هذه المجلة الجديدة لدعوة التنوير التي حاولت الحكمة القديمة بثها في أواخر ثلاثينات القرن العشرين. وكانت الحكمة الجديدة في الواقع منبر الجاوي الذي جعله حاضرا في قيادة اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين وفي الحركة الثقافية اليمنية والعربية. لقد كان حامل لوائها ومحركها والقطب الذي يدور من حوله كل من عمل في المجلة حتى حين تضطره الظروف للابتعاد عنها. كان حضوره الثقافي والسياسي طاغيا، وصوته الوطني والإنساني عاليا، وكانت الحكمة توأم روحه وأداته النضالية وصوته المميَّز داخل الاتحاد، وحاملة مشروعه الثقافي والوحدوي، ووسيلته لحشد أعضاء الاتحاد وأنصاره من حول قضايا الثقافة والنهضة ورفض استدامة التخلف. وواصلت المجلة حتى في غيابه السير على هدى ما وضع من علامات الطريق، لتقوم بدور الموحِّد لليمنيين في

الكفاح من أجل إرساء القيم النبيلة ورفض عوامل الفرقة والتمزق وضيق الأفق والانحطاط.

لقد كان الجاوي فريدا في مواقفه، ومتميِّزا في حركته السياسية. ظل خارج الأحزاب كلها وفوق الحزبية بمعناها الحرفي وقريبا منها. يجد نفسه في مجلة "الحكمة" وفي اتحاد الأدباء والكتاب أكثر مما يجد نفسه في أية حركة سياسية. بهما يرى نفسه قادرا على التأثير في الأحزاب كلها، يقترب منها جميعا وينفر منها في الوقت نفسه. وكانت "الحكمة" والاتحاد السفينة التي يعبر بها أمواج بحر السياسة اليمنية المضطرب، ويحتفظ لنفسه ولهما بهامش للحركة في كل الظروف. لا يقبل أن يوظَّفا لخدمة أي مشروع حتى لو كان من المساهمين في صياغته.

وقد عبَّرت افتتاحيات "الحكمة" عن الصعوبات العملية التي تواجه أي مجلة في تحديد خطها السياسي وسياستها التحريرية والمستوى الرفيع الذي تريد أن تحافظ عليه ولا تتنازل عنه في كل الظروف. ولأنها كانت مجلة تعتمد على ما يسهم به أعضاء الاتحاد الناشطون في الحقل الثقافي، وتتنافس مع الصحف والمجلات الرسمية في حكومتي "شطري اليمن"، كانت تصلها مواد من المساهمين المتطوعين لا تلتزم دائما بالمعايير النظرية التي حددتها لنفسها. وكان الحل الذي ارتأته "الابتعاد عن الالتزام للقارئ" ونشر جميع ما يصلها على أن تترك لهذا القارئ الحرية "ليستخلص بنفسه نوعيتها واتجاهها وأسلوبها"[221]، بمعنى مباشر، تقوم بنشر المواد المتنوعة وتدَع للقارئ أن يصنِّفها كما يريد.

وكان من المتوقَّع أن تعلن المجلة على لسان رئيس تحريرها منذ افتتاحية العدد الأول التزامها بالدفاع عن وجهة نظر الأدباء والكتاب القائلة إن المثقفين اليمنيين حتى في عهود الظلام قد شاركوا في الإنتاج الثقافي العربي ولم يقصِّروا أو يتخلفوا عن بقية الأدباء العرب. وتنتقد الافتتاحية الأدباء العرب الذين "لم يتوخوا الموضوعية في

---

[221] انظر افتتاحية عمر الجاوي للعدد الثاني من الحكمة، افتتاحيات الحكمة، ص. 13.

تقديم الأدب اليمني الحديث ووضعه في موضعه الصحيح"، مشيرة إلى أن "الدفاع عنه قد خرج عن حدوده إلى اتجاه آخر في الرد على الدكتور طه حسين أحيانا أو تقريع (الشاعر المصري علي) الجُندي الذي قدم ديوان البردوني (من أرض بلقيس)".

ولتوضيح هذا الغموض الذي تحتوي عليه هذه الفقرة تقول المقدمة إن الأدب العربي في اليمن قد واكب "الأدب العربي في كل الأقطار العربية وخارجها (أدب المهجر). فقد وُجِد في اليمن شعراء يحاكون المجددين في الشعر العربي أمثال (محمود سامي البارودي، كما وُجِد الرومانتيكيون وأدباء ما يسمى بالواقعية الجديدة، على نطاق الشعر والقصة القصيرة ومقال النقد الأدبي. وطبيعي أن هذا الإنتاج قد تأثر بالأدب العربي، إلا أنه لم يكن نقلا حرفيا، ولا محاكاة سطحية وإنما تأثر بالاتجاهات الحديثة في العالم العربي باعتباره أدب موجود (أدبا موجودا) بالفعل نشأ أولا وأخيرا في تربة اليمن وترعرع في مدارسها الأدبية في صنعاء وزبيد وحضرموت طوال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"[222].

وهكذا تمضي الافتتاحية في عرض فهمها المتفائل لحال الثقافة في اليمن مدفوعة بالحماسة التي أثارها النجاح الكبير في جمع الأدباء والكتاب اليمنيين في وقت مبكر من سبعينات القرن العشرين، في وقت كانت فيه الجمهورية في صنعاء ما تزال تستكشف الخطوات الأولى على طريق الاستقرار والبناء بعد توقف حرب الدفاع عن الجمهورية، وكانت عدن ما تزال تبحث عن طريق آمن لبناء تجربتها الحالمة بعد صراع مرير مع المستعمر ومع القوى المعارضة للنظام. فشكَّل اجتماع زُبدة المثقفين اليمنيين لصياغة رؤية مشتركة لمسيرتهم اللاحقة روح هذا الدفاع المتفائل عن مساهمة المثقفين اليمنيين في حركة الثقافة العربية، والتغلُّب على جميع علامات القصور التي ينبغي العمل لتجاوزها.

---

[222] افتتاحيات الحكمة . مختارات 1971 . 1989، ص. 8.

لكن الافتتاحية لم تلبث أن وجدت نفسها في مواجهة حقيقة التخلف الشديد الذي عاشته اليمن في مملكة الظلام، فتعترف بأن ما سمته "التمرُّد باليراع"، وتقصد به التحدي الذي واجه به الأدباء المستنيرون نظام الطغيان، لم يسمح بصدور إنتاج ثقافي مطبوع، فلم يجد الإبداع اليمني "طريقه إلى المطبعة نتيجة لانغلاق الجلاد يحيى (حميدالدين) الذي صنع من صحيفة (الإيمان) مجرد وريقات صفراء طابعها المدح والتهليل لصاحب الجلالة. وحتى ما سمي ب-(البريد الأدبي) والذي هو مجرد نقل قصائد صنعاء إلى ذمار وتعز وبقية المدن في دورة تنتهي بصنعاء... دار في حلقة ضيقة من الشعراء فقط، أو قرئ في مقايل القات ولم يؤثر التأثير المطلوب إلا فيما يخص تبادل الخبرات الفنية والاطلاع على آخر إنتاج الشعراء من المناطق اليمنية"[223].

وقد جعلت افتتاحية العدد الأول من مجلة الحكمة الجديدة كل هذا الدفاع عن الإبداع في اليمن مقدمة لتبرير اختيار القائمين على المجلة أن تكون امتدادا لمجلة الحكمة القديمة ومواصلة لمسيرة التنوير التي بدأتها، لأن الحكمة القديمة لم تكن مجرد محاولة لتأسيس منبر ثقافي يعبِّر المستنيرون الأولون من خلاله عن طموحهم لنشر فكرة التغيير والإصلاح وتعرَّض للإجهاض والإيقاف قبل أن يبلغ أهدافه الثقافية والتنويرية النبيلة فحسب، بل كانت في رأي الافتتاحية "مدرسة من مدارس الفكر والأدب لا في اليمن وحدها، وإنما في العالم العربي كله"[224].

لكن افتتاحية العدد الثالث من المجلة تعترف من جديد بواقع أن الأجيال اليمنية "ظلت قرونا تعيش محرومة من الورود على ينابيع الفكر العربي" وأنه قد "مضى على شعبنا ردح من الزمن ظل فيه حبيس التجهيل والكبت والحرمان من التعرف على حضارته وأمجاده"[225].

---

[223] نفسه، ص. 9.

[224] نفسه، ص. 11.

[225] نفسه، ص. 18.

ويعود الجاوي، رئيس تحرير "الحكمة" ومحدد سياستها التحريرية وفلسفتها، للموضوع في افتتاحية العدد الرابع، في منتصف يونيو سنة 1971، بأسلوبه المتفائل الذي يخلط الحماسة بالحلم بالتغيير ويعكس ذلك في عنوان الافتتاحية "71(19) عام العطاء"، معتبرا ما حدث من تخلف ثقافي مجرد جَزر عابر فيقول "إنما هو المد والجزر الذي تصنعه الرياح في البحار ويحسره أو يدفعه الإنسان في المجتمعات. وكان فيما كان أن تناولت يد الجزر جزءً من حقنا في الزمن، فركدت مياه الفكر والأدب، أحيانا بفعل الطغاة، وتارة بحكم التخلف الحضاري المريع. على أن هذا الركود المصطنع لم يصبه العفن وإن بدأ الطحلب ينمو على سطحه، فلقد كانت ينابيع مقاومة التأسُّن تنبجس من قاع هذا الشيء الراكد... فلا غرابة، إذًا، إذا ما قيل إن مياه الخلق والإبداع قد ركدت في اليمن". لكنه يعود فيحكم على من يقولون إن ذلك التخلف قد انعكس في الإبداع الأدبي والإنتاج الثقافي بأنهم يكتفون بالنظر إلى السطح ولا يغوصون إلى الأعماق ومن ثم يصدر أغلبهم "أحكاما في أغلبها لا تدل إلا على اختيار السهل من أساليب البحث والتنقيب"[226]. ثم يعود في افتتاحية أخرى ليؤكد أن الجهل المطبِق قد ساد "والأمية التي فرضت على شعبنا. وفي سنوات ما قبل الحرب (العالمية الثانية) وبعدها لم يكن للحرف المطبوع قيمة عملية، إلا في صفوف فئة صغيرة من السكان اتُّفِقَ على تسميتها بالمتعلمين. وكانت هذه الفئة محدودة في طبقة عليا من المجتمع اليمني. وكان الشعب بعيدا عن الفكر المدون والمكتوب، يعتمد على السماع في تثقيف نفسه"[227] وظل اليمن محروما من الإذاعة والندوات والمحاضرات والأحزاب[228].

---

[226] نفسه، ص. 21.

[227] نفس، ص 27.

[228] نفس، ص. 28.

ولعل من المناسب، احتراما للإطار الزمني الذي التزمت به هذه السطور، أن نتوقف عند العدد الرابع والعشرين من أعداد المجلة، وبه تكون "الحكمة" قد أكملت عامين من عمرها. وهي بهذه المناسبة تنزل من التحليق في سماوات القضايا النظرية، الفكرية والأدبية، إلى دنيا الصعوبات الواقعية التي تتحدث عنها لأول مرة، مثل شح مواردها، واضطرارها للاعتماد على تطوع الكتاب بإرسال مواد مجانية "دون حوافز"، وهو مورد يتضاءل بمرور الأيام، لأن الكتاب كائنات بشريه لها حاجات معيشية تضغط عليها وتجعلها تفضل الكتابة لوسائل إعلام لها قدرات على دفع "الحوافز"، من إذاعة وتلفزيون وصحافة يومية وأسبوعية وشهرية. كما أن "الحكمة" تمتنع مبدئيا عن اللجوء لسوق الإعلان التجاري المحدود إلى درجة لا يمكن التعويل عليه حتى لو تنازلت عن قرارها الواعي بعدم إعطاء مساحة للإعلان التجاري. بإيجاز، كانت أزمة التمويل تؤرق القائمين على المجلة بعد سنتين من صدورها إلى درجة جعلتهم يعطونها حيزا من افتتاحية العدد الرابع والعشرين.

وعلى كل حال، لقد واجهت هذه المشكلة زميلتها مجلة "الكلمة" وجعلتها تضطر للصدور دون انتظام وأحيانا التوقف تماما. إنها مشكلة تواجه أي مشروع ثقافي جاد، كما أن سوق الإعلان في تلك الفترة، حتى لو تم التعامل معه، محدود ويعتمد أغلبه على المجاملات والرغبة في التدجين أكثر من اعتماده على الجدوى التجارية.

خاتمة

حاولت السطور الآنفة أن تجيب عن سؤال عابث، صادر إما عن جهل بحقيقة تاريخنا القريب أو عن جحود ونكران لكل المحاولات التي بذلها شعبنا ومثقفوه ورواد التغيير فيه لكسر الأقفال الغليظة التي أغلقت باب الوطن وحولته إلى سجن كبير حَبَسَ اليمنيين خلف قضبان العزلة وأسوار الانغلاق والجهل والتخلف، وهو: هل كانت الجمهورية ضرورية بالنظر إلى ما تعيشه البلاد من فقر وبؤس، وإلى التضحيات الكبيرة التي بُذِلت، على الأقل خلال الفترة التي نتناول ملامحها الثقافية؟

ومن المؤكد أن ليس من حق أحد أن ينكر على أيٍ كان أن يسأل وأن يتطلع للمعرفة، ولكن من حقنا عليه أن يستمع للإجابة أو الإجابات المنطقية، ويتفهَّم الحقائق الموضوعية التي ترصد ما كانت البلاد تعيشه قبل التغيير الجمهوري، وما حدث من كسر للحواجز والسدود، وتذليل للعقبات الهائلة التي كانت تمنع البلاد ككل، وعلى الأخص الحركة الثقافية، من أن تتحرك وتتفاعل مع حركة الثقافة العربية في الأقطار العربية المتقدمة.

وقد أوردَت هذه السطور شهاداتٍ حيةً على حال الموت السريري الذي كان شعبنا يعيشه قبل التغيير الجمهوري، وغيابه وهامشيته في عالمه، وغربته عن العصر الذي يعيش فيه، ورصدَت بقدر ما استطاعت من تفصيل مقدمات ذلك التغيير الثقافي في الداخل والخارج، والصعوبات الجمة التي تجشَّمَها الرواد الأُوَل كي يفتحوا لنا أبواب التململُ والحركة واستنشاق بعض نسائم الحياة الجديدة، وحفروا بأظافرهم العارية وبعذاباتهم ومعاناتهم منافذَ لتسرُّب أفكار التنوير والتفاعل الثقافي. كما رصدت

جهود المثقف اليمني المستنير في العمل الصابر المثابر لكي تصل هذه الأفكار وهذه المؤثرات الثقافية إلى حد التجسيد في حركة ثقافية واسعة.

كان الشعر، بحكم رقة إحساس الشعراء وبحكم الثقافة الشعرية التي كانت سائدة، أول المبادرين إلى البدء بالحركة، فقدم روادا بذلوا ما استطاعوا من جهود ليدلُّوا الشعب على طريق التحرر من الاستبداد والتخلف. وما لبثت القصة القصيرة أن تجاوبت ودخلت الميدان باعتبارها، بطبيعتها، نبتة حديثة لا يمكن أن تولد وتنمو وتترعرع إلا في أجواء التفتح والتفاعل مع التحديث، وهكذا ساهمت في رسم علامات السير على طريق الحرية. ولبَّى المسرح النداء إلى التجديد والانبعاث الحضاري وإن كانت المعوقات ما تزال أكبر من أشواقه وأحلامه. وكان تجدد النثر الصحفي والأدبي شاملا وعاما.

وإذا كان التعليم قد كان الميدان الأبرز للتغيير الجمهوري، بالقياس إلى غيابه وشدة تخلفه قبل ذلك، فإنه ما يزال يطرح التحدي تلو التحدي ويشير إلى الحلبة التي بدونها لا أمل في حدوث أي تغيير ثقافي أو تجديد أو تحديث أو انبعاث حضاري. كانت المطالبة فيما مضى قد ركزت على الحصول على الحق في التعليم، وأصبحت المطالبة الضرورية فيما بعد تلح على تحسين نوعية التعليم وتضع ذلك في مقدمة جميع المطالب، لأن التعليم الذي يواكب أحدث أنظمة التعليم في عالم اليوم ويستجيب لحاجات التنمية والبناء والإبداع والابتكار هو المدخل إلى كل تغيير حقيقي.

ومع أن القيم الثقافية والأخلاقية قد تغيرت نسبيا وتحركت إلى الأمام خلال الفترة موضوع التناول، فإن الصراع بين القيم القديمة والجديدة قد كشف إلى حد كبير عمق جذور التخلف والتحجر في الواقع الذي جاءت الجمهورية لتخرجه من سباته المستديم، وتُوقِف عجلة التدهور نحو قاع العزلة والانغلاق والتقوقع، ورفض البقاء في ذيل قائمة الدول الأفقر والأكثر تخلفا في العالم.

وينبغي الإشارة إلى أن اليمن كوحدة جغرافية تاريخية قد تُوقِع في العزلة وراء أسوار البحر والصحراء، أو قد تؤدي إليها، ما لم تتدخل إرادة الإنسان الواعية للتغلب على المعوقات الجغرافية والتاريخية والسياسية. ولكي تتحرك اليمن لمعانقة العالم من حولها تحتاج إلى مد الجسور نحو المراكز الثقافية الحضارية خارج حدودها. وقد فعلت ذلك في الماضي، مثلا، مع إسطنبول، ومع القاهرة ومع الليبرالية الغربية والتحديث عبر مستعمرة عدن. وهي في حاجة دائما إلى مد الجسور الثقافية والحضارية والعلمية، ناهيك عن التبادل الاقتصادي والتجاري، مع العالم الخارجي لكي تبقى قادرة على تلبية حاجاتها الضرورية والتفاعل والمشاركة والإبداع، وبناء عوامل التفتح والازدهار، وإلا فإن محذور الانطواء على الذات والعودة إلى العزلة والانغلاق والارتكاس إلى الدعوات الأولية البدائية يبقى احتمالا قائما.

تنتهي الفترة التي حاولت هذه السطور تتبع ملامح التغيير الثقافي خلالها في منتصف سبعينات القرن العشرين بعد أن حدثت تطورات كبيرة واعدة على مستوى اليمن، وتحقق شيء من الاستقرار الأمني والسياسي، وبدأ التوقف النسبي للقتال في الشمال وطموحات الجبهة القومية في الجنوب للمصالحة مع خصومها السياسيين اليساريين والقوميين. وزادت عائدات المغتربين وخلقت بعض التحسن في مستويات المعيشة وبخاصة في الريف، وبدأت المدن تنمو وتوجِد تطورا محدودا في مجال الاستثمار والتنمية. وبدأ التعليم العام ينتشر بشكل أفضل من أي وقت مضى، وساهم الأهالي في الريف في هذا التوسع للتعليم، وبدأت جامعتا صنعا وعدن في توطيد مركزيهما الأكاديميين وتأسيس مسيرة التعليم العالي في اليمن وإن بنوعِيَّةٍ لا تواكب ما يشهد التعليم العالي في عالم اليوم من قفزات معرفية وابتكارات تكنولوجية. وبدأ خلق المؤسسات الحديثة مثل مؤسسات الصحافة والأنباء، والتحَقَ التلفزيون في صنعاء بتلفزيون عدن الذي كان قد وُجِد في ظل الاحتلال البريطاني سنة 1964. وتأسست الفرق الوطنية للمسرح والرقص الشعبي والموسيقى، وبدأت الصحف القائمة

تفسح مجالا للملاحق الثقافية، وتأسست مجلتان ثقافيتان رسميتان هما "اليمن الجديد" في صنعاء و"الثقافة الجديدة" في عدن. وبدأ الشعر الجديد يوطد مسيرته وأقبل عليه الكثير من الشباب، منهم من نجحت محاولته ومنهم من أخفق. واقتحم بعض الشباب كذلك مجال كتابة القصة القصيرة، وأطلّ المسرح برأسه على المجال الثقافي فبدأت فرق المسرح تعرض مسرحيات بعضها لمؤلفين محليين وبعضها مقتبس من الأدب العربي ومن الأدب العالمي.

وبدأ الوعي الديمقراطي ينتشر، وزاد المؤمنون بحق المواطن اليمني في الحياة والنشاط الحر والإبداع والمشاركة في بناء الحياة الجديدة. وأصبحت أفكار المساواة والتسامح وحقوق الإنسان أمرا متداولا في الأوساط الثقافية، وتراجعت الأفكار الأولية التي تفرِّق بين الناس بحسب مناطقهم وقبائلهم ومذاهبهم، والتقى الناس في الدراسة والعمل من مناطق يمنية مختلفة. وهكذا بدأت القيم الحضارية الجديدة تتواجد ولكن في صراع مع القيم القديمة المتخلفة. فهل تواصل هذا الاتجاه نحو النهضة الحضارية وتبنِّي القيم الإنسانية النبيلة أم أن اليمن قد ارتكست وعادت دورة كاملة إلى الخلف؟ هذا هو السؤال الذي ستتضح إجابته بالتفصيل في دراسة تتناول الجمهوريتين الثالثة والرابعة، وهو أمر خارج إطار هذه السطور التي وضعت لنفسها إطارا زمنيا محددا لا تريد تجاوزه في هذا المقام.

المراجع

– إبراهيم صادق، عودة بلقيس وأغاني للشعب، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004.

– أبوبكر السقاف، كتابات، رقم 1، مؤسسة 14 أكتوبر، عدن، 1981.

– نفسه، دراسات فكرية وأدبية، كتاب الكلمة، رقم 6، دار العودة، بيروت، 1977.

– أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ط2، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1964.

– أحمد حسين المروني، الخروج من النفق المظلم – معالم سيرة ذاتية، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، 2001.

– أحمد المعلمي، من سجن حجة – ثوار وثورة 1948، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، 2004.

– أحمد مُحَمَّد نعمان، سيرة حياته الثقافية والسياسية، مراجعة علي مُحَمَّد زيد، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2003.

– إسماعيل الأكوع، هجر العلم ومعاقله، 4ج، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1995.

– افتتاحيات الحكمة، مختارات 1971 – 1989، كتاب الحكمة رقم 3، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، بيروت، 1989.

– أمين الريحاني، ملوك العرب، 2ج، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986.

– بلقيس منار المستقبل، الاتحاد اليمني، لجنة الثقافة والنشر، عدن، (تاريخ الطبع غير مذكور).

– حسن مُحَمَّد مكي، أيام وذكريات، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، 2008.

– زيد الوزير، محاولة لفهم المشكلة اليمنية، ط2، منشورات العصر الحديث، 1988.

– سعيد عولقي، سبعون عاما من المسرح في اليمن، وزارة الثقافة والسياحة، عدن، 1983.

– سلطان أحمد عمر، نظرة في تطور المجتمع اليمني، دار الطليعة، بيروت، **1969**.
– سيد مصطفى سالم، مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، **1976**.
عبدالعزيز المقالح، الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، دار العودة، بيروت، **1978**.
– نفسه، لا بد من صنعاء، مجموعة شعرية، الدار الحديثة للطباعة والنشر، تعز، **1971**.
– نفسه، قراءات في الأدب والفن، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، **1979**.
– عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، **2004**.
– نفسه، اليمن الجمهوري، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، **1983**.
– عبدالله بن حسين الأحمر، مذكرات الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر، الآفاق للطباعة والنشر، صنعاء، **2007**.
– عبدالواسع بن يحيى الواسعي، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزّن في حوادث وتاريخ اليمن، ط 4، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، **1984**.
– عبده عثمان وعبدالعزيز المقالح، مارب يتكلم، مجموعة شعرية، الدار الحديثة للطباعة والنشر، تعز، **1971**.
– عبده عثمان، فلسطين في السجن، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين، **1971**.
– علي مُحَمَّد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، 2ج، المركز الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، **2003**.
– قاسم غالب وآخرون، ابن الأمير وعصره، ط2، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، **1983**.
– كلودي فايان، كنت طبيبة في اليمن، ترجمة محسن العيني، ط3، دار الكلمة، صنعاء، **1985**.
– لطفي جعفر أمان، الأعمال الشعرية الكاملة، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، **2004**.
– مجلة الكلمة، الأعداد الصادرة من **1971** إلى **1980**، مكتبة مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.
– محسن أحمد العيني، معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، دار الشروق، القاهرة، **1999**.
– مُحَمَّد أحمد نعمان – الفكر والموقف، الأعمال الكاملة، التوجيه المعنوي، صنعاء، **2001**.

– مُحَمَّد أنعم غالب، اليمن (الأرض والشعب، اقتصاديات اليمن، الدولة في النظرية والتطبيق، نظرية المِلكية، الضرائب)، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1966.
– نفسه، غريب على الطريق، مؤسسة الميثاق، ط2، 2009.
– مُحَمَّد عبدالعزيز سلام، ذكريات وأحداث يمنية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2006.
– مُحَمَّد عبدالولي، الأعمال الكاملة، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2012.
– مُحَمَّد سعيد العطار، التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1966.
– مُحَمَّد الشرفي، الأعمال الكاملة، 2ج، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، صنعاء، 2007.
– نفسه، الانتظار لن يطول، مطبعة العلم (مكان الطبع وتاريخه غير مذكورين).
– نفسه، حارس الليالي المتعبة ومسرحية أخرى، دار الحرية، بغداد، 1989.
– نفسه، حريق في صنعاء، الدار الحديثة للطباعة والنشر، تعز (تاريخ الطبع غير مذكور)،
– نفسه، في أرض الجنتين، دار الهنا للطباعة، القاهرة (تاريخ الطبع غير مذكور)،
– نفسه، ولليمن حكاية أخرى، دار الهمداني، عدن، 1984،
– مُحَمَّد علي الشهاري، طريق الثورة اليمنية، القاهرة، دار الهلال، 1966.
– مُحَمَّد بن مُحَمَّد زبارة، أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر، المطبعة السلفية، القاهرة (تاريخ الطبع غير مذكور)
– نفسه، خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، 4ج، مركز التراث والبحوث اليمني، مطابع الأهرام، القاهرة، 1998.
– نفسه، نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، 2ج، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1979.
– نفسه، نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت (تاريخ الطبع غير مذكور).
– نفسه، نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعا (مكان الطبع وتاريخه غير مذكور).
– مُحَمَّد محمود الزبيري، ثورة الشعر، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1985.
– نفسه، ديوان الزبيري، دار العودة، بيروت، 1978.

– نفسه، مأساة واق الواق، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1985.

– وهبية أحمد صبرة، البنية الروائية في يموتون غرباء لمحمد عبدالولي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، سلسلة دراسات وأبحاث، رقم 8، الآفاق للطباعة والنشر، صنعاء، 2002.

– يحيى قاسم سهل، المجتمع المدني في عدن: 1839 – 1967، مكتبة مركز الصادق للطباعة والنشر والتوزيع، صنعاء، 2014.

المحتويات